مجموع رسائل الجاحظ

حقق نصوصه وقدم لها وعلق عليها

الدكتور محمد طه الحاجري

دار النهضة العربية – بيروت

مجموع رسائل الجاحظ

مجموع رسائل الجاحظ

حقق نصوصه وقدم لها وعلق عليها

الدكتور محمد طه الحاجري

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص. ب ٧٤٩

بيروت ١٩٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

اللهم إني أستعينك وأستهديك ، وأعوذ بك من كل ما يهجس في نفسي مما لا يرضيك ، ومن كل ما قد يتدسس إليها من وساوس ونوازع تدفع بي عن رحابك ، وتبعدني عن ساحتك ، وتقصيني عن موارد الفطرة الصافية الطاهرة التي فطرت الناس عليها

وأتوجه إليك سبحانك ، تباركت وتعاليت ، ضارعاً خاشعاً ، أن تجنبني أسباب الهوى ، وأن تثبت قدمي على صراطك المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، حتى لا أزل عنها ، ولا أنحرف عن جادتها ، فتتلقفني متاهات موحشة ، لا ملجأ لي فيها ولا عاصم لي منها إلا أنت جل شأنك .

ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير .

وبعد ، فهذه صفحة أردت أن أجلو فيها قصتي مع أبي عثمان الجاحظ ، وقد تبدت مراحلها لي منذ اعتزمت أن أعود إلى هذا المجموع ، نظراً فيه ؛ واستكمالاً له ، وتحقيقاً لما كان يتردد في الخاطر عنه ، ثم حيل بيني وبينه .

وإنما أردت بتقديمها بين يدي هذا الكتاب أن أوضح بها بعض المعالم التي ربما كان لها شأنها في تقويم هذا العمل ، وفي تفهم الغاية
٣ منه ، وتقدير شأني فيه ، فضلاً عما في مثل ذلك من الاستجابة إلى نوازع شيخ ما تزال تشده إلى ماضيه ، وترده إلى تأمل صوره حياته الأولى ومواردها ، يأنس بها .

تمهيد

عهدي بالجاحظ ، منذ أخذ اسمه يطرق سمعي ويتخايل لبصري لأول مرة ، عهد قديم موغل في القدم ، تمثلني الذاكرة فيه صبياً في مرحلة الصبا الأول ، يزجي وقته بترديد بعض المحفوظات ، ينشدها ويتغنى بها . ومن بين هذه المحفوظات قطعة يتصدرها اسم الجاحظ استبدت بمشاعره ، وغلبت موسيقاها عليه ، فهو ما يزال مأخوذاً بها ، يردد كلماتها، حتى انتقشت في ذاكرته ، واستقرت في حافظته ، وحتى لقد بادرت إلي ، منذ أخذت في مراجعة هذه المرحلة ، وإذا هي قوله : « أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الانصاف ، ورجح في قلبك ايثار الأناة »

وكان ذلك هو كل ما أعرفه عنه ، ويرتبط في ذهني به .

حتى إذا انتقلت في التعلم إلى مرحلة أخرى ، تحولت فيها من مسقط رأسي في الصعيد الأدنى إلى القاهرة ، وشببت بذلك عن الطوق ، وجعلت اتنقل بينها وبين مسرح صباي ، إذا بي أصادفه مرة أخرى مصادفة أثارت ذكراه الأولى ، وايقظت حبي الأول له . ولكني ألقاه هذه المرة في

حشد من الحديث يشيد به ، ويعرف بشيء من مكانته . وذلك حين ألقي إلى كتاب ذكرى أبي العلاء لأقرأه ، فلا أكاد أمضي في مقدمته حتى أراه إزائي ، فأبهر بما يتمثل لي منه . إنه علم شامخ من أعلام الأدب العربي التي تثير شهية الدارسين ، وتحوم حولها مطامحهم ، وتتعلق بها أحلامهم وتطلعاتهم ، ثم يرتدون عنه ، رهبة له ، أو إدراكاً لقصور وسائلهم التي تجعلهم يخوضون عبابه .

وربما كانت هذه الصور الأولى التي تمثلت لخيالي عنه ، ثم ترسبت فيه ، هي التي جعلتني ، فيما بعد ، دائم التطلع إليه ، حتى ما يكاد يتفق لي في بعض ترددي على مكتبات القاهرة ، كتاب له يحمل اسمه ، هو كتاب الحيوان ، في طبعته تلك القديمة التي لم يكن ثمت غيرها ، حتى تشبثت به ، ثم عدت به إلى مثواي فرحاً بالحصول عليه ، واقبلت على الجلوس إليه ، والعكوف عليه ، أقرأ فيه هنا وهنا ، واتنقل معه من موضوع إلى موضوع ، فلا يكاد يصرفني عنه ، ويقطع عليّ المتعة به ، إلا ما لا بد لي من الانتقال إليه .

وتكر الأيام ، وينعطف مجرى حياتي ، وإذا بي في إحدى غرف الدراسة بكلية الآداب ، استمع إلى طه حسين ، صاحب ذلك الكتاب الذي ألقي إلي منذ عهد غير قريب ، يلقي علينا أولى محاضراته ، وقد أزمع ـ كما قال في مستهل حديثه ـ أن يجعل موضوعها أحد فنون الأدب العربي ، وهو فن الهجاء ، كما تطور إليه ، وتمثلت صورته في النثر الفني ، وكما نرى ملامح هذه الصورة في كتاب التربيع والتدوير للجاحظ . فهأنذا أراني مرة أخرى مع هذه الشخصية التي داعبتني صبياً ، وخلبتني شاباً ، وهأنذا أسارع بالتماس هذا الكتاب الذي يتمثل فيه هذا الطور من أطوار الأدب العربي ، حتى أظفر به مع صواحب له في مجموعة رسائل

الجاحظ التي عني بطبعها ذلك الرجل الذي طبع كتاب الحيوان فأتاحه لي ، وهو الحاج محمد الساسي المغربي التاجر بالفحامين .

وإذا كان طه حسين لم يلبث أن شغلته شواغل العمادة والرياسة عنا ، فلم يستطع أن يمضي فيما كان بدأه معنا ، فلم يكن ثمة ما يصرفني عن الجاحظ ، فمضيت معه ، كلما أتيح لي أن أصحبه ، وانتقل معه في شتى مجالاته ، وكلما عرض لي شيء عرض له وكتب عنه . وكم كانت غبطتي عظيمة بذلك الأسبوع الذي نظمته كلية الآداب له ، فقد كان ، بما ألقي فيه من محاضرات تناولت جوانبه المختلفة ، وما كان يدور حول هذه المحاضرات من أحاديث وتعليقات ، مبعث نشاط غمر جوانب نفسي ، وتدفقت تياراته فيها صاخبة متجاوبة .

وقد كان من الطبيعي ، فيما يبدو لي الآن ، وذلك كان شأني معه ، أن أجعله موضوع دراستي ، بعد أن فرغت من المرحلة الجامعية الأولى . وكذلك كان . فلم ألبث ، بعد أن طوفت قليلاً هنا وهنا ، أن انتهيت إلى كتاب البخلاء ، فاتخذته موضوع تلك الدراسة . فعكفت عليه ، وقد وضعت بين يدي النص الذي أخرجه فان فلوتن ، والمخطوطات التي اتيحت لي منه ، والنصوص المتناثرة المأخوذة عنه ، لأخرج من ذلك بالنص الذي أرى أنه أشبه به ، وأدنى إلى أسلوبه ، وأنا أتمثل في خلال ذلك منهجه ، وأتعرف إلى أسلوب حياته . ولم يبق عليّ إلا أن أكر على ما اجتمع لي من ذلك ، فأجمع بينه ، وأقدم به له .

هذه هي ملامح الصلة التي انعقدت بيني وبين الجاحظ ، منذ بدأت في تلك الصورة المقتضبة العابرة إلى أن بلغت ذلك المبلغ ، لم أجد بداً من أن أسترجعها وأتمثلها ؛ وأنا أكتب هذه المقدمة ، لأنها ـ فيما أقدر ـ

هي التي وطأت للمرحلة التالية التي انتهت بإخراج (مجموع رسائل الجاحظ) في سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة وألف ، عن دار لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وهو المجموع الذي يمثل وجهاً من وجوه صلتي بباول كروس ، ذلك المستشرق الذي صادفه طه حسين في باريس صيف سنة ست وثلاثين ، فرأى فيه ملامح نبوغ جعلته يعمل على استقدامه إلى مصر ، ليكون في هيئة التدريس بكلية الآداب .

ولم يكد هذا المستشرق الشاب الذي حدثنا طه حسين عنه يضع قدمه في الجامعة حتى بدا لنا شعلة من النشاط دائمة الاتقاد والبريق ، لا تفتر ولا تخفت ، وحركة دائبة متصلة لا تمل ولا تهدأ ، وإقبالاً على كل موضوع يثور درسه ، وغشياناً لكل حلقة بحث أو مجلس علم . ومشاركة فيه مشاركة جادة خصبة مثمرة ، تكشف عن علم واسع ، ومعرفة دقيقة بالمصادر والمراجع ، وتمرس بالمخطوطات وإدمان لها ، مما جعله قادراً على حل مشكلاتها .

في هذه الحدود كان اتصالي به ، ومعرفتي له ، حتى إذا فرغت من عملي في كتاب البخلاء ودرسي له ، وكان قد تم له في مصر سنتان ، كان أحد أعضاء اللجنة التي وكل إليها فحص ذلك العمل ، ومناقشته ، ومنذ ذلك الوقت جعلت صلتي به تتخذ وجهاً آخر . إذ يبدو أن عملي في تحقيق نص البخلاء وقع من نفسه موقعاً خاصاً جعله يقبل عليّ ويتحفى بي . فلم تلبث صلة ما بيننا أن توثقت . وإن ظلت هذه الصلة محدودة بحدود ما عرفه فيّ ، مقصورة من جانبي على ما آنسه في نفسي ، فضلاً عما يغلب على طبيعتي من تحفظ .

وكان أكبر مظهر لهذه الصلة هو النظر في النصوص العربية التي تدور

حولها دراساته ، ومقارنة اصولها ومخطوطاتها ، ومراجعة ما عهد إليه أو ما تطوع له وتكفل به من مثل هذه النصوص . وقد كان أكبر همه وأكثر ما كان يشغله في ذلك الوقت هو درس الفكر العلمي عند المسلمين في صوره المختلفة ، والتماس ينابيعه وأصوله القريبة والبعيدة ، والتعرف إلى المسالك التي سلكتها ، والمنافذ التي نفذت منها ، والملابسات التي لابستها أو تعرضت لها.

وكان من الطبيعي أن يكون الجاحظ من أول الذين يثيرون انتباهه ويلفتون نظره ، فيما هو بسبيله . وإن كان في مشاركاته العلمية يمثل نمطاً آخر يختلف اختلافاً غير قليل عن تلك الأنماط التي مقبلاً على درسها ، كجابر بن حيان وأبي بكر محمد بن زكريا الرازي . فهو مزاج من الأدب والعلم ، ومن الفن والمعرفة ، يمزج هذا بذاك ، ويمضي بهذا في ركاب ذاك . وإنما تأتي له أن يعد في زمرة رجال العلم ، وإن كانت ثقافته في جملتها عربية أعرابية ، لأن اصطناع الكلام أخذه بأدب المتكلمين الذين يريدون أن يعرفوا كل شيء .

وكان كروس ، في هذه المرحلة من حياته ، قد أخذ نفسه بالعربية أخذاً شديداً . علماً بها وممارسة لها . فهو لا يفتأ يتعرف إليها في مصادرها المختلفة ، كما يحاول في الوقت نفسه أن يجيد التحدث بها ، وأن يصطنعها في كتابة الفصول المختلفة التي عني بكتابتها ، وفي أداء بعض محاضراته العامة ، فضلاً عن دروسه الخاصة . وقد كان له من حيويته الدافقة ، ومن مرانته اللغوية، ما مكن له من أن يبلغ من هذه الغاية التي جعلها نصب عينه مبلغاً مذكوراً .

ولعل ذلك كان من بعض ما أغراه بالجاحظ الذي يمثل الطواعية

اللغوية والبساطة التعبيرية، ينفق في درسه غير قليل من جهده .

وعن ذلك كله نشأت ـ فيما أظن ـ فكرة إخراج طائفة من رسائل الجاحظ التي لم تنشر ، أشاركه في تحقيق نصوصها ، وفي العمل فيها . فكانت المجموعة الأولى منها التي أردنا بها أن نرسم للنشر الأصول التي تجمع بين طبيعة اللغة العربية ومقتضياتها ، بين الرسوم التي اختطها القائمون على نشر التراث اليوناني واللاتيني ،لنتبعها بعد ذلك بغيرها مما لم ينشر بعد من رسائل الجاحظ . وربما كان مما فكرنا فيه أن نلحق بهذه الرسائل بعض الدراسات التي تلقي الضوء على كل واحدة منها .

ولكن هذا المشروع الذي كان مثار أحلام كثيرة لم يقدر له أن يبلغ تمامه .

وكان من أول ما اعترض سبيله وعوق مسيرته تعذر اجتماع القائمين به . ذلك أني وجدت نفسي في صيف سنة اثنتين واربعين منقولاً من جامعة القاهرة إلى جامعة الاسكندرية ، ففرق ذلك بيننا ، وعز علينا أن نلتقي على النصوص نقابل بينها ، ثم على تجارب الطبع نصححها ونقومها .

ثم كان ـ مع هذا ـ أن هذا النقل إلى جامعة جديدة وقسم ناشىء ضاعف من الأعباء العلمية الملقاة على كاهلي ، وألقى عليّ تبعات كان لا بد أن أنهض بها . فكان من أثر ذلك أن شغلت إلى حد غير قليل عن المشاركة المباشرة ،وعن ما كان عليّ أن أؤديه من دراسة كل رسالة على حدة ، تبين دوافعها ، وتعرف بملابساتها ، وتوضح ملامحها ، وتضعها في مكانها . وإذ كان لا بد من أن نصدر هذه الرسائل ، فلم يكن بد من أن تخرج بالصورة التي لم يكن غيرها ممكناً لنا . ونحن نقدر أن يكون في استطاعتنا استدراك ما فاتنا في الطائفة أو الطوائف التالية لها .

وما أدري إلى أي مدى كان من الممكن أن نمضي لتحقيق ما كنا على نية أن نستدركه . وخاصة أن الدكتور كروس كان ـ في تلك الفترة ـ غارقاً حتى أذنيه في شواغل كثيرة : علمية وغير علمية ، استغرقت كل وقته ، واستنفدت جميع طاقته ، وما زالت تلح عليه حتى أوهنت قواه وأوهنت أعصابه ، وحتى أفلت زمامها من يده ، وانتهى الأمر به إلى ما لم يكن أحد يتوقعه له ، إذ استخلص نفسه من هذه الأعباء الثقال التي كانت تبهظه ، ومن هذه الشواغل المريرة التي كانت تحاصره ، بأن أنهى حياته بيده ، في شهر اكتوبر سنة أربع وأربعين ، ولم يكد يمضي على ظهور مجموع رسائل الجاحظ أكثر من عام .

وبذلك انتهت هذه المرحلة في قصتي معه ، ومع ذلك المجموع .

ولكني قصتي مع الجاحظ ، دارساً له ومعدّاً رسالتي عنه ، لم تكن قد انتهت ، كما أن تفكيري في ذلك المجموع ، وما ينبغي أن يكون شأني معه ، كان ما يزال يخطر لي ويشغل بالي حيناً بعد حين . وإن بقي أمره كما هو ، لا يعدو التفكير على هذا النحو فيه .

ولكن درسي للجاحظ وإكبابي عليه ، قدر ما كانت تأذن به شواغلي وتبعاتي ، لم تكن لتدعني أنظر في آثاره التي لم تنشر ، أحقق نصوصها ، وأتم بنشرها ما كنا شرعنا فيه ، وإن كانت هذه الآثار نفسها وثيقة الصلة بما أنا ماض فيه من درس الجاحظ ، من حيث كونها مصدراً من مصادري ، فظل ذلك شأنها إلي أن يأذن الله لي بالتفرغ لها .

ويدفعني الجاحظ من ناحية ، وتبعاتي العلمية من ناحية أخرى ، إلى بعض الدراسات المتصلة به ، أو المتعلقة بعصره ، الكاشفة لجوانبه ، فاستغرق فيها ، فلا أجد من وقتي ولا من جهدي ما يتيح لي أن أراجع ذلك

المشروع الذي كنا ـ كما كان يخيل إلينا ـ وضعنا أصوله ، ورفعنا قليلاً بنيانه ، في انتظار أن نعود إليه .

ثم لا أشعر إلا والصديق الكريم والزميل القديم الذي اتجه منذ عهد بعيد إلى الجاحظ ، يعنى بمكتبه يبعثها ، وبآثاره ينشرها ، قد انتهى به المطاف إلى رسائله في مجموعتيها المخطوطتين ، فهو عاكف عليها ، بما اجتمع له من خبرة طويلة المدى ، ومن ذوق أدبي وحس فني ، يريد أن يردها إلى الحياة ، ويبوئها مكانها في عالم الفكر والأدب ، فأحسست لذلك بغير قليل من الروح والغبطة ، فقد رفع بذلك عن كاهلي عبئاً كنت دائم الإحساس به .

ولكني لا أكاد أطمئن إلى هذا الذي منّ الله عليّ به ، حتى جعل ذلك المشروع القديم يطل عليّ ، يراودني ، وحتى أخذت ذكريات عملي فيه ، وتخطيطي له ، وتفكيري فيما ينبغي أن يكون عليه ، تداعب خيالي ، وإذا بنفسي تذكرني بأني لست في صميم أمري وخاصة عملي إلا مؤرخ أدب ، وأن النصوص عندي لا تعدو أن تكون أداتي لتحقيق هذه الوظيفة الجوهرية والأولى لي . فلا بأس في أن أراجع ذلك المشروع القديم على ذلك الأصل . وإذا كنا بدأنا ، أنا والدكتور كروس ، بروح المحقق للنص ، فلا حرج في استئنافه بروح مؤرخ الأدب ، وأن أبقي على الرسائل التي كانت قد نشرت في ظل تلك الروح ، كما هي ، على أن أخضعها لروح المؤرخ ، فأعيد ترتيبها على ما تقضي به هذه الروح ، وأقدم لكل منها بمقدمة تبين ملابساتها وتحللها ، وتضعها في مكانها من حياة الجاحظ خاصة ، ومن تاريخ الأدب العربي في هذه الفترة عامة . ثم أضم إلى هذه الرسائل ، التي أصبحت بذلك تمثل الطابع الأول والطابع الأخير جميعاً ، ما تهيأ لي من آثار الجاحظ ، بعيداً عن تينك المجموعتين اللتين يعني بهما

الأستاذ عبد السلام هارون ، مما هو وثيق الصلة بالتاريخ الأدبي والفكري لهذه الفترة ، واضح الدلالة على أثر الجاحظ فيها .

وكذلك كان أمر هذا المجموع ، فيما سنى الله لي ويسره ، له الحمد في الأولى والآخرة .

وإذ كنا قد أبقينا على الرسائل الأربعة التي تضمنها المجموع في صورتها الأولى ، على ما كانت عليه ، دلالة على الطابع الأول لها ، ولم نبدل منها غير ترتيبها الذي راعينا فيه الترتيب الزمني ، وإلا ما لم نر بداً من تصحيحه أو توضيحه ، ولم نضف إليها غير المقدمات التي وضعناها ـ كما سبق القول ـ بين يديها ، فلا بأس في أن نعيد في هذه المقدمة نشر ذلك الجزء من المقدمة الأولى الذي يوضح المنهج الذي جرينا عليه فيها ، والذي يبدو ألا بد للقارىء منه ليستطيع مجاراة أسلوب التحقيق الذي التزمنا به .

وها هوذا :

« وأخيراً بقيت لنا كلمة صغيرة في المنهج الذي أخذنا أنفسنا به في نشر هذه الرسائل فسيجد القارىء في هذه النشرة شيئاً لم يألفه ، وهو خلو الصفحات من الأرقام الكثيرة التي تشير إلى القراءات المختلفة ، وهي كثيراً ما تشتت خاطره في متابعة القراءة فاكتفينا بالإشارة إلى الأسطر مع وضع نجمة صغيرة هكذا(*) قبل الكلمات التي يعلق في الهامش عليها. وكذلك اقتصدنا في عبارات التعليق معرضين عن الكلمات الكثيرة التي تعتبر نوعاً من الفضول والتي ترد كثيراً في النشرات العربية ، فوضعنا الرمز المشير إلى المخطوطة بعد الكلمة المشار إليها . فإذا وجدت ـ مثلاً ـ في هامش الصفحة الثانية العبارة الآتية : « (٢) والعالم والجاهل م » كان معنى هذا أن العبارة المذكورة هي قراءة نسخة م في مقابل « والعالمون

والجاهلون » الواردة في السطر الثاني من تلك الصفحة والمشار إليها بنجمة ، وهي قراءة نسخة الأصل ن وهكذا .

وكذلك اصطلحنا على استعمال نوعين من الاشارات دلالة على النقص والزيادة وهما قوسان مربعان [ ] علامة على النقص ، وقوسان مثلثان < > علامة على الزيادة . فإذا وجدت ـ مثلاً ـ في هامش الصفحة الثانية الإشارة : « (٧) [كلها] م » كان معنى هذا أن الكلمة « كلها » الواردة في السطر السابع والمعلم عليها بنجمة ، وهي قراءة نسخة الأصل ن ، محذوفة في نسخة م. وإذا وجدت، بعد هذا التعليق الآتي: «< تكاد > م ب» فمعنى ذلك أن كلمة «تكاد» ناقصة في الأصل ن وأنها مأخوذة من الروايتين الأخريين م ، ب.

أما العبارة الواردة في ص ٦١ : « (١٠) م : [] ن » فمعناها أن الكلمة « نعم » وضعت في المتن عن نسخة م وإن كانت محذوفة في نسخة ن . وكذلك العبارة الواردة في ص٦٣ : «(١٠) < . . . > ب: سهمك في صدرك ن » معناها أن الكلمات الواردة في المتن في السطر العاشر بين هاتين العلامتين مأخوذة من نسخة ب ، ناقصة في نسخة ن .

وكذلك استعملنا هاتين العلامتين « < > » في ص ١٢:٥٠ ، مثلاً ، إشارة إلى ما سقط في الأصل واقترحنا إضافته ».

(١)
رسالة رثاء وتأبين

تقدمة :

هذه الرسالة التي يراها القارىء، بعد، مظهر واضح جلي من مظاهر التطور الذي اتيح للنثر العربي ، وتم تمامه على يد الجاحظ ، في القرن الثالث للهجرة ؛ إذ اقتحم على الشعر أبوابه ، وشاركه في ميادينه، وجعل ينافسه عليها منافسة قوية رائعة . وقد ظل الشعر زماناً مستأثرا بالمعاني الفنية ، منفردا بالتعبير عنها ، إذ كان اللغة الغنائية الوحيدة التي يتغنى بها الرجل في آلامه وآماله ، وفي حبه وبغضائه ، وفي نشواته العصبية المختلفة ، لا تشركها في ذلك لغة غيرها ، حتى تم للنثر ذلك التطور .

وليس بنا الآن أن نبين كيف حدث هذا التطور، وكيف انتهى إلى غايته ، فلسنا هنا إلا بصدد التقدمة لهذه الرسالة ؛ والإشارة إلى بعض وجوه الخطر التي تقدمها ـ هي ونظائرها ـ في تاريخ (العبارة الفنية) في اللغة العربية ، وكيف استطاع الجاحظ ان ينقل موضوعات الشعر الى النثر ، وأن يفتح ـ بذلك ـ لهذه الموضوعات أفقاً أرحب ، وعبارة اسمح ، وتجاوباً مع النفس العربية الجديدة ـ التي صقلتها الحضارة ، وأرهفها

الترف ، ومدت من جوانبها المعرفة ـ أدق وأصدق . وبذلك كان الجاحظ يمثل تطور العقل العربي ، حين لم تعد تكفيه وتقنع رغباته الواسعة تلك المعاني المقصورة ، وتلك الصور المركزة ، وتلك العبارات المقتضبة الموجزة ، فاستطاع أن يستجيب لهذا الاتجاه ويعبر به ، حين امكنه أن يقيم ذلك النحو من (العبارة الفنية) المتوسطة بين الشعر والنثر : تقف بينهما ، وتصطنع خصائصهما ، على النحو الذي نراه في هذه الرسالة التي كتبها في رثاء صديق له .

والرثاء فن شعري ، استأثر به الشعر حتى هذه الفترة . ولكن الرثاء في هذه الرسالة متأثر ـ بطبيعة الحال ـ بروح النثر ، ومن هنا كان مختلفاً عما نعهد منه في قصائد الشعراء . فهو يجيء هنا في سياق صورة مفصلة لشاب اخترم في عنفوان شبابه ، يصور فيها الجاحظ (الموت) في جميع حالاته وملابساته ، منذ أخذت بوادره تتدسس عليه ، إلى أن غيّب في قبره . ومن ذلك كانت إثارته (الحزن) بما يرسم أمام الخيال من صورة الموت ، وهي تنطوي بطبيعتها على العناصر الأصيلة للحزن .

أما رثاء الشعراء فهو ـ في كثير من حالاته ـ أشبه شيء بندب النوادب ونوح النوائح . وكذلك ما يثيره من الحزن انما يجيء من هذه الناحية ويصدر ذلك المصدر . وكذلك نرى الأمر مختلفاً بين الرثاء هنا والرثاء في الشعر ، من ناحية (التأبين) أو تمجيد الميت . فالجاحظ انما يصور مآثره وفضائله من خلال تلك الصور ، فيجيء بها متسلّبة ، اتشحت بالحداد ، والتفت بالسواد ، لا مستقلة منتزعة من ذلك الجو ، كما هو الشأن ـ كثيراً ـ في الشعر ، مما حمل بعض النقاد على تقرير الفرق بين المدح والرثاء ، بأن الأول ذكر المآثر حاضره ، والرثاء ذكرها مقرونة بصيغة المضي .

وقد اخذنا هذه الرسالة من كتاب : (المختار من كلام ابي عثمان الجاحظ) ، وهو مخطوط محفوظ في مكتبة برلين . وقد وردت فيه غير معنونة ، كما هو الشأن في محتويات هذا الكتاب . وقد تكون هي الرسالة التي يذكرها ياقوت في فهرست كتب الجاحظ باسم : (رسالة في موت ابي حرب الصفار البصري) .

وها هي ذي ، بعد أن صححنا نصها جهد الطاقة ، وقدر ما تأذن به الروح العلمية في النشر والتصحيح .

النص :

ورد عليّ ـ أسعدَكَ الله ـ كتابُك ، تذكر فيه بُرءَك من شَكْوِك ، وتَسْتَريبُني في ترك الكتابِ إليك ؛ وأنت غافِلٌ عما جَرَت به الأقدار ، وأصاب به الدهر ، وقرعت به المنون ، وطَرَقت به الحوادث . ولم أبطىء بكتابي عنك ـ أكرمك الله يا أخي ـ إغفالاً لحقِّك ، ولا قلّة مُنازعة من نفسي لمحاوَرتك ؛ ولكنّه شغلُ البال ، وريب الحَدَثان ، وتقلّب الأزمان . فإني قد أصبحت كما قال الشاعر :

لم يترك الدهر لي عِلقاً أضَنُّ به إلاّ اصطفاه بموت أو بهجران

وقد هاجني على الكتاب اليك مُعتلجات الهموم ، مُبِثّاً [(١)] لك بعض ما في صدري ، استراحةَ المكروب ، ونفثَ المصدور ؛ فقد أصبحت رَصَدا للمهلك ، وبمدرَجة العطب ، وبمشرب السُّموم ، وبحِسْي الموت . وأحسب هُلْكَ أبي فلان ـ رحمة الله عليه ورضوانه ، وآتاه الله الرفعة والشرفَ الأعلى لديه ـ قد نَمَى إليك وبلغك . وإنا لله وإنا إليه راجعون ؛ تأدّباً بأمره ، وتعرّضا لموعوده . ولا حولَ ولا قوّة إلا بالله .

وقد رأيت تعريفَك كُنه خبره ، فافهم ـ رحمك الله ـ واجتهد في أن تكون السعيد الموعوظ بغيره .

وقد كنتُ عاينتُ شَكْوَه ، وفارقته عليه ، في غرة شهر رمضان . ثم تزيّد في جَهد العلّة وفي حِدّتها . وكان اليأس منه والخوف عليه ، أقوى من الرجاء له والطمع في سلامته . ثم انحدرت العلّة ، وأطمع في الإفاقة ، وتزيّد في الإطماع ، وتحلّل السقم وشدة المرض ، واستبشر مؤمِّلوه العافية

---

(١) مبثا : من أبث بمعنى أظهر بثه . والبث الحزن والغم ، يفضي به المرء إلى صاحبه .

له ببُرئه . فلم يزل يتزيّد في صلاح الحال ، ورجوع القُوى ؛ حتى إذا أكل ما اشتهى ، وركب ومَشى ، وخرج الى البستان ، وثابت نفوسُنا من الإشفاق ، وزال عنه القلق والحذار ، وعاوده الأمل والاغترار ، وقال لي في بعض مناجاته واستجلابه العافية ، واستلذاذه معاودة الصحة : « إ خالتي قد نجوت ، وأراني قد أقبلت »، < كان > كما قال الشاعر :

إذا بلّ من داءٍ به خال أنه نجا ، وبه الداء الذي هو قاتله

على أنه ـ يرحمه الله ـ في ذلك كمِد اللّون ، نحيف الجسم ، مضطرب المِزاج ، متغيّر عن الاعتدال . وهو ـ مع ذلك ـ يخرج الى مسجده ، ويجلس بفنائه .

ثم تغيّرت به العلة ؛ قد خلت عليه ، فإذا نفسه قوية ، وطبيعته جيدة ، وعلّته غير منكرة ؛ فسألته ، فردّ جواب فسيح الأجل ، قويّ الرجاء ، بغير انكساف بال ، ولا وجلٍ من وشك ارتحال ؛ وظلّ يومه ذلك على حاله من الصلاح .

فلما أصبح دعا بسِواكه ، فاسْتنّ به ؛ فبينا هو يمرّ بالسواك على ثغره انكرت أمّه ضعف يده . فقالت : « مالك ؟»، فقال : « ما أدري ! أني لمنكر نفسي . بادروني بالنزول»، فبودر به ؛ فلما صار على الدرج منحدراً على قدميه ، عنّ له الموت مطلاً ، وطرقه ما كان يهرُب منه طويلاً ، وفاجأه الذي راغ منه مجتهداً ، وبَغَته ما لم يجد عنه مَوئلاً . فسقط سقطة لم تكن بعدها إقالة ، فشخص لها بصره ، واضطرّبت جوارحه ، واحتُمِل الى قرار منزله على تلك الحالة الهائلة ؛ لا يسمع الدعاء ، ولا يحفِل بالبكاء ، ولا يردّ الجواب ، ولا يعبأ بالأحباب . قد خلتُ عليه ، وهو كما قال مطيع بن إياس .

وينـادونـه ، وقـد صَمّ عنهم ثم قالوا ـ وللنساء نحيبُ ـ :

« ما الذي عاق أن تُجير جوابا   أيها المِقوَل الخطيب الأريبُ ؟ »

فبُعِث في أهل الطب والمعرفة ، فأتوا ، فرأوا حالاً فاتت التلافي ، وخرجت من العلاج ، وسبَقت الاستدراك ؛ فعلّلوهم وانصرفوا ، ولم يقضوا فيه قضاءا

وهو في ذلك مشغول بجَهد نفْسه ، وكَرْب غيره ، ونَزْعه وشدّة نفسه ، والموت يقبِضه ويبسُطه ، كالثوب عند الطيّ والنشر ، صَريعاً مُستسلماً ، أسيرا منجدِلاً . قد خذله الوَلَد والوالد ، والحميم والصديق ؛ فأكثر ما عندهم الحسرة والتلّهف ، والاستكانة والنشيج . فمكث يومه ذلك ، ثم حُمّ حمّى مُدفِيه ، وفاظ في آخرها ، وورد حيث وُعِد ، وزهق الباطل . فعجّوا وضجّوا ، وهتفوا وولولوا . جَهد لعمرك قليل الردّ .

ولن يرجع الموتى حنين المآتم

فيا للهِ مُعتبطاً ما أغض وأطرى ، وأي فتى ، رحل عنا . كما قال الهذلى :

فراق كقيص السنّ ، فالصبرَ ، إنه   لكـــل أنــاس عثــرة وجبــور

ثم دخلنا لنغسله ، وهو شِلْوٌ على سريره ، طريح على مُغْتَسَله ، لقىً لوجهه ، تقلبه الرجال بأكفّها ظهراً لبطن ، كما قال يزيد بن خذّاق :

ورجّلوني ، وما رُجِّلت من شَعَث ،   وألبسـوني ثيابـاً غيـر أخـلاق
ورفّعوني . وقالوا : أيّما رجل   وأدرجوني كأني طيّ مخـراق

ثم أُخرج ـ والله ـ من طارفه وتليده صفرا ؛ ولو ردّوه ما كان له فيه غِنىً ، ولا قُبل عنه فِدا . ثم أدرج في لفائفه ، وحمل على نعشه ، ينقله إخوانه وخُلصانه ، وأحبّاؤه وأصفياؤه ، وأنا أحدهم ، يا أبا محمد . فما رأيت كذلك المنظر منظراً ، لو اعتبر به الناس جميعاً لكان عندي عيّ ،

فكيف بنا ونحن أهل خاصته ومودّته .

ولو رأيت أمّه البائسة مرفوعة الحجاب ، ظاهرة للرجال ، قد عزّها الجزع فما أبقى ، ورماها فما أشوَى ، وجلّ الخطب أن تتعزّى ، حيرى ثكلى ، أمّ واحد ، ومفجوعةً فاقد ؛ لأنه ـ رحمه الله ـ كان من أشد الناس عليها حنوّاً ، وألطفِهم بها برّاً ؛ حتى لو عددتُه لملأ الكتاب ، ولما استكثر معه بِرّ طارق بن حبيب ، ولا برّ محمد بن طلحة السجّاد بأبيه[١] .

ولو رأيت حُرَمه اللائي كان يسترهنّ : من جارية نفيسة، وأمة محبوسة، وحرمة مقصورة، قد هتكن أستارهن، وبدت خدامهن، كقوم حل بهم السباء، وكتب عليهم الجلاء، كما قال الربيع بن زياد:

قد كنّ يخبأن الوجوه تستّراً فـالآن حين بـرزن للنـظار

ولو رأيت ابنته بها ذلّ اليتم ، وخشوع الاستكانة ، مبتذلة غير مصونة ، مكشوفة غير محجوبة ، ظاهرة الوجه والقدمين .

ولو رأيت أباه ، وإن دموعه لمُراقة ، وأن يده لترعد ، كأن به افكلا من شدة الجزع ؛ فأما علّة قلبه ونار صدره ، فلا أحسبها تطفأ غابرَ الأيام . ولو لم يكن ذلك للولد ، لكان للقائه والحزم في أمره ، والصيانة والبرّ به .

ولو رأيتَ ابنه لرأيت عَبرة لا ترقأ ، ودموعاً لا تغيض؛ سخين العين ، حرّان الصدر ، فائض الدمعة ، مسلوب الصبر ، ما يخالس دموعه ، ولا يتجلّد للشامتين .

---

(١) هو ابن طلحة بن عبيدالله التيمي ، أحد السابقين إلى الإسلام ، والملقب بطلحة الفياض . وكان من آيات بره بأبيه ما يذكر من أن هواه كان مع علي يوم الجمل ، إلا أنه أطاع أباه ، فقتل معه . ومن ذلك ما يؤثر عن علي أنه قال ، حين رآه قتيلاً : « هذا السجاد قتله بره بأبيه » .

ولو رأيت نداماه ومؤمليه حيارى ، لا يدرون على أيِّ خلاله يأسفون ، أعلى حسن عِشرته وكرم مَجلسِه ، أم على طيب خُلقه وصدق صفاته ، أم على نَجدتِه وشهامته ، أم على مُداراته ومُروءته ، أم على حلمه ومودته وأدبه .

وما رأيت سريراً شيَّعه من المترحِّم والباكي ، والمتفجِّع والداعي ، والمؤبِّن والمثني ، ما صحبه ؛ حتى أسهل على بعضَ الحزن ما سمعت من حسن الثنا ، وطيب النثا ؛ فمن باكٍ على شبابه ونضارة لونه ، وجمال وجهه ، وامتلاء جسمه ، وحَداثة سِنِّه ؛ ومن مُلتثٍ بالحنين ، مكروب بالأسف ، مُشْجىً بالغصّة ، غصان بسرعة الاخترام ومعاجلة المنية .

وما سمعت مُراجَعاً خبرهُ بعد موته ، في مثل سنّه ، أجمعَ لكل مكرمة ، وآخذَ لكل صالحة ، وأضمَّ لكل شاردة ، وأحفظ لكل ضائعة ، وأرعى لكل مُهمَلة ، وأضبط لكل مُنفلتة ، من الأخلاق البوارع الفواضل ، والافعال النفائس الجسيمة ، منه . وكذلك كان ـ رحمه الله تعالى عليه ـ فمضى .

كأن لم يقل يوماً مقالاً فتنثني إلى قوله الاسماع وهي رواغم

ثم وضع سريره بفناء مسجد الوصِيّ ، فصلى عليه جعفر بن القاسم ، ومن حضره من النساك والعبّاد والأشراف ، تحفزهم عِلَل غير واحدة ، أصغرها الرحمة له . ثم انطلق بنعشه الى حفرته ، خوّار العود ، قليل الامتناع . كما قال مالك بن الريب :

خُذَاني فجرّاني ببُردِي إليكما فقد كنت قبل اليوم صعباً قيادياً

ثم نُضِد عليه اللَّبن ، وسدّت خلاله ، وأهيل من جوانبه التراب ، بعين الشفيق ، ومحنة الوادّ ، وحسرة الصديق ، ومحضر الوامق . ثم لم

يلبثوا أن ودّعوه وانصرفوا وقال قائلهم : حتّى متى نقف

وأنا أقول قولاً أخرج من النّوح به ، ولا أخشى الكذب من الإغراق فيه :

لئن كانت المنايا جعلته غرضا للانتضال ، لقد جعل القيامة غرضاً لصالح الأعمال . ولئن أصبح شمله مبدّداً مقسّما ، لقد أصبح شمل حمده مجموعاً . ولئن كان ابتكره الإزعاج ، لقد ابتكر الهمم الرفيعة بالانتهاز والابتدار . ولئن شُهر موته في المصر ، لقد شهرت مكارمه في الجمع . ولئن خفى جسمه في التراب ، لقد خفى نظيره في الأرض . ولئن اعْتَبطه الموت ، لقد كان وُدّه لصديقه غضّاً ، ولئن واثبه الموت مغافصاً ، لقد واثب المعالي مفترساً . ولئن انقطع أثرنا من زيارته ، لقد بقى عندنا من أثر نعمته . ولئن كان على قلب الصديق خفيفاً ، لقد كان على كاهل عدوّه ثقيلاً . ولئن خربت مجالسنا من شخصه ، لقد عَمَرت قلوبنا بذكره . ولئن انقطعت مسائلنا له ، ما انقطعت مسائلنا فيه . ولئن بكيت عليه لأجدنّ مبكيً ، ولئن احتسبت لفي مثله يُحتسب .

ولو شئتُ أن أبكي دماً لبكيتُه عليه ، ولكن ساحَة الصبرِ أوْسَعُ

ولئن قصُرت مدة الامتاع به ، ما قصُرت مدّة الحزن فيه . ولئن ارتحل عنا وَشيكا ، لقد أثوى في قلوبنا الأسف طويلاً . ولئن عرَّضنا للصبر بموته ، لقد عرّضنا للشكر بحياته . ولئن دنوت من الناس بعده ، وقرُبت من جنابهم ، تسلّيا عن بعض الكمد ، وتنفيساً عن حرارة الغَلَل، انى في ذلك لكما قال الأول :

فإن أغش قوماً بعده أو أزورهم فكالوحش يُدنيها من الأَنَس المَحْل

ولئن أشر الباغي ، وفرح العدوّ ، وسُرَّ الحاسد ، وطفر الشامت ،

وجذل المبغض، واستبشر القالي ، ما تعزينا في ذلك الا بقول عديّ بن زيد :

أيها الشامت المعير بالدهـ ـرِ ، أأنت المبرَّأ الموفور ؟

ولئن تجلدت للشامتين ، وتزينت للعيون ، وأصلحت من شعري وثيابي ، وركوبي ولباسي ، فكما قال الأول :

وإنّي ، وإن أظهرتُ صبراً وحِسبة وصانعتُ أعدائي ، عليك لموجَع

ولئن رُمينا من الدهر بالجُلّى ، لقد سهلت علينا مؤونة الصغرى ، فنحن في فقدنا له كما قال الأول :

وكنتُ أعيرُ الدمعَ قبلك من بكى فأنتَ على من مات بعدك شاغلُه

ولئن قلت : انه قصّ الجناح ، وجذّم اليد ، وقطع الظهر ، وقصم النـاب ، وحطم الصُّلب ، وفلّ الحدّ ، واوهن المنّة ، واضرم الأحشاء ، وعقل اللسان ، وأهاج المتبلّد ، وأعاش الحَيرة، وأمات الذكاء ، ونزع الرغبة ، وأورث السلوة ، وبرى اللحم ، وهاض العظم ، وأورث الكمد ، وأعقب الأسف ، وهاج الكآبة ، لاصدقنّ ، بل لأقصرن عن نهاية ما بلغ

فالحمد لله ثم الحمد لله على نوائب الدهر ، ومكاره الأيام ، ومرارة العيش ، وتجرع الثكل ، واعتراض الشجا ؛ اصطبارا واستسلاما ، ورجوعاً الى أمر الله ، وتمسكاً بمراشده .

فـإن تكن الأيام فـرقن بيننا فقد بان محمودا أخي يوم ودعا

يا أبا محمد ، أصلحك الله ! ففيم التربص والانتظار ، وعلام الفَرجة ؟ إنما الدنيا كأهل دار ، متى نفر أولهم تلاحقوا ، فلم يبق فيها أنيس .

أفما تعلم أن الرَّكْب وقوف : من أتته دابته ارتحل ، غير أنّ الايابَ الى الله !

أو ما تعلم أننا رهائن بأنفسنا ، فكيف لا نسعى في فكاكها !
أو تعلم اننا منتدبون لحلية التشمير ، فما الونى والتأخير ! فنشدتك
الله تعالى ونفسي في التشدد والتخوف . ٣
فما نحن إلا مثلهم ، غير أننا أقمنا قليلاً بعد هم وترحّلوا

(٢)
فصول في الهجاء

تقدمة

هذه بقايا كتاب من كتب الجاحظ التي عدت عليها عوادي الزمن ، فلم يبق منه ، بين أيدينا ، غير هذه الفصول القليلة ، احتفظت بها المخطوطة البرلينية التي أشرنا من قبل إليها ، في تقدمتنا للرسالة السابقة التي نشرناها عنها . وكلا الأثرين يعتبر مظهراً من مظاهر التطور الذي أتيح للنثر العربي ، وإن اختلف موضوعاهما ، إذ كان هذا في الهجاء وذاك في الرثاء . ولكن الهجاء ـ كالرثاء ـ فن شعري ، استأثر الشعر به ، واختص بالتعبير عنه ، حتى حدث ذلك التطور .

وليس بنا في هذه التقدمة القصيرة أن نحلل هذه الفصول من الناحية الأدبية ، أو أن نتعرف الخصائص التي اجتمعت لها ،وجمعت فيها بين روح الشعر وروح النثر ، أو أن نشير إلى بعض الصلات التي تصل بينها وبين كتاب ككتاب (البخلاء) . فلهذا وما إليه موصفه الذي هو أملك به وأوسع له ، والذي نرجو أن يتاح لنا ، بعون الله ومشيئته ، أن نطرقه . ولكنا ، مع هذا ، لا نستطيع أن نغفل سؤالاً من أخص الأسئلة بهذه الفصول ، لنحاول الأجابة عنه : من عسى أن يكون موضوع هذا الهجاء

اللاذع؟ وماذا عسى أن تكون شخصية الرجل الذي وسمه الجاحظ بهذا الميسم ؟ .

والفصول التي بين أيدينا لا تسمى ذلك الرجل ، فليس لنا بد من أن نتلمس السبيل إليه تلمساً . ولعل الكتاب لو وصل إلينا كاملاً لم تكن بنا حاجة إلى مثل هذا التلمس ، فأكبر الظن أن الجاحظ لم يترك تسميته ، كما كان صنيعه في رسالة (التربيع والتدوير)، وفي معظم فصول (البخلاء). وفي هذا الكتاب أشار إلى مذهبه في التسمية وشرحه بقوله : « ولسنا من تسمية الأصحاب المتهتكين ، ولا غيرهم من المستورين في شيء : أما الصاحب فإنا لا نسميه لحرمته وواجب حقه ، والآخر لا نسميه لستر الله عليه ، ولما يجب لمن كان في مثل حاله . وإنما نسمي من خرج من هاتين الحالين . ولربما سمينا الصاحب إذا كان ممن يمازح بهذا كثيراً ، ورأيناه يتظرف به ، ويجعل هذا الظرف سلماً إلى منع شينه »[1]. وهذا الرجل ليس من الأصحاب ولا من المستورين ، كما يؤخذ من هذه الفصول .

وإذا كان قد فاتنا أن نعرفه من الكتاب مباشرة ، فقد أتيح لنا أن نعرفه من سبيل غير مباشرة ، بفضل اعتماد كثير من المؤلفين على كتب الجاحظ ، واستمدادهم منها ، إذ نجد ، بذلك ، عندهم ، ما ضاع منا

(١) البخلاء ، ص ٥٠ ، ط دار الكاتب المصري . وفي مقدمته ما يفصل الكلام عن هذا المذهب . والذي يلفت النظر فيه ما تومىء إليه المقارنة بينه وبين قول ابن حزم في صدر كتابه (طوق الحمامة) : « واغتفر لي الكتابة عن الأسماء ، فهي إما عورة لانستجيز كشفها ، وإما نحافظ في ذلك صديقاً ودوداً ورجلاً خليلاً ويحسبي أن أسمي من لا ضرر في تسميته ، ولا يلحقنا والمسمى عيب في ذكره . إما لاشتهار لا يغني عنه الطي وترك التعيين ، وإما لرضى من المخبر عنه بظهور خبره ، وقلة إنكار منه لنقله » .

عنده . وبذلك قدر لنا أن نعرف هذا الرجل الذي وسمه الجاحظ بكتابه وصبه عليه؛ وهو محمد بن الجهم البرمكي .

وقد وجدنا ذلك عند ابن قتيبة من معاصري الجاحظ في القرن الثالث ، في كتابيه (عيون الأخبار) و (تأويل مختلف الحديث)؛ وعند أبي إسحاق الحصري ، من علماء القرن الخامس ، في الأندلس ، في كتابه : (زهر الآداب)، وعند جمال الدين الوطواط ، من علماء القرن السابع والثامن في مصر ، في كتابه : (غرر الخصائص الواضحة)؛ إذ ينقلون فقرات من هذا الكتاب ، مع النص على أنها في صفة محمد بن الجهم هذا . كما نجد في بعض هذه الكتب ، وفي غيرها كشرح الشريشي على مقامات الحريري ، فقرات أخرى في صفته ، تجري على سياق هذه الفصول ، حتى ليغلب على الظن أنها مأخوذة من هذا الكتاب .

وإذن ، فمن هو محمد بن الجهم هذا ؟ .

هو - فيما تؤدي إلينا أخباره القليلة المنثورة هنا وهناك - عالم من سراة العلماء . في القرن الثاني والثالث . نشأ - فيما يبدو - مولى من موالى البرامكة ، وتربى في ظلهم . فاتجه في الثقافة اتجاههم . وبذلك كانت ثقافته مزاجاً من الفارسية ، وهي تمثل العنصر الأول الضروري منها ، واليونانية ، وهي تمثل ناحية الترف العقلي فيها .

وكان من مظاهر ثقافته الأولى ترجمته كتاب : (خداي نامه)، الذي كان قد ترجمه من قبل عبد الله بن المقفع ، كما ينص على ذلك صاحب كتاب (الآثار الباقية)، فأما مظهر ثقافته الثانية فهو هذا الذي عرف به واشتهر عنه ، من إقباله على كتب اليونان ، كأرسطو واقليدس ، واستغراقه في قراءتها ودرسها ، حتى اتخذ خصومه من ذلك مادة للتندر به ،

والتشنيع عليه ، كما نرى في هذه الفصول ، وكما نجد صورة منه عند ابن قتيبة ، إذ يقول : « ثم تصير إلى محمد بن الجهم البرمكي ، فنجد مصحفه كتب أرسطاليس في الكون والفساد والكيان وحدود المنطق ، بها يقطع عمره » .

وجملة القول أنه كان من أصحاب الثقافة الممتازة في عصره . ولعله استطاع بهذا أن يظفر من الخليفة المأمون بالمنزلة الرفيعة التي ظفر بها لديه ، فكان أحد ولاته على إقليم الأهواز ، وكان من أصحاب مجلسه الذين يوكل إليهم ، أحياناً ، بمناظره الزنادقة والملاحدة وأهل النحل المختلفة . وقد ألف له ـ فيما يقول القفطي ـ كتاباً « في الاختيارات ، قريب المأخذ ، صحيح العبارات جداً » . ولكن ثقافته هذه لم تتخذ ـ فيما يظهر ـ الصبغة الدينية التي طبعت المعتزلة بطابعها ، فكان ذلك من أول الفروق التي فرقت بينه وبينها .

ثم كان ، من ناحية الخلق الشخصي ـ رجلاً شديد الصلف والاعتداد بالنفس ، كبير التيه ، أناني المذهب . فكان لهذا مبغّضاً .

وقد يكون لمكانه في القصر ، ومنافسته المعتزلة عند الخليفة ، مع اختلاف النزعة العقلية والمذهب الفكري ، ما يمكن أن يعزى إليه هذا الجو البغيض الذي أحيط به ، والذي عاش فيه بين سخط المعتزلة وأهل السنة جميعاً . ثم كان من مظاهر ذلك ـ ولعله يكون من العوامل التي شاركت في تهيئته ـ كتاب الجاحظ الذي أتيحت لنا منه هذه الفصول التي نقدمها فيما يلي ، بعد أن صححنا نصها ، في حدود الأصول العلمية للتحقيق والنشر .

النص :

. . . وسأخبرك عن هذا الرجل ، من لؤم الطبع ، وسُخْف الحُلم ، ودناءة النّفس ، وخُبث المنشأ ، بما يشفي الصدر ويُثلجه ، ويبين عن الغَدر فيه ويكشفه . وأسْتَشْهِدُ العدول ، وأهلَ المخِيله والعقول ، على أنّي لم أر له محتجّا ، ولا عنه مكذِّباً ، ولا رأيت أحداً يرحمه ، أو يحفِل به ، أو يُمسِك عنه ، أو يشفع فيه .

قلت لمعاذ بن سعيد : أدخلتَ عليه ؟ قال : نعم ! قلت : فكيف رأيته ؟ قال : لا يعود إليه حرّ .

وقلت للفيض بن يزيد : « صِفهُ لي ، فإنّك تعرِف الأمور ؛ وقل ، فإنك تحسِنُ أن تقول » . قال : « يضرّ ـ والله ـ عنده ما ينفع عند الكرام ، وينفع عنده ما يضرّ عند الكرام » . قلت : « فكيف عِشرته » ؟ قال : « فوق العذاب الأدنى ، ودونَ العذاب الأكبر » .

وقال أبو عقِيل بن دُرُست : « اللّهم إني أعوذ بك من باطن عزمه ، كما أعوذ بك من ظاهر عمله » .

وقال شدّاد الحارثي : « لم أر لؤماً قطّ إلاّ والدّهر ينقص منه أو يزيد فيه ، إلا لؤمه ؛ فإنه قد تناهى في القوّة ، وبلغ أقصى النهاية ، وعاد مُصْمتا لا يُدْخَل عليه ، ومُشتبها لا حيلة فيه . فإن كان إلى الغاية أجرى ، فقد حوى قَصَبات السّبق ؛ وإن كان للتفرّد طلب ، فقد خلا بالرياسة ، واستبدّ بالوِحدة » .

وقال سهل بن هارون : « إنّ الحاسد والغضبان والحاقد والعيّاب ، إذا استنفدوا العيوب ، اسْتَتْلوَا قولَ الزور ، والتمسوا ما شاكل الحقَّ وقاربه ، وأشبه ما في المسْبُوب وناسَبه ، وبهتوا الرجل بقرنائه . وفحشُ عيوبه ، وظهورُ لؤمه ، وكثرةُ الشهود عليه والقائلين به ، لا يُحْوِجك إلى

اليمين والشاهد ، فعائبه سليم من الذنب ، مُعْفى من الكذب ؛ لا يعيبه وَرِع ، ولا يُسفِّهه كريم ؛ وله عند ذامِّه والواصف لعيوبه أيادٍ لا تشكر ، ونعم لا تنكر».

ووصفه آخر فقال : «هو منحرفٌ عن الجادّة ؛ يخبِط خبطَ العشواء ، ويحكم حكمَ الوَرهاء ، ويناسب أخلاق النساء ؛ لأن المرءة لا تسمو إلى مراتب السادة ، ولا تروم منافسة القادة ، وليس لها من عقلها مادة ؛ همها قصير ، وركنها ضعيف ، وصدرها ضيق ، ورأيها منتشر ، وفي قوى هواها فضل على قوى عقلها ، وسُخف رأيها غامر لرجاحة حُلمها ؛ لا تعرف حدود الاعتدال ، ولا مواقع الاقتصاد ، ولا التوسّط في الأمور ، ولا عواقب التدبير».

ووصفه آخر فقال : «هو يظلم الضعيف ، ويقتل الصريع ، ويذفّف على الجريح ، ويطلب الهارب ، ويهرب من الطالب ، ولا يعرف التقيّة ولا المروءة ؛ يعَقّ أباه ، ويحسد أخاه ؛ العجبُ شَقيقه ، والبذخ صديقه ، والنفَج أليفه ، والصلف عقيده . قد تمكّن منه الشيطان ، فهوّن عليه سخط الرب ، وسهّل عليه عقاب الأبد ، ووعده الظفر ، ومنّاه السلامة ، ولقّنه الاحتجاج بالباطل ، وزيّن له قول الزور ، ونظم له خلال الشرّ . في أنفه خُنْزُوانة ، وفي رأسه نعرة ، وكأنما أنفه في أسلوب . ومَن عَظُم كبرُه اشتدّ عجبه ؛ ومن أُعجِب برأيه لم يشاور كُفْئاً ، ولم يؤامِر نصيحاً».

ووصفه آخر فقال : «أسْلمته الحالُ إلى القسوة ، واستَفْرغته الغفلة ، واستولى عليه سلطان الطّبَع ، وكَثُف على قلبه حجاب الرَّينْ ، فلم يبق في عقله فضل للاستماع ، ولا في استطاعته بقيّة للتصرّف . ينبو عنه السيفُ وان كان صارماً ، وتقف عنه الحجّة وإن كانت قاطعة . ولا يجد

النافخ فيه فحماً ، ولا القابس قبساً ، ولا المورى زنداً ».

قال معمر السلمي ـ وذكره مرة في كلام له ـ: « موكّل بلوم المحسنين ، والتعجّب من المُفضِلين . يعدّ الاقتصاد جودا ، والجود سَرَفا ؛ ويعجب من الطامع فيه ، والراغِب إليه ؛ ويضعِّف من جَزِع من الذم ، وهشَّ للحمد ؛ لا يعدّ الحزم إلّا المنع ، ولا العيشَ إلا الجمع ؛ لم يحدِّث عن جَوادٍ قط ، ولا ندم على سوء قط ، ولا أمسك عن الاحتجاج له . ثم ما ظنّك بعِرق السوء إذا تقادم ، واللؤم إذا تمكّن ، والبخل إذا تفحّل ، والفحشاء إذا تمت ، والدناءة إذا كَمُلت ! يعظِّم الغنّى ، وإن كان غُفلاً ، ومن الأدب خلوا ، ومن حلى الجود عُطُلاً ؛ ويحقِر المقلَّ ، وإن كان أديباً ، حكيماً عليماً ، وحوّلا بارعاً ، ولمجهوده باذلاً . شديد الكبر على جَليسه ، متهاون بعظيم حقّه . ولو انقطع إليه أبوه ، واحتاج إليه أخوه ، وأعظمُ الناس عنده يدا ، وأظهرُهم فضلاً ، لنضحه من غريب الكبر ، ولصبّ على ذِروته من بديع الذلّ ، ما لا يقوم به عز ، ولا ينهض به حر ، ولركبه بما لا يحتمله الكَلِم ، ولا يرومه العزم . يقدّر أن الله لم يُفقر الكريمَ إلا ليُضرِع خدّه ، ولا أغنى اللئيم إلا ليرفع قدره ».

وقال ثمامه بن أشرس ، في كلام له : « لم يطمع أحداً في ماله إلا ليشغلَه بالطمع فيه عن غيره ، ولا تشفّع في صديق ، ولا تكلّم في حاجة متحرِّم به ، إلا ليُلقِّن المسؤول حجّة منع ، وليفتح على السائل باب حِرمان ».

وقال أبو بكر الأصمّ : « لم أر مثلَه ، بل لم أسمع ، والسماع أكثر ، بل لا أتوهّم ، والتوهّم أفسح . وما ظنكم بمن يُمسى في غضب الله تعالى

وسخطه ، ويصبح في خذلان الله وتخليته من يده ! وما ظنكم بمتكلّم لا يَعرف قوله ، ولا يقضي على مذهبه ؛ سواء عنده التشبيهُ ونفيُه ، والجبر وضدّه ،والإرجاءُ وخلافه ، ولا يعادي الخارجيّ ، ولا يتولّى النابتيّ ، ولا يحفِل بالجماعيّ ، ولا يغضب على الرافضيّ ».

وقال الحُصين بن الحسين ، في كلام له : « إنّ مما يوئس من رجوعه ، ويُقنط من نزوعه ، وأن الله قد طبَع على قلبه في اللؤم ، وضرب على سَمعه في البخل ، أن البَخيل الموسِر ، والمَنُوع المثري ، إذا كان عاقلاً ، وبأمور الناسِ عارفاً ، لا يسوغ له شراب ، ولا يطيب له عَيش ، وأنه لا يقدر على مخالطة الناس وملابستهم ، ومُجاراتهم ومصاهرتهم ، إلا بأن يجعلَ التواضعَ دَريئة دون ماله ، والسعيَ في حوائجهم جُنّة دون عِرضه ، وعلى ألاّ يجمع بين الكبر والمنع ، وبينَ التنبّل والبخل ، إلاّ ما كان من هذا الرجل ؛ فإنه قد خرج من طباع الأمة ، ونَقَض ما عليه تجري العادة ؛ فبلغ في الكبر الغاية ، كما بلغ في البخل النهاية ؛ إلاّ أنّ كبره لا يجوز إلاّ لعامّة الرعيّة والحرمة . هذا مع ثِقَل الرُّوح والفدامة ، والبرد والوَخامة . فلو كان حلوَ الحديث عذرته ، ولو كان حسنَ الاستماع أمسكتُ عنه . ولو تمسّك بسببٍ من الخير ، وإن ضعف ؛ أو رغِب في شيء من المعروف ، وإن قلّ ؛ لأضربتُ عنه صفحاً ، وطويت عنه كشحاً . ولكن استفرغ اللـؤم وتعرّقه ، وبلغ غايته واستَوْعَبه . وكيف ؟ ولم يسمع بمُلحة قطّ ولا فهمها ، ولا ابتسم من نادرة قطّ ولا عقِلها ».

وذكره مرة أخرى ، فقال : « امتنع ـ والله ـ من استحسان ما يقوله المتحرّمُ به ، ومن استجادة ما يظهر منه المنقطعُ إليه . وإن حَسُنت معانيه ، وشَرُفت ألفاظه ، وسَهُلت مخارجه ، مخافةَ أن يزيد ذلك في

طمعه ، ويُفسح من أملِه ، ويجعلَه حجّة عليه عنده في تقصيره به ، وحِرمانه إيّاه .

لم يفهم عن الله شيئاً قطّ إلا ازدراه ؛ ولا روى أثراً ، ولا طلب شعراً ، ولا حفظ خبراً ، ولا قرأ تنزيلاً ، ولا سمع تأويلاً . وقد رضي بكتاب المنطق بدلاً من القرآن ، وبالكون والفساد عِوضاً من الأحكام ، وبالعرض والجوهر خلفاً ، وبالجزء والطَّفرة شرفاً . إذا فكر المسلمون في الجنة والنار ، فكّر في الدرهم والدينار ؛ وإذا فكّر الكريم في الذكر ، والعابد في الأجر ؛ فكر في الاحتيال للمنع ، وفيما زاد على الجمع . فهو نسيج وحده في اللؤم ، وواحد عصره في البغض ؛ وهو الصِّرف فيهما البحت ، والخالصُ المحْض . قد أصبح إمام كلّ لئيم ، وقائد كلّ دَنيء .

وحسبُك برجل أوصى إلى العُتبى ، وتفرّس الخير في المرْوَزيّ ، وقال في وصيّته ، وبحضرة جماعة من فقراء أهله : يزعمون أن رسول الله ﷺ قال : الثلُث ، والثلُث كثير . وأنا أزعم أن ثلث الثلث كثير . للمساكين حقّهم في بيت المال . إن طلبوه طلب الرجال أخذوه ، وإن جلسوا عنه جلوس النساء منعوه ؛ فلا يرْغم الله إلاّ أنوفَهم ، ولا رحم من رحمهم » .

فهذه وصيّته ، والعتبيّ والمروَزيّ خيرته ، وتلك سنّته وطريقته .

فلا تعجل أيها السامع ، واعلم أني مقصّر فيما أتولّى من وصفه ! فهو رجل لا تنفع فيه الرُّقى ، ولا تنفذ فيه الحِيَل ، ولا يهزّه المديح ، ولا يحز فيه اللّوْم ، ولا يتوهّم أحاديث غد ، ولا يؤلمه التوبيخ ، ولا

يبالي سَخَط الكرام ، ولا شكيَّة الأحرار ، ولا وعيد الرجال ، ولا لزوم الحجّة ، ولا إناخة العلّة .

وليّه كعدوّه ، وجاره الأدنى كالأجنبيّ الأقصى . رفيقه جائع ، وصديقه ضائع ؛ وجاره ذليل ، وناصره مخذول ؛ وجليسه مقموع ، وغريمه ممنوع ؛ وصفيّه محجوب ، وخادمه مكروب ، وكلبه مهزول ، وبابه مهجور ؛ وأكيله في تقيّة ، وشريبه في بليّة ؛ وكلّهم في جَهد البلاء ، لولا راحة الدعاء .

هذا ، مع ظلم العباد ، وإخراب البلاد ، والخيانة الكثيرة ، والتضييع الفاحش ، والضعف عن عمله ، وابتلاء الجند على رغبته ، والحُكم بالرُّشا ، والحجاب الشديد ، وضرب الخصوم ، والجَبْهِ للشهود ؛ مع الجهل بالحكومة ، وضيق الصدر في المنازعة ، لا يرحم المظلوم ؛ فإذا استرحمته ازداد عليه غِلَظاً ؛ ولا يرق لفقير ، فإن تعرّض له قتله جوعاً .

أنا أدلّك على صفة هذا الرجل :

ويلٌ لمن ظن أنه يرجوه ، أو يطمع فيه ! وويلٌ لمن عاد إلى تأميله ، أو طمع في ماله ! وويلٌ لمن أثنى عليه خيراً ، وقدّر لديه عُرفاً ! وويل لمن ترك الردّ عليه ، ولم يرفع ذلك إليه !

لم يضمر لأحد قطّ حبّاً ، ولا تمنّى له خيراً ؛ ولا اشتاق إلى صديق ، ولا اسْتَوحَش إلى أنيس . لم يتوكّل قطّ إلا على حيلته ، ولا فزع إلا إلى رأيه ، ولا عرَف الاسْتِخارة والاستشارة . يسخر ممن يرى أن البركة في المشورة ، وأنّ النّجحَ مقرون بالاستخارة ، وأنّ الدعاء يكشف البلاء . ولا يعرف التوفيق ، ولا يثق بالتوكّل .

قال محمد المكي : « قلت له مرة : جعلت فداك ! لعل إخوانك أن يجلسوا عندك فوق مقدار شهوتك ؛ فإن أقمتَهم استحييتهم ، وإن تركتهم ثقل عليك مكانهم . وما زالت الملوكُ تجعل لهذا أمارة ، وتنصب له علامة . وقد قيل هذا لمعاوية بن أبي سفيان . فقال : آية ذلك أن ألقيَ الخيزرانة من يدي . وقال يزيد بن معاوية : آية ذلك أن استلقي على فراشي . وقال عبدالملك بن مروان : آية ذلك أن أقول : إذا شئتم . وقال سليمان بن عبدالملك : آية ذلك أن أقول : على بركة الله . فاجعل لك آية ننتهي إليها ، وأمارة لا نجاوزها . قال : آية ذلك أن أقول : يا غلام ، الغداء » .

وقال مرّة : « بئس الشيء الصديق : إن أعطيته أفقرك ، وإن منعته وجّد عليك ؛ ومتى وجّد عليك ظلماً أغضبك ، ومتى أغضبك أَوْحَشَك ، ومتى أوحَشَك اسْتَوْحَش منك ».

وقال أيامَ ولايته بالأهواز : « من وهَب المال في عمله فهو أحمق ؛ ومن وهَب ماله بعد عزله فهو مجنون ؛ ومن وهَب ماله من جوائزَ مملوكةٍ ، أو من ميراث لم يتعب فيه ، فهو محدود ؛ ومن وهب من كَسبه ، وما استفاد بحيلته وكدِّه ، فذلك المطبوعُ على قلبه ، المأخوذ بسمعِه وبصره ».

واحتجب حيناً عن زواره ، ليستعدوا بالنفقات (؟) فيعجزوا ، وليضجروا فيذهبوا . فإن أمسكوا عن ذمّة فقد أعفوه ، وإن ذمّوه فقد منعوا الناس منه . فخرج يوماً ، فقاموا إليه ، فناشدوه ، وأذكروه الحُرمة ، وقرّظوه ، فجبَههم مرّة ، وحاجّهم مرّة ؛ بقلب جامع ، ولسان عضب . فلما رأوا ذلك انصرفوا عنه ، بجيد اللعن له ، والسبّ فيه .

وكيف أُلام على بغضه ، وعلى إرغامه ومقته ، وأنا لو أحببته

لاستوحشت من الوحدة ، وجئت في الإسلام ببدعة ؟ وكيف أحبّه وأتولاه ، وقد قال الله تعالى ﴿ ومن يتولّهم منكم فإنه منهم ﴾ وأعلم أن من أحب الناس في الله أبغض فيه ، ومن أحبّ الكرم أحب الكرام ، ومن أبغض اللؤم أبغض اللئام . ومن أحب الله أبغض من لا يحبه الله !

وبعد هذا كلّه ، فكيف أحبّه وأقصّر في بغضه وأفتُر عنه ، وهو يزعم أن اسم الكرم كلمة وضعها المستأكلون من العرب ، ولقِنها عنهم المولّدون ؛ وأنه لا يعرف للذّمام معنى ، ولا للحرمة حقيقة ، وإن هذه الأسماء الموضوعة والصفات المصنوعة ، إنما هي خُدعة وحِيلة ، وخِلابة ومكر ، ومخاريق وباطل ؛ وأن المغرور من غرّة المدح ، واستماله حبّ الذكر ، وهشّ للتطرية ، وفرح بالتقريظ ، وزعم أن الثناء عرض والمال جوهر ، والمال جسم باق ، والثناء عرض فان .

وقال : « ألا ترى أن ذا المال يعظم ، وإن كان غير ذي جُود ، والجواد لا يعظَّم إن كان غير ذي مال ». وزعم أن الثناء أشبه شيء بالسراب المائع ، وبحلم النائم ، وبأمسِ الذاهب ، وبأضاليل المني .

وزعم أن مدار الأمر في الأخبار ، على المنافع والمضار ؛ وأن الصدق لا يحسُن إلا لأنه ينفع ؛ والكذب لا يقبح ، إلا لأنه يضرّ . فإذا نفع الكذب فقد تحوّل حكمه ، وإذا ضرّ الصدق فقد تبدّل رسمه . وليس بين نفس الصدق والعقول وَلاية ، ولا بينها وبين الكذب عداوة . ولكن لما كان اتفاقُ النفع في الصِّدق أكثر . صار عند العوامِّ أحمد ؛ ولما كان ما يتّفق بالمضرة في الكذب أكثر ، صار عند العوام أذمّ .

فما له لعنه الله ، ثم ماله لعنه الله ! كيف نصب للكرم ونهى عنه ، وتكفّل باللؤم ودعا إليه ؟! وكيف اعترض على جميع المتّقين ، وبلغ كيده جميع المؤمنين ؟!

(٣)

تفاريق من كلام الجاحظ
عن محمد بن الجهم*

أ ـ:

وقال ابن الجهم : إذا غشيني النعاس في غير وقت نوم ـ وبئس الشيء النوم الفاضل عن الحاجة ـ قال : فإذا اعتراني ذلك تناولت كتاباً من كتب الحكمة ، فأجد اهتزازي للفوائد ، والأريحية التي تعتريني عند الظفر ببعض الحاجة ، والذي يغشي قلبي من سرور الاستبانة وعز التبين ، أشد إيقاظا من نهيق الحمير وهَدّة الهدم .

وقال ابن الجهم : إذا استحسنتُ الكتابَ واستجدته ، ورجوتُ منه الفائدة ، ورأيت ذلك فيه ، فلو تراني وأنا ، ساعة بعد ساعة ، انظر كم بقي من ورقة ، مخافة استنفاده ، وانقطاع المادة من قبله . وإن كان

(*) الغرض من إيراد هذه التفاريق في هذا الموضع هو أن نلقي بعض الأضواء التي من شأنها أن توضح جوانب شخصية محمد بن الجهم ، حتى لا تستأثر بها هذه الصورة الخاصة التي رسمه الجاحظ بها في الفصل الذي أوردناه عنها . وقد آثرنا ألا نخرج في هذه التفاريق عما جاء في كلام الجاحظ عنها ، في مواطن شتى ، حتى تكون متمشية مع طبيعة هذا المجموع ، مؤتلفة معه في أداء الغرض منه .
على أنا نود أن نلفت النظر إلى الفصل الموجز الذي أردنا أن نترجم به لمحمد بن الجهم ، وجعلناه ضمن التعليقات والشروح التي عقبنا بها على نشرتنا لكتاب البخلاء ، فلعل في هذا الفصل ما يدل على شيء من ملامحه .

المصحف عظيم الحجم ، كثير الورق ، كثير العدد ، فقد تم عيشي وكمل سروري .

الحيوان ١ : ٥٣

ب -:

وقال ابن الجهم : ما أطمعني في أوبة المتحيّر . لأن كل من اقتطعته عن اليقين الحيرة ، فضالته التبين . وإن وجد ضالته فرح بها .

الحيوان ٦ : ٣٦

جـ -:

وذكر محمد بن الجهم - فيما خبرني عنه به بعض الثقات - أنه قال لهم ، ذات يوم : « هل تعرفون الحكمة التي استفدناها في الذباب ؟ » ، قالوا : « لا ! » ، قال : بلى ! إنها تأكل البعوض وتصيده وتلقطه وتفنيه .

وذلك أني كنت أريد القائلة . فأمرت بإخراج الذباب ، وطرح الستر ، وإغلاق الباب ، قبل ذلك بساعة . فإذا خرجن حصل في البيت البعوض ، في سلطان البعوض وموضع قوته . فكنت أدخل إلى القائلة ، فيأكلني البعوض أكلاً شديداً .

فأتيت ، ذات يوم ، المنزل في وقت القائلة ؛ فإذا ذلك البيتُ مفتوح ، والسّتر مرفوع . وقد كان الغلمانُ أغفلوا ذلك في يومهم . فلمّا اضطجعت للقائلة لم أجد من البعوض شيئاً - وقد كان غضبي اشتد على الغلمان - فنِمت في عافِية . فلما كان من الغد عادوا إلى إغلاق الباب وإخراج الذباب ، فدخلتُ التمس القائلة ، فإذا البعوض كثير . ثم أغفلوا إغلاق الباب يوماً آخر ، فلما رأيته مفتوحاً شتمتهم ، فلما صرت

إلى القائلة لم أجد بعوضة واحدة .

فقلت في نفسي عند ذلك : أراني قد نمت في يومي الإغفال والتضبيع ، وامتنع مني النوم في أيام التحفظ والاحتراس . فلم لا أجرِّب تركَ إغلاق الباب في يومي هذا . فإن نمت ثلاثةَ أيّام لا ألقى من البعوض أذىً مع فتح الباب ، علمت أن الصواب في الجمع بين الذّبان وبين البعوض ، فإن الذبان هي التي تُفنيه ، وأن صلاح أمرنا في تقريب ما كنا نباعد ، ففعلت ذلك ، فإذا الأمر قد تمّ . فصرنا إذا أردنا إخراج الذبّان أخرجناها بأيسر حيلة ، وإذا أردنا إفناء البعوض أفنيناها على أيدي الذبان بأيسر حيلة .

الحيوان ٣ : ٣٢٠ـ٣٢٢ .

د ـ

وكان محمّد بن الجهم يقول : لا تَتَهاوَنوا بكثيرٍ مما ترون من عِلاج القوابل والعجائز ، فإن كثيراً من ذلك إنما وقع إليهن من قدماء الأطبّاء ؛ كالذيّان يُلقى في الإثمد ويُسحق معه ، فيزيد ذلك في نور البصر ، ونفاذ النظر ، وفي تشديد مراكز شعر الأشفار في حافَات الجفون .

وقلت له مرّة : « قيل لماسَر جويه : ما بال الأكَرَة وسكّان البساتين ، مع أكلهم الكرّات والتمر ، وشربهم ماء السواقي على المالح ، أقل الناس خُفْشاناً وعمياناً وعُمشاناً وعوراً ؟ ». قال : « إني فكّرت في ذلك ، فلم أجدْ له علّة إلا طولَ وقوع أبصارهم على الخضرة ».

قال ابن الجهم : ومن أهل السُّفالة ناس يأكلون الذبّان ، وهم لا يرمدون . وليس لذلك أكلوه. وإنما هم كأهل خراسان الذين يأكلون فراخ

الزنابير . والزنابير ذبّان ؛ وأصحاب الجبن الرَّطب يأخذون الجبنة التي قد نَغِلت دوداً ، فينكُتها أحدهم ، حتى يخرج ما فيها من الدود في راحته ، ثم يَقْمَحها كما يَقْمَح السَّويق . وكان الفرزدق يقول : ليت إنهم دفعوا إليّ نصيبي من الذبّان ضربةً واحدة ، بشرط أن آكله ، لراحة الأبد منها . وكان ـ كما زعموا ـ شديد التقذر لها ، والتقزز منها .

الحيوان ٣: ٣٢٢ ـ ٣٢٤

وانظر عيون الأخبار ٢: ١٠٤

هـ ـ:

وأكثر ما يكون فساد البيض في الجنائب . ولذلك كان محمد بن الجهم لا يطلب من نسائه الولد إلا والريح شمال . وهذا عندي تعرّض للبلاء وتحكّك بالشرّ . واستدعاء للعقوبة .

الحيوان ٣: ١٧٢ ـ ١٧٣

و ـ:

وزعم محمد بن الجهم أن العيون التي تضيء بالليل ، كأنها مصابيح ، عيون الأسد والنمور ، والسنانير والأفاعي .

فبينما نحن عنده إذ دخل عليه بعض من يجلب الأفاعي من سجستان ، ويعمل الترياقات ، ويبيعها أحياء ومقتولة ، فقال له : حدثهم بالذي حدثتني به من عين الأفعى . قال : نعم ! كنت في منزلي نائماً في ظلمة . وقد كنت جمعت رؤس أفاع كنّ عندي ، لأرمي بها ، وأغفلت تحت السرير رأساً واحداً . ففتحت عيني تجاه السرير في الظلمة ، فرأيت ضياء ، إلا أنه ضئيل ضعيف رقيق . فقلت : عين غول ، أو بعض أولاد ـ

السعالي ؛ وذهبت نفسي في ألوان من المعاني . فقمت فقدحت ناراً ، وأخذت المصباح معي ، ومضيت نحو السرير ، فلم أجد تحته إلا رأس أفعى ؛ فأطفأت السراج ونمت . وفتحت عيني ، فإذا ذلك الضوء على حاله ؛ فنهضت فصنعت كصنيعي الأول ، حتى فعلت ذلك مراراً . قال : فقلت آخر مرّة : ما أرى شيئاً إلا رأس أفعى ، فلو نحّيته ! فنحّيته وأطفأت السّراج ، ثم رجعت إلى منامي ، ففتحت عيني فلم أر الضوء ، فعلمت أنه من عين الأفعى . ثم سألت عن ذلك ، فإذا الأمر حق ، وإذا هو مشهود في أهل هذه الصناعة

الحيوان ٤ : ١١٦ - ١١٧

ز* :

وكان محمد بن الجهم يقول : من شأن من استغنى عنك ألّا يقيم عليك ، ومن احتاج إليك ألّا يذهبَ عنك . فمن ضنّ بصديقه ، وأحب الاستكثار منه ، وأحب التّمتع به ، احتال في دوام رغبته بأن يقيم له ما يقوته ، ويمنعه ما يغنيه عنه ؛ فإن من الزهد فيه أن تُغْنِيه عنك ، ومن الرغبة فيه أن تُحوِجَه إليك ؛ وابقاؤك مع الضنّ به ، أكرم من إغنائك له مع الزهد فيه . وقيل في مثل : « أجِعْ كلبك يتبعك ». فمن أغنى صديقه فقد أعانه على الغدْر ، وقطع أسبابه من الشكر . والمعين على الغدر شريك الغادر ، كما أن مزيِّن الفجور شريك الفاجر.

قال : وأوصى عند موته ، وقال في وصيته : يزعمون أن رسول الله ،

(*) هذا نص يغلب على الظن أنه من كلام الجاحظ ، فهو أشبه به ، مما نقله ابن قتيبة عنه ، ويرجح هذا الظن أنه جاء في سياق الرواية عنه . وأن الجزء الأخير منه ، محكي عن الجاحظ ، كما يدل على ذلك ما سبق أن أوردناه في هذه النصوص عنه .

ﷺ ، قال : الثلث ، والثلث كثير ؛ وأنا أزعم أن ثُلث الثلث كثير .
والمساكين حقوقهم في بيت المال، إن طلبوا طلب الرجال أخذوه، وإن
٣ جلسوا جلوس النساء منعوه. فلا يرغم الله إلا أنفهم، ولا يرحم إلا من
يرحمهم.

عيون الأخبار ٢: ٣٤

(٤)

رسالة في علي بن أبي طالب وآله من بني هاشم

تقدمة

هذه أولى رسالتين ، تضمنهما كتاب بهاء الدين أبي الفتح، علي بن عيسى الأربلي : كشف الغمة في معرفة الأئمة ، وصدرنا بهما عنه .

وعلي بن عيسى هذا هو أحد شعراء القرن السابع وكتابه المترسلين ، ولد في اربل الواقعة بين الزاب الكبير والزاب الصغير ، في اقليم الجزيرة ، قريباً من اذربيجان ، وعمل في ديوانها ، كما عمل من بعد في ديوان بغداد .

أما كتابه فهو من الكتب التي تمثل غلبة التشيع في هذا الأفق الشرقي من آفاق العالم الإسلامي ، بما بناه عليه من ذكر تاريخه ، والترجمة لأئمته ، ومن ذلك كان من أوائل الكتب التي عني بطبعها في أيران . وإنما استجزنا أن نصدر بهاتين الرسالتين عنه ، لأنه ، وإن كان مطبوعاً ، كان في اعتبارنا في حكم المخطوط ، وذلك لندرة نسخه ، وصعوبة الحصول عليه، إذ كان انما طبع في سنة اربع وتسعين ومائتين وألف ، للهجرة ، التي توافق في التاريخ الميلادي سنة سبع وسبعين وثمانماية وألف . وإذ كان قد

انفرد ، فيما وقفنا عليه ، بما أورد من الآثار المنسوبة لأبي عثمان .

على أن هاتين الرسالتين اللتين أوردهما منسوبتين إلى الجاحظ متفاوتتان تفاوتاً بعيداً في تحقيق هذه النسبة .

فأما الأولى التي ذكر أنه أوردها مختصراً لها ، بعد أن وقف عليها بخط عبد الله بن الحسين الطبري ، فهي في جملتها ، فيما يغلب على ظننا ، صحيحة النسبة إلى الجاحظ ، وإن امتدت إليها يد أبي الفتح بالاختصار الذي يشير إليه ، والذي لا يبعد عندنا أن يكون قد حذف به منها أشياء لها خطرها في التاريخ الأدبي والفكري ، وبما أضافه ـ كما هو واضح ـ إلى علي وبنيه من الألقاب التي جرت عادة الشيعة بإلحاقها باسمه وأسماء سلالته ، وهي ألقاب (السلام عليه)، مما لا نجد له أثراً فيما عدا هذه النسخة من الرسالة من كتب الجاحظ ورسائله ، إذ لا تزيد ، إن هي فعلت ، إلا عبارة (رضي الله عنه) أو (كرم الله وجهه).

أما فيما عدا ذلك فالذي نكاد نقطع به أنها من آثار الجاحظ ، كما يغلب على الظن أنها تنتمي إلى رسائله الهاشميات التي ذكرها في مقدمة الحيوان ، بقوله :

« وعبتني برسائلي الهاشميات ، واحتجاجي فيها ، واستقصائي معانيها ، وتصويري لها في أحسن صورة ، وإظهاري لها في أتم حلية ؛ وزعمت أني قد خرجت بذلك من حد المعتزلة إلى حد الزيدية ، ومن حد الاعتدال في التشيع والاقتصاد فيه ، إلى حد السرف والإفراط فيه . وزعمت أن مقالة الزيدية خطبة مقالة الرافضة ، وإن مقالة الرافضة خطبة مقالة الغالية »، إلى آخر ما قاله في هذا النمط ، مشققا الكلام على

عادته . متطرقاً من الجزئي إلى الكلي ، ومن المسائل الخاصة إلى القضايا العامة .

ولعل هذه الصفات التي وصف بها الجاحظ رسائله الهاشميات هذه ، كانت مما أغرى علي بن عيسى بأن ينقلها ، أو ينقل إحداها ، إلى كتابه بعد أن يتصرف فيها بما تحمله عليه شيعيته ، وما قدره لحجم كتابه وطبيعته ، وقد أتاح له ذلك ما يمتاز به أسلوب الجاحظ من بسط ، وما يلتزمه كثيراً من مزاوجة . وقد استطاع أن يحتفظ ـ إلى حد غير قليل ـ فيما أداه إلينا من رسالته ، بسمات هذا الأسلوب .

وكما استطاع أن يحتفظ بمثل هذه السمات من أسلوبه ، استطاع أن يحتفظ بالطابع الاعتزالي في تحقيق الغاية التي يجري إليها ، وهي الانتصار لبني هاشم وبيان مناقبهم . وقد كان من أول معالم هذا الطابع وأظهرها ، اصطناع المناظرة في الاحتجاج للمسائل التي يتناولها المعتزلة ، منذ تحولت قضايا الدين إليهم ، فتحول معها أسلوب الاقناع بها ، من الخطابة التي كان يصطنعها أسلافهم ، يتجهون بها إلى وجدان الناس ، إلى هذا النمط الذي يتجه إلى العقل ، يصطنع له ما يلائمه ، ويساير طبيعته ، وهو الحوار الذي لم يلبث أن غلب عليهم ، يتخذونه فيما يريدون الإقناع به ، ويتجاوزون به في بعض الأحيان هذه الغاية ، فيتخذونه نوعاً من الرياضة العقلية ، يزجون بها أوقات فراغهم .

ويبدو هذا فيما أشار إليه الجاحظ في هذه الرسالة من وجوه الخصومة التي كانوا يتصدون لها ، بين البصرة والكوفة ، وبين العرب والشعوبية ، وبين عدنان وقحطان ، وفيما كانوا يعالجونه من قضايا الوعد والوعيد ،

والقدر والتشبيه ، والأسماء والأحكام ، وغير ذلك مما كان المجتمع البصري يضطرب به ويدفع إليه .

وقد كان من ذلك ما كان يتورط فيه هذا المجتمع المعقد أشد التعقيد من الكلام عن الرجال ، مفاضلة بينهم ، وتمييزاً بين طبقاتهم ، وما قد يؤدي إليه هذا من الغلو في التقدير ، والخروج عن القصد . وذلك ما ينبغي للمعتزلة أن يتجنبوه فلا ينزلقوا إليه . فيلتزموا النهج الأوسط الذي يرى الأطراف المختلفة كما هي ، ولا تدفعهم الخصومة إلى مثل ما دفعت إليه اليهود والنصارى في دعاواهم ، وإلى ما لمحه علي بن أبي طالب في مثل قوله : يهلك في رجلان : محب مفرط ومبغض مفرط(١).

وكذلك كان مذهب الجاحظ في هذه الرسالة التي بناها على بيان درجة بني هاشم ، إذ يقول فيها : « والرأي كل الرأي ألا يدعوك حب الصحابة إلى بخس عترة رسول الله . ﷺ ، حقوقهم وحظوظهم ». وكان هذا المذهب الذي أخذ نفسه به هو الذي عرضه لما اتهمه به خصومه من أنه خرج بذلك من حد المعتزلة إلى حد الزيدية .

ومهما يكن من أمر فإن هذه الرسالة التي لا نقصد غير التقدمة لها تعرض لنا نمطاً من الأدب الجاحظي يختلف اختلافاً كبيراً عن النمط الذي رأيناه من قبل ، بقدر ما يعبر عن شخصية الجاحظ في غير ناحية من نواحيه ، وما تجلوه به في صورة الرجل السمح الواسع الأفق البعيد من التزمت القريب من النهج الأوسط في رؤيته للأمور وتناوله لها ، ووضعها في أقدارها .

(١) انظر في هذا ما قاله الجاحظ في الحيوان (٢ : ٩٠): «وكان يقال: يستدل على نباهة الرجل من الماضين بتباين الناس فيه. وقال: الا ترى ان علياً ـ رضي الله عنه ـ قال: يهلك فيّ فئتان: محب مفرط ومبغض مفرط.
وهذه صفة انبه الناس وابعدهم غاية في مراتب الدين وشرف الدنيا.

النص :

اعلم ـ حفظك الله ـ أنّ أصول الخصومات معروفة بيّنة ، وأبوابها مشهورة ، كالخصومة بين الشعوبيّة والعرب ، والكوفيّ والبصريّ ، والعدنانيّ والقحطانيّ ؛ فهذه الأبوابُ الثلاثة انقضُ للعقول السليمة ، وأفسد للأخلاق الحسنة ، من المنازعة في القدَر والتشبيه ، وفي الوَعد والوعيد ، وفي الأسماءِ والأحكام ، وفي الآثار وتصحيح الأخبار .

وأنقض من هذه للعقول تمييز الرجال ، وترتيب الطبقات ، وذكر تقديم علي وأبي بكر ، رضوان الله عليهما . فأولى الأشياء بك القصد وترك الهوى ، فإنّ اليهود نازعت النصارى في المسيح ، فلجّ بهما القول ، حتى قالت اليهود انه ابن يوسف النجار ، وإنه لغير رشده ، وإنه صاحب نيرنج وخدع ومخاريق ، وناصب شرك ، وصياد سمك ، وصاحب شص وشبك ؛ فما يبلغ من عقل صياد وربيب نجار ؟ وزعمت النصارى انه ربّ العالمين ، وخالق السماوات والأرضين ، وآله الأولين والآخرين . فلو وجدت اليهود أسوأ من هذا القول لقالته فيه ، ولو وجدت النصارى أرفع من ذلك القول لقالته فيه . وعلى هذا قال علي ، عليه السلام : يهلك فيّ رجلان ، محبّ مفرط ومبغض مفرط . والرأي كلّ الرأي ألا يدعوَك حبّ الصحابة إلى بخس عترة الرسول ﷺ ، حقوقهم وحظوظهم . فإن عمرَ ، لما كتبوا الدواوين وقدموا ذكره ، أنكر ذلك ، وقال : ابدءوا بطرفي رسول الله ، صلى الله عليه وآله ؛ وضعوا آل الخطاب حيث وضعهم الله . قالوا : فأنت أمير المؤمنين . فأبى إلا تقديم بني هاشم على نفسه . فلم ينكر عليه منكر ، وصوبوا رأيه ، وعدوا ذلك من مناقبه .

واعلم ان الله لو أراد أن يسوّى بين بني هاشم وبين الناس لما أبانهم بسهم ذوي القُربى ، ولما قال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشيرَتَكَ الأَقْرَبينَ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ ولِقَوْمِكَ ﴾ وإذا كان لقومِه في ذلك ما ليس لغيرَهم ، فكلّ من كان أقربَ كان أرفع . ولو سوّاهم بالناسِ لما حرّم عليهم الصَّدَقة . وما ذلك التحريم إلاّ لإكرامهم على الله . ولذلك قال للعبّاس ، حيث طلب ولاية الصدقات : « لا أوَيِّنك غُسالات خطايا الناس وأوزارهم ، بل أوَلّيك سقاية الحاج ، والانفاق على زوّار الله ». ولهذا كان رباه أول ربا وضع ، ودم ربيعة بن الحارث أول دم أهدر ؛ لأنهما القدوة في النفس والمال .

ولهذا قال علي ، عليه السلام ، على منبر الجماعة : « نحن أهلَ البيت ، لا يقاس بنا أحد ». وصدق ، صلوات الله عليه . كيف يقاس بقوم منهم رسول الله . صلى الله عليه وسلّم ، والأطيبان : علي وفاطمة ، والسبطان : الحسن والحسين ، والشهيدان : أسد الله حمزة وذو الجناحين جعفر ، وسيد الوادي عبد المطلب ، وساقي الحجيج العباس ، وحليم البطحاء ، والنجدة والخير فيهم ، والانصار انصارهم ، والمهاجر من هاجر إليهم ومعهم ، والصديق من صدقهم ، والفاروق بين فرق بين الحق والباطل فيهم ، والحواري حواريهم ، وذو الشهادتين لأنه شهد لهم ، ولا خير الا فيهم ولهم ومنهم ومعهم .

وقال عليه السلام ، فيما أبان به أهل بيته : « اني تارك فيكم الخليفتين ، أحدهما اكبر من الآخر : كتاب الله ، حبل ممدود من السماء الى الأرض ، وعترتي ، أهل بيتي . نبأني اللطيف الخبير انهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض » .

ولو كانوا كغيرهم لما قال عمر ، حين طلب مصاهرة علي :«اني سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : كل سبب ونسب منقطع يومِ القيامة الاسببي ونسبي» .

واعلم أن الرجل قد ينازع في تفضيل ماء دجلة على ماء الفرات ، فإن لم يتحفظ وجد في قلبه على شارب ماء دجلة < رقة > لم يكن يجدها ، ووجد في قلبه غلظة على شارب ماء الفرات لم يكن يجدها .

فالحمد لله الذي جعلنا لا نفرق بين ابناء نبينا ، ورسلنا . نحكم لجميع المرسلين بالتصديق ، ولجميع السلف بالولاية ، ونخص بني هاشم بالمحبة ، ونعطي كل امرىء قِسطه من المنزلة .

فأما علي بن أبي طالب ، عليه السلام ، فلو أفردنا لأيامه الشريفة ، ومقاماته الكريمة ، ومناقبه السنية ، كلاما ، لافنينا في ذلك الطوامير الطوال . العرق صحيح ، والمنشأ كريم ، والشأن عظيم ، والعمل جسيم ، والعلم كثير ، والبيان عجيب ، واللسان خطيب ، والصدر رحيب . فأخلاقه وفق اعراقه . وحديثه يشهد لقديمه ؛ وليس التدبير في وصف مثله الا بذكر جمل قدره ، واستقصاء جميع حقه . فإذا كان كتابنا لا يحتمل تفسير جميع أمرِه ، ففي هذه الجملة بلاغ لمن أراد معرفة فضله .

وأما الحسن والحسين ، عليهما السلام ، فمثلهما مثل الشمس والقمر . فمن أعطى ما في الشمس والقمر من المنافع العامة ، والنعم الشاملة التامة ؟ ولو لم يكونا ابني علي من فاطمة . عليهم السلام ، ورفعت من وهمك كل رواية ، وكل سبب توجيه القرابة ، لكنت لا تقرن بهما أحداً من جلة أولاد المهاجرين والصحابة ، الا أراك فيهما الانصاف ،

من تصديق قول النبي ، صلى الله عليه وسلم ، انهما سيدا شباب أهل الجنة ، وجميع من هما سادته سادة . والجنة لا تدخل الا بالصدق والصبر ، والا بالحلم والعلم ، وإلا بالطهّارة والزّهد ، وإلا بالعِبادة ، والطّاعة الكثيرة ، والأعمال الشريفة ، والاجتهاد والأثَرة والإخلاص في النيّة . فدلّ على أن حظّهما في الأعمال المرضيّة ، والمذاهب الزكيّة ، فوق كل حظّ .

وأما محمد بن الحنفيّة فقد أقرّ الصادر والوارد ، والحاضر والبادي ، أنه كان واحد دهره ، ورجل عصره ، وكان أتمّ الناس تماماً وكمالاً .

وأما علّي بن الحسين ، عليه السلام ، فالناس على اختلاف مذاهبهم مجمعون عليه ؛ لا يمترى أحد في تدبيره ، ولا يشكّ احد في تقديمه . وكان أهل الحجاز يقولون : لم نر ثلاثة في دهر ، يرجعون الى اب قريب ، كلهم يسمى عليًا ، وكلهم يصلح للخلافة لتكامل خصال الخير فيهم . يعنون : علي بن الحسين بن علي ، عليهم السلام ، وعلي بن عبد الله بن جعفر ، وعلي بن عبد الله بن العباس ، رضي الله عنهم .

ولو غزونا بكتابنا هذا ترتيبهم ، لذكرنا أولاً عليا لصلبه ، وولد الحسين ، وعلي بن الحسين ، ومحمد بن عبد الله بن جعفر ، ومحمد بن علي بن عبدالله بن العباس . إلا أنا ذكرنا جملة من القول فيهم ، فاقتصرنا من الكثير على القليل .

فأما النجدة فقد علم أصحاب الأخبار ، وحمال الآثار ، انهم لم يسمعوا بمثل نجدة علي ابن ابي طالب ، عليه السلام ، وحمزة رضي الله عنه ، ولا بصبر جعفر الطيّار ، رضوان الله عليه . وليس في الأرض قوم

أثبت جنانا ، ولا أكثر مقتولاً تحت ظلال السيوف ، ولا أجدر أن يقاتلوا ، وقد فرّت الأجناد ، وذهبت الصنائع ، وخام ذو البصيرة ، وحاد أهل النجدة ، من رجالات بني هاشم . وهم كما قيل :

وخـام الكمّي ، وطاح اللواء ولا تأكل الحرب إلا سمينا

وكذلك قال دَغْفَل حين وصفهم : « أنجاد امجاد ، ذوو ألسنة حداد » . وكذلك قال علي ، عليه السلام ، حين سئل عن بني هاشم وبني أميّة : « نحن أنجد وأمجد وأجود ، وهم أنكر وأمكر وأغدر» . وقال أيضاً : « نحن أطعم للطعام ، وأضرب للهام » .

وقد عرفت جفاء المكيين وكيس المدنيين . وأعراق بني هاشم مكية ، ومناسبهم مدنية . ثم ليس في الأرض أحسن أخلاقاً ، ولا أظهرُ بِشراً ، ولا أدْوَم دَماثة ، ولا ألينُ عريكة ، ولا أطيبُ عِشرة ، ولا أبعدُ من كبرٍ منهم . والحدة لا يكاد يعدمها الحجازي والتهامي ، إلا أنّ حليمهم لا يشق غباره . وذلك في الخاصّ ، والجمهورُ على خِلاف ذلك ، حتى تصير إلى بني هاشم ، فالحلم في جمهورهم ، وذلك يوجد في الناس كافة ، ولكنا نضمن أنهم أتم الناس فضلاً ، وأقلهم نقصاً . وحُسْنُ الخلق في البخيل أسرع ، وفي الذليل أوجد . وفيهم ـ مع فَرط جودهم وظهور عزّهم ـ من البِشر الحسن والاحْتِمال وكرم التفاضُل ما لا يوجد مع البخيل الموسِر ، والذّليل المكثِر ، اللّذين يجعلان البشر وقاية دون المال .

وليس في الأرض خصلة تدعو إلى الطغيان ، والتهاون بالأمور ، وتفسِد العقول ، وتورث السكر ، إلاّ وهي تعتريهم وتعرِضُ لهم دون غيرهم ، إذ قد جمعوا من الشرف العالي ، والمغرِس الكريم ؛ العزة والمنعة ، مع ابقاء الناس عليهم ، والهيبة لهم ؛ وانهم ، في كل أوقاتهم

وجميع أعصارهم ، فوق من هم في مثل ميلادهم ، في الهيئة الحسنة ، والمروءة الظاهرة ، والأخلاق المرضية ؛ وقد عرف الحدث الغَرير من فتيانهم ، وذو العرامة من شبانهم، أنه إن افترى لم يُفتر عليه ، وان ضَرب لم يُضرب ؛ ثم لا نجده إلا قويّ الشهوة ، بعيد الهمّة ، كثير المعرفة ، مع خفّة ذات اليد ، وتعذر الأمور ؛ ثم لا نجد عند أفسَدِهم شيئاً من المنكر إلاّ رأيت عند غيره من الناس اكثر منه ، من مشايخ القبائل وجمهور العشائر . وإذا كان فاضلهم فوق كل فاضل ، وناقصهم انقص نقصاناً من كل ناقص ، فأي دليل أدلّ ، وأي برهان أوضح مما قلته .

وقد علمت ان الرجل منهم ينعت بالتعظيم، و<يشار إليه> بالرواية في دخول الجنة بغير حساب ، ويتأوّل القرآن له ، ويزاد في طمعه بكل حيلة ، وينقص من خوفه ، ويحتج له بأن النار لا تمسّه ، وأنه ليشفع في مثل ربيعة ومضر . وأنت تجد لهم، مع ذلك ، العدد الكثير من الصوام والمصّلين والتالين الذين لا يجاريهم أحد ولا يقاربهم.

كان ابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يصلّي في كل ليلة ألف ركعة ، وكذلك علي بن الحسين بن علي ، وعلي بن عبد الله بن جعفر ، وعلي بن عبدالله العباس ، عليهم السلام ، مع الحلم والعلم ، وكظم الغيظ ، والصفح الجميل ، والاجتهاد المبر . فلو أن خصلة من هذه الخصال ، أو داعية من هذه الدواعي ، عرضت لغيرهم ، لهلك وأهلك .

اعلم انهم لم يمتحنوا بهذه المحن ، ولم يتحملوا هذه البلوى ، الا لما قدموا من العزائم التامة والأدوات الممكنة . ولم يكن الله ليزيدهم في المحنة ، الا وهم يزدادون على شدّة المحن خيرا ، وعلى التكشف تهذيباً .

وجملة أخرى مما لعليّ بن ابي طالب ، عليه السلام ، خاصة : الأب ابو طالب ، والجد عبد المطلب بن هاشم ، والأم فاطمة بنت اسد بن هاشم ، والزوجة فاطمة بنت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، سيدة نساء أهل الجنة ، والولد الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، والأخ جعفر الطيّار في الجنة ، والعم العباس وحمزة سيد الشهداء في الجنة ، والعمة صفية بنت عبد المطلب ، وابن العم رسول الله ، صلى الله عليه آله . وأول هاشمي بين هاشميين كان في الأرض ولد أبي طالب ، والأعمال التي يستحق بها الخير أربعة : التقدم في الاسلام ، والذبّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن الدين ، والفقه في الحلال والحرام ، والزهد في الدنيا . وهي مجتمعة في علي بن أبي طالب ، متفرقة في الصحابة .

وفي علي يقول أسد بن زُنَيم(١) ، يحرض عليه قريشا ، وأنه قد بلغ منهم ، على حداثة سنّه ، ما لم يبلغه ذوو الأسنان :

في كلّ مجمع غاية اخزاكم ... جَذَع ابرّ على المذاكي القرّح
لله درّكم ! ألمّا تنكروا؟ ... قد ينكر الضيم الكريم ويستحي
هذا ابن فاطمة الذي أفناكم ... ذبحاً ، ويمشي آمناً لم يجرح
أين الكهول ؟ واين كل دعامة ... للمعضلات ؟ واين زين الأبطح ؟
افناكم ضربا بكلّ مهنّد ... صلت ، وحد غراره لم يصفح

وأما الجود فليس على ظهر الأرض جواد جاهليّ ولا اسلامي ، ولا عربيّ ولا عجميّ ، الا وجوده يكاد يصير بخلا اذا ذكر جود على بن أبي طالب ، وعبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن العباس . والمذكورون بالجود منهم كثير . لكنا اقتصرنا .

---

(١) انظر اسد الغابة . الترجمة رقم ٢٤٩ .

ثم ليس في الأرض قوم انطق خطيباً ، ولا اكثر بليغاً ، من غير تكلف ولا تكسب ، من بني هاشم . وقال ابو سفيان بن الحارث :

لقد علمت قريش ، غير فخر ، بأنا نحن أجرؤهم جنانا
وأكثرهم دروعاً سابغات وامضاهم ، إذا طعنوا ، سنانا
وأدفعهم عن الضرّاء فيهم وابينهم ، إذا نطقوا ، بيانا

ومما يضم الى جملة القول في فضل على بن أبي طالب ، عليه السلام ، انه اطاع الله قبلهم ومعهم وبعدهم ، وامتحن بما لم يمتحن به ذو عزم ، وابتلى بما لم يبتل به ذو صبر .

وأما جملة القول في ولد عليّ فإن الناس لا يعظمون الناس إلا بعد أن يصيبوا منهم ، وينالوا من فضلهم ؛ وإلا بعد أن تظهر قدرتهم . وهم معظمون قبل الاختيار ، وهم بذلك واثقون ، وبه موقنون . فلولا ان هناك سرا كريما ، وخيما عجيبا ، وفضلاً مبيناً ، وعرقا ناميا ، لاكتفوا بذلك التعظيم ، ولم يعانوا تلك التكاليف الشداد والمحن الغلاظ .

وأما المنطق والخطب ، فقد علم الناس كيف كان علي بن أبي طالب ، عند التفكير والتحبير ، وعند الارتجال والبديهة ، وعند الاطناب والايجاز في وقتيهما ؛ وكيف كان كلامه ، قاعداً وقائماً ، وفي الجماعات ومتفردا ؛ مع الخبرة بالأحكام ، والعلم بالحلال والحرام . وكيف كان عبد الله بن عباس ، رضوان الله عليه ، الذي كان يقال له الحبر والبحر ، ومثل عمر بن الخطاب يقول له : « غص يا غواص ، وشِنْشِنة اعرفها من أخزم ، قلب عقول ، ولسان قؤول». ولو لم يكن لجماعتهم إلا لسان زيد بن علي بن الحسين ، وعبد الله بن معاوية بن جعفر ، لقرعوا بهما جميع البلغاء ،

وعَلوا بهما على جميع الخطباء . ولذلك قالوا : «أجواد امجاد ، والسنة حداد» .

وقد ألقيتُ اليك جملة من ذكر آل الرسول ، يستدل بالقليل منها على الكثير . وبالبعض على الكل . والبغية في ذكرهم انك متى عرفت منازلهم ، ومنازل طاعاتهم ، ومراتب اعمالهم ، وأقدار أفعالهم ، وشدة محنتهم ؛ وأضفت ذلك الى حق القرابة ؛ كان أدنى ما يجب علينا الاحتجاج لهم ، وجعلت ، بدلَ التوقف في أمرهم ، الردَّ على من أضاف اليهم ما لا يليق بهم . وقد تقدم من قولنا فيهم ، متفرقاً ومجملاً ، ما أغنى عن الاستقصاء في هذا الكتاب .

(٥)

رسالة في الترجيح والتفضيل

تقدمة :

هذه هي الرسالة الثانية التي أوردها علي بن عيسى الأربلي في عقب الرسالة الأولى ، والتي قال في تقديمه لها انها نسخت من مجموع للأمير أبي محمد الحسن بن عيسى بن المقتدر بالله ، بهذا العنوان ، وانه صنع بها ما صنع في سابقتها من الاختصار لها .

وواضح أن صاحب هذا المجموع الذي أخذت منه هذه الرسالة هو حفيد المقتدر بالله جعفر بن أحمد ، الذي اسندت اليه الخلافة بعد ابيه المعتضد ، وهو بعد صبي في الثالثة عشرة فصارت العوبة في يد هذا وذاك وتلك من حاشيته ، فكان عهده من أسوأ العهود ، نحى فيه عن منصبه مرتين ، ومن اكثرها اضطراباً وتعرضاً لصنوف الفتن . وقد انتهى بقتله في معركة بينه وبين مؤنس سنة عشرين وثلاثمائة .

ولم يذكر عريب بن سعد ، فيما كتبه صلة لتاريخ الطبري ، بين من اورد ذكر اسمائهم من ابناء المقتدر بالله من اسمه عيسى ، والد أبي محمد الحسن صاحب ذلك المجموع . وان كان ذلك لا يعنينا كثيراً ، إذ كنا لا

نكاد نشك في أن هذه الرسالة التي اخذت منه مما وضع على الجاحظ ونحل له ، في هذه الفترة المضطربة التي اختلطت بها القيم .

وإنما عنينا بإيرادها هنا ، في عقب الرسالة السابقة ، لأنها ، وإن اختلفت معها ، بسبيل منها . ولأنها ، وذلك ما يعنينا أن نشير اليه ونتبه عليه ، تمثل نموذجاً من الوضع الذي أخذ الناس فيه في هذه المرحلة خاصة من مراحل التشيع ، وهي المرحلة التي اتصل فيها ما بينه وبين الاعتزال .

ولا ريب أن هؤلاء الوضاعين وجدوا في رجل مثل الجاحظ ما يجعلهم حريصين عليه فيما هم بسبيله ، إذ كان لم يذهب في الاعتزال مذهب كثير غيره ممن لا يتحرجون من الاندراء بالطعن على الصحابة ، وإذ كان له من نزعته الأدبية الغالبة عليه ما يجعلته يتحرر من كثير من القيود التي تقيد بها كثير من المعتزلة ، وما يجعله كثير التبسط والمساهلة ، حتى ساغ لخصومه ان يوجهوا اليه مثل تلك التهم التي لم يتحرج من ذكرها ، والتي سبق لنا الحديث عنها .

ذلك هو بعض ما جعلنا نرجح جانب ايراد هذه الرسالة ضمن رسائل هذا المجموع ، وان كانت نسبتها الى الجاحظ نسبة واهية .

النص :

هذا كتاب من اعتزل الشكّ والظن ، والدعوى والأهواء ، وأخذ باليقين والثقة من طاعة الله وطاعة رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، واجماع الأمة بعد نبيّها عليه السلام ، مما تضمنه الكتاب والسنة ، وترك القول بالآراء ، فإنها تخطىء وتصيب . لأن الأمة اجمعت أن النبي ، صلى الله عليه وآله ، شاور اصحابه في الأسرى ببدر ، واتفق رأيهم على قبول الفداء منهم ، فانزل الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى ﴾ الآية[1] . فقد بان لك أن الرأي يخطىء ويصيب ، ولا يعطي اليقين . وإنما الحجة لله ولرسوله ، وما أجمعت عليه الأمة من كتاب الله وسنة نبيها . ونحن لم ندرك النبيّ ولا أحدا من أصحابه الذين اختلفت الأمة في أحقّهم ، فنعلم أيّهم اولى ونكون معهم ، كما قال تعالى : ﴿ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ، ونعلم أيّهم على الباطل فنجتنبهم ، وكما قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ . حتى ادركنا العلم ، فطلبنا معرفة الدين وأهله ، وأهل الصدق والحق ، فوجدنا الناس مختلفين ، يبرأ بعضهم من بعض ، ويجمعهم في حال اختلافهم فريقان : احدهما قالوا : ان النبي ، صلى الله عليه وآله ، مات ولم يستخلف احدا ، وجعل ذلك الى المسلمين يختارونه ، فاختاروا أبا بكر ؛ والآخرون قالوا : ان النبي ، صلى الله عليه وآله ، استخلف علياً ، فجعله اماما للمسلمين بعده . وادعى كل فريق منهم الحق .

فلما رأينا ذلك وقفنا الفريقين لنبحث ، ونعلم المحق من المبطل ،

---

(١) تمام الآية: ﴿حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا، والله يريد الآخرة، والله عزيز حكيم﴾ سورة الأنفال، الآية رقم ٦٧.

فسألناهم جميعاً ، هل للناس بدّ من وال يقيم عبادتهم ، ويجبي زكاتهم ، ويفرقها على مستحقّيها ، ويقضي بينهم ، ويأخذ لضعيفهم من قويّهم ، ويقيم حدودهم ؟ فقالوا : لا بدّ من ذلك .

فقلنا : هل لأحد أن يختار واحداً فيولّيه ، بغير نظر في كتاب الله ، وسنّة نبيّه ، صلّى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : لا يجوز ذلك إلا بالنظر .

فسألناهم جميعاً عن الإسلام الذي أمر الله به ، فقالوا : إنه الشهادتان ، والإقرار بما جاء من عند الله ، والصلاة والصوم والحج ، بشرط الاستطاعة ، والعمل بالقرآن . يحلّ حلاله ، ويحرم حرامه . فقبلنا ذلك منهم .

ثم سألناهم جميعاً : هل لله خيرة من خلقه ، اصطفاهم واختارهم ؟ فقالوا : نعم ! فقلنا : ما برهانكم ؟ فقالوا : قوله تعالى : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ، مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ . فسألناهم : من الخيرة ؟ فقالوا : هم المتقون . قلنا : ما برهانكم ؟ قالوا : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ . فقلنا : هم لله خيرة من المتّقين ؟ قالوا : نعم ، المجاهدون بأموالهم ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَضَّلَ اللَّهُ المُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ عَلَى القَاعِدِينَ دَرَجَة ﴾ . فقلنا : هل لله خيرة من المجاهدين ؟ قالوا : نعم ، السابقون من المهاجرين إلى الجهاد ، بدليل قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ من أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ وقاتل ﴾ الآية[1] .

فقبلنا ذلك منهم ، لاجماعهم عليه ، وعلمنا أن خيرة الله من خلقه المجاهدون السابقون إلى الجهاد . ثم قلنا : هل لله منهم خيرة ؟ قالوا :

(1) الآية بتمامها : ﴿ وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ، ولله ميراث السموات والأرض ، لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى ، والله بما تعملون خبير﴾ سورة الحديد ، الآية رقم ١٠ .

نعم ! قلنا : من هم ؟ قالوا : أكثرهم غناء في الجهاد ، وطعناً وضرباً وقتلاً في سبيل الله ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ ، ﴿ ومَا تُقَدِّمُوا لِأنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ الله ﴾ ، فقبلنا ذلك منهم وعرّفناه .

وعلمنا أن خِيرة الخيرة أكثرهم في الجهاد غناءً ، وأبذلهم لنفسه في طاعةِ الله ، وأقتلهم لعدوّه . فسألناهم عن هذين الرجلين : علي بن أبي طالب ، عليه السلام ، وأبي بكر ، أيهما كان أكثر غناء في الحرب ، وأحسن بلاء في سبيل الله ؟ فاجمع الفريقان على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه كان أكثر طعناً وضرباً ، وأشد قتالاً ، وأذبّ عن دين الله ورسوله ﷺ . فثبت بماذكرناه من إجماع الفريقين ، ودلالة الكتاب والسنة ، إن علياً عليه السلام أفضل .

وسألناهم ثانية عن خيرته من المتقين ، فقالوا : هم الخاشون ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيد ﴾ إلى قوله : ﴿ من خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ أُعِدّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهم ﴾ ، ثم سألناهم : من الخاشون ؟ قالوا : هم العلماء ، لقوله تعالى : ﴿ إنّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ . ثم سألناهم جميعاً : من أعلم الناس ؟ قالوا : أعملهم بالقول ، وأهداهم إلى الحق ، وأحقهم أن يكون متبوعاً ، ولا يكون تابعاً ، بدليل قوله تعالى : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ ، فجعل الحكومة إلى أهل العدل . فقبلنا ذلك منهم . ثم سألناهم عن أعلم الناس بالعدل ، من هو ؟ قالوا : أدلّهم عليه . قلنا : فمن أدل الناس عليه ؟ قالوا : أهداهم إلى الحق ،

---

(١) الآيات : ﴿ وازلفت الجنة للمتقين غير بعيد ، هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ، من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾ . سورة ق الآيات ٣١ - ٣٣ .

وأحقهم أن يكون متبوعاً ، ولا يكون تابعاً ، بدليل قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ . . ﴾ الآية[٢] .

فدل كتاب الله ، وسنة نبيه عليه السلام ، والإجماع ، أن أفضل الأمة بعد نبيها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، عليه السلام ، لأنه إذا كان أكثرهم جهاداً كان اتقاهم ، وإذا كان اتقاهم كان أخشاهم، وإذا كان أخشاهم كان أعلمهم ، وإذا كان أعلمهم كان أدل على العدل ، وإذا كان أدل على العدل كان أهدى الأمة إلى الحق ، وإذا كان أهدى كان أولى أن يكون متبوعاً ، وأن يكون حاكماً ، لا تابعاً ولا محكوماً عليه .

وأجمعت الأمة بعد نبيّها أنه خلّف كتاب الله ، تعالى ذكره ؛ وأمرهم بالرجوع إليه ، إذا نابهم أمر ، وإلى سنته ، ﷺ ؛ فيتدبرونهما ويستنبطون منهما ما يزول به الاشتباه . فإذا قرأ قارئهم : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ ، فيقال له : أثبتها ، ثم يقرأ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾، وفي قراءة ابن مسعود : ﴿ إنَّ خيركم عند الله اتقاكم ﴾، ثم يقرأ : ﴿ وَأُزْلِفَت الجَنّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، هَذَا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ، مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالغَيْبِ ﴾. فدلت هذه الآية على أن المتقين هم الخاشون ؛ ثم يقرأ حتى إذا بلغ إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾، فيقال له : اقرأ حتى ننظر : هل العلماء أفضل من غيرهم أم لا ، حتى إذا بلغ إلى قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الذين يَعْلَمُونَ والَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، علم أن العلماء أفضل من غيرهم . ثم يقال : اقرأ ، فإذا بلغ إلى قوله تعالى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ

---

(٢) تمام الآية : ﴿ قل هل من شركائكم من يهدي الحق ، أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع ، أم من لا يهدي إلا أن يهدى ، فما لكم كيف تحكمون ﴾ سورة يونس ، الآية رقم ٣٥ .

وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾، قيل : قد دلت هذه الآية على أن الله تعالى قد اختار العلماء وفضلهم ورفعهم درجات .

وقد أجمعت الأمة على أنّ العلماء ، من أصحاب الرسول ﷺ ، الذين يؤخذ عنهم العلم كانوا أربعة : علي بن أبي طالب، عليه السلام ، وعبد الله بن العبّاس ، وأبن مسعود ، وزيد بن ثابت ، رضي الله عنهم . وقالت طائفة : عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه .

فسألنا الأمة : من أولى الناس بالتقديم إذا حضرت الصلاة ؟ فقالوا : إن النبي ، ﷺ، قال : ﴿ يؤم بالناس أقرؤهم ﴾، ثم أجمعوا على أن الأربعة كانوا أقرأ لكتاب الله من عمر . فسقط عمر .

ثم سألنا الأمة : أي هؤلاء الأربعة اقرأ لكتاب الله ، وأفقه بدينه ؟ فاختلفوا ، فوقفناهم حتى نعلم .

ثم سألناهم : أيّهم أولى بالإمامة ؟ فأجمعوا على أن النبي ، ﷺ ، قال : ﴿ الأئمة من قريش ﴾ ، فسقط ابن مسعود وزيد بن ثابت . وبقي علي بن ابي طالب وابن عباس . فسألنا : أيهما أولى بالامامة؟ فأجمعوا على أن النبي ، ﷺ ، قال : ﴿ إذا كانا عالمين فقيهين قرشيين فأكبرهما سناً ، وأقدمهما هجرة . فسقط عبد الله بن العباس ، وبقي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، صلوات الله عليه . فيكون أحق بالإمامة، لما أجمعت عليه الأمة ، ولدلالة الكتاب والسنة عليه .

(٦)
رسالة الجد والهزل

تقدمة :

هذه الرسالة التي صدرنا بها عن مخطوطة مكتبة داماد ابراهيم باشا ، وانتفعنا في تصحيحها وتحقيق نصها بمخطوطة المتحف البريطاني التي كتبها عبيد الله بن حسان ، وما جاء منها في كتاب (المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ) المحفوظ بمكتبة برلين ، هي التي يذكرها ياقوت في فهرست كتب الجاحظ الذي أورده في سياق ترجمته له باسم : (كتاب المزاح والجد).

وهي ، بهذا الذي جاء في تقديمها من أنه كتبها إلى محمد عبد الملك الزيات ، تعتبر من آثاره في هذه الفترة . أي أنها بذلك سابقة في صدورها عنه عن رسالته إلى أبي الوليد ابن أبي دؤاد، ورسالته الأخرى إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان . كما أنها ـ فيما يغلب على ظننا ـ سابقة على رسالته في كتمان السر وحفظ اللسان .

وهي من خير ما كتب الجاحظ مما يدخل في باب الأدب الخالص ،

وإن كان قد ساقها مساق رسالة خاصة ، وجه بها إلى صاحبه محمد بن عبد الملك الزيات .

وقبل أن نأخذ في تحليل هذه الرسالة والتعريف بها ، نحاول أن نتعرف تاريخ إنشائها بتلمس الشواهد الدالة على ذلك . ولعل من حسن الاتفاق أننا نملك في هذه الرسالة بعض الشواهد التي تشير لنا شيئاً ما إلى ذلك التاريخ ، على التقريب .

فأول ذلك ما جاء فيها من الاشارة إلى موت المعتصم. وذلك يعني أنها أنشئت بعد ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين ، وهو الوقت الذي مات فيه . وهذا دليل قاطع يمنع أن تكون أنشئت قبل ذلك ، ويجعل إنشاءها بين هذه السنة وسنة ٢٣٢ .

وإلى جانب هذا الدليل نجد في هذا النص إشارة نستطيع أن نستأنس بها في الانتقال خطوة أخرى نحو ذلك التاريخ المقارب . وذلك في الاشارة إلى أصحاب المظالم ، وهم الذين اقترن اسمهم باسم ابن الزيات في تتبعهم، والتنقيب عن أحوالهم ، في أيام الواثق . وقد ذكر ذلك الطبري في حوادث سنة ٢٢٩ ، فقال : « ونصب محمد بن عبدالملك لابن أبي دؤاد ، وسائر أصحاب المظالم ، العداوة ؛ فكشفوا وحبسوا، وأجلس إسحاق بن ابراهيم فنظر في أمرهم ، وأقيموا للناس ، ولقوا كل جهد »، فإذا صحت هذه الاشارة فالغالب أن يكون وضع هذه الرسالة في هذه السنوات ـ منذ سنة ٢٢٩ ـ أي منذ اتجه ابن الزيات إلى تعقب أصحاب المظالم هؤلاء . ونحن نعلم أن هذا التعقب منه لهم استمر ـ على الأقل ـ إلى سنة ٢٣١ ، حيث تجيء الاشارة إلى شيء من ذلك .

وبهذا نستطيع القول بأن هذه الرسالة يرجع تاريخها إلى أواخر هذه

المرحلة ، فيما بين سنة ٢٢٩ وسنة ٢٣٢ .

ومما يقوى لدينا هذا الظن اشارة الجاحظ في هذه الرسالة إلى عهده الماضي الطويل مع محمد بن عبد الملك ، إذ يقول : « ولو أن شيبتي التي بها استعطفتك ، وكبرة سني التي بها استرحمتك . اللتين لم يحدثا إلا في ذراك ، ولم يحلا بي إلاّ وأنا في ظلّك ، لكان في شفاعة الكبرة ، واسترحام الضعف والوهنة ، ما يردعك عني أشد الردع ، ويؤثر في طباعك أبين الأثر ؛ فكيف وقد أكرمتني جديداً ، ثم تريد أن تهينني خلقاً ؛ وقويت عظمي أغلظ ما كان ، ثم تريد أن توهنه أرق ما كان . وهل هرمت إلا في طاعتك ، وهل اخلقتني إلا معاناة خدمتك » . ؛ويقول في ذلك أيضاً : « ولقد منحتك جلد شبابي كملاً ، وغرب نشاطي مقتبلاً ، وكان لك مهناه وثمرة قواه ، واحتملت دونك غرامه وعدمه ؛ فكان لك غنمة وعلي غرمه ؛ وأعطيتك عند إدبار بدني قوة رأيي ، وعند تكامل معرفتي نتيجة تجربتي . واحتملت دونك وهن الكبر وأسقام الهرم » .

وبعد ، ففي هذه الفترة حدثت الجفوة بين الجاحظ وصاحبه . ولعل الأصل الحقيقي فيها هو ذلك المزاج الحاد الذي رأيناه فيما خلص لنا من صفة الجاحظ له . ومن صفات هذا المزاج ولوازمه الملالة والاستطراف في اتخاذ الأصدقاء . وقد أشار أبو عثمان ، في غير موضع من رسالته هذه ، إلى تلك الصفة فيما يوجه من الحديث إلى ابن الزيات ، إذ يقول له : « ولا تعاقب وادًّا ، وإن اضطرك الوادّ ؛ ولا تجعل طول الصحبة سبباً للتضجر ؛ واصبر على خلقه ، فإن خلقه خير من جديد غيره ؛ وصداقة المستطرف غرر ، وملالة الصديق أفن » . ويقول مرة أخرى : « ما قبح الرجال شيء كالوكال ، ولا أفسد الكريم شيء كحب الاستطراف . وخير

الناس من اتبع الغضب مواقع الذنوب ، واتبع العقاب مواقع الغضب ، ولم يتبع الغضب مواقع الهوى » .

فالجاحظ ، إذ يرجع الأمر في هذه الجفوة إلى ذلك الخلق ، يكاد يصرح بذلك تصريحاً . وهو الخلق الذي يبدو أنه قتله فهماً له ، ومعرفة به . ولعل علاقته بابن الزيات كانت مما أتاح له هذه المعرفة الدقيقة التي نراها في مثل قوله ، مما أجراه في كتاب البخلاء على لسان ابن التوأم :

« وليس يحترس من أسباب اللجاج إلا من عرف أسباب التلون ، وقد وقاه الله سوء التكفي وسخفه ، وعصمه من سوء التصميم ونكده ، فقد اعتدلت طبائعه ، وتساوت خواطره . ومن ليس قامت أخلاطه على الاعتدال ، وتكافأت خواطره في الوزن ، لم يعرف من الأعمال الاقتصاد ، ولم يجد أعماله أبداً إلا بين التقصير والافراط ، لأن الموزون لا يولد إلا موزوناً ، كما أن المختلف لا يولد إلا مختلفاً ؛ فالمتتايع لا يثنيه زجر ، وليست له غاية دون التلف ؛ والمتكفي ليس له مأتى ولا جهة ، ولا له رقية ، ولا فيه حيلة . وكل متلون في الأرض فمنحل العقد ، ميسّر لكل ريح . والمتلون شر من المصمم ، إذ كنت لا تعرف له حالاً يقصد إليها ، ولا جهة يعمل عليها » .

ويكرر هذه المعاني في موضع آخر ، وفي صور أخرى ، فيقول ، كما جاء في كتاب المختار من كلام أبي عثمان ، المخطوط بمكتبه برلين :

« وأنا أحذرك اللجاج والتتايع ، وأرغب إلى الله في السلامة من التلون والتزيد ، ومن الاستطراف والتكلف . فإن الافراط في اللجاج لا يكون إلا من خلل في القوة، وإلا من نقصان يدل على <ضعف> التمكـن. واللجوج في معنى المغلوب ، والمتصرف في معنى الغالب ،

والمتكفي لا يكون إلا والعقدة منحلّة ، والنفس منقوضة ، ثم لا يصل ضعف المنة إلا بقلة المعرفة . ومتى نقصت المعرفة ، ولم تكن المنة فاضلة ، كان الفاعل إما لجوجاً متتايعاً ، وإما ذا بدوات متلوناً ، فاعرف فضل ما بين التلون والتصرف . . . . والتلون أن تكون سرعة رجوعه عن الصواب كسرعة رجوعه عن الخطأ ، واللجاج أن يكون شأن عزمه على إثبات الخطأ الضار كشأن عزمه على إمضاء الصواب النافع . والذهول عن العواقب مقرون باللجاج ، وضعف العقدة مقرون بالبدوات » .

فهذا الخلق الذي يبدو أن الجاحظ امتحن به كثيراً ، كان هو الأصل في تلك الجفوة التي صدرت عنها هذه الرسالة . ولكن الجاحظ لا يقف فيها عند هذ الأصل إلا تلك الوقفات القصيرة ، فلم يكن همه فيها إلا أن يعبث ويسخر ، لعله يجد في هذا العبث ما يستروح به من هذه الجفوة ، ويثأر به لنفسه نوعاً من الثأر الخفي ، فأخذ يختلق الأسباب اختلاقاً ، ويشقق القول فيها تشقيقاً ، ويستطرد من موضوع إلى موضوع ، ومن نحو من القول إلى نحو آخر ، مما لا نملك أن نلم به في هذا العرض والتحليل إلماماً يبرز فن الجاحظ فيها إبراز كافياً .

يبدأ الجاحظ هذه الرسالة بقوله : « جعلت فداك ! ليس من أجل اختياري النخل على الزرع أقصيتني ، ولا على مَيلي إلى الصدقة دون إعطائي الخراج عاقبتني ، ولا لبغضي دفع الاتاوة والرضا بالجزية حرمتني » .

ويبدو أنه يشير بذلك إلى شيء من المشاحّة والجدل وقع بينهما في بعض هذه المسائل التي كانت تقع عليها المناظرة ، وقد اتخذ كل منهما جانباً يؤيده ويدافع عنه ، حتى يمكن القول بأنه صار كالمذهب له : يعرف

به وينسب إليه ، كما قال في موضع آخر من الرسالة ، ساخراً : « وأنت خراجي وأنا عشري ، وأنت زرعي وأنا نخلي ». ولعل ذلك كان من الملابسات المباشرة التي وقعت بعدها الجفوة ، واستتبعت القطيعة ، وإن بدأ كلامه بنفي ذلك ، على أنه مما لا ينبغي أن يكون .

ولكنه لا يلبث أن ينتقل نقلة أخرى ، وهو لا يزال قريباً من الجد في مناقشة الأمر ، فيقول : « فإن كان ذلك هو الذي أغضبك ، وكان هو السبب لموجدتك . فليس ـ جعلت فداك ـ هذا الحقد في طبقة هذا الذنب ، ولا هذه المطالبة من شكل هذه الجريمة ؛ ولو كان إذ لم يكن في وزنه وقع قريباً ، وإذ لم يكن عدله وقع مشبها ، كان أهون في موضع الضرر ، وأهون في مخرج السماع ». وما يزال يخرج ـ في خطابه ـ من جد إلى سخرية ، ثم من سخرية إلى جد ، حتى ينتهي إلى أن يقول :

« وبعد ، متى صار اختيار النخل على الزرع يحقد الأخوان ، ومتى صار تفضيل الحب وتقريظ الثمر يورث الهجران ؟ . . ومتى صار تقديم النخلة ملّة ، وتفضيل السنبلة نحلة ؟ ومتى صار الحكم للنعجة نسبا وللكرمة صهراً ؟ ومتى تكون فيها ديانة ، وتستحكم فيها بصيرة ، وتحدث عنها حمية ؟وقد كنا نعجب من حرب البسوس في ضرع ناب ، ومن حرب بعاث في مخرف تمر ، ومن حرب غطفان في سبق دابة ؛ فجئتنا أنت بنوع من العجب أبطل كل عجب ، وآنسنا بكل غريب ، وحسن عندنا كل قبيح ، وقرب عندنا كل بعيد . فإن جهلت ـ أعزك الله ـ غضبك ، فمثلي جهل مالا علة له ؛ وإن عجزت عن إحتمال عقابك ، فمثلي ضج مما لا يطيق حمله » .

وإذن فهذا الفرض الذي افترضه الجاحظ سبباً لهذه الجفوة ، وسبيلاً

إلى غضب ابن الزيات عليه ، وهو الخلاف بينهما في تفضيل النخل على الزرع ، أو الميل إلى الصدقة دون إعطاء الخراج ، فرض لا يصلح أن ينبني عليه شيء من الغضب أو الموجدة . فماذا عسى أن يكون السبب إذن ؟ أيعجز الجاحظ عن معرفته ، وهو الذي أحصى ـ كما يقول ـ جميع أسباب التعادي ، وحصل جميع علل التضاغن ؟ ألا أن يكون ذلك من التجني الذي لا يقوم على سبب ، ولا يرجع إلى علّة .

« فمن أسباب العداوات ـ كما يقول ـ تنافس الجيران والقرابات ، وتحاسد الأشكال في الصناعات ؛ ومن أمتن أسبابهم إلى الشر ، وأسرعها إلى المروءة والعقل ، وأقدحها في العرض ، وأحطّها على الدين ، التشاحّ على المواريث ، والتنازع في تخوم الأرضين ؛ فإن اتفق أن يكون بين المتشاكلين في القرابة ، كان السبب أقوى ، والداء أدوى . وعلى حساب ذلك إن جمعت هذه الخصومة مع الجوار والقرابة ، واستواء الحظ في الصناعة ».

فأي شيء من ذلك بين الجاحظ وابن الزيات ، حتى تقوم بينهما هذه الجفوة ؟ لقد كان ذلك جائزاً قبل اليوم ، حين كانت دورهما بالعسكر متجاورة ، ومنازلهما بمدينة السلام متقابلة . وكانا ينظران في علم واحد ، ويرجعان في النحلة إلى مذهب واحد ؛ فأما اليوم فالأمر بينهما مختلف ، والأمد بينهمابعيد . ويصور الجاحظ ذلك الخلاف بقوله : « أنا بفرغانة وأنت بالأندلس ، وأنا صاحب كلام وأنت صاحب نتاج ، وصناعتك جودة الخط ، وصناعتي جودة المحو ، وأنت كاتب وأنا أميّ ، وأنت خراجي وأنا عشري ، وأنت زرعي وأنا نخلي »، إلى آخر هذه المفارقات التي يفتنّ الجاحظ فيها ، ويسرف في إيرادها. فكيف تحدث بينهما الخصومة إذن ، وهما لا يلتقيان في شيء يثيرها بينهما ؟.

ولكن الجاحظ لا يقف عند هذا الحد في تشقيق المعاني الساخرة ، فلو أنه وقف هنا لترك هذه الجفوة بلا تفسير ، وذلك جائز حين يجدّ في المحاجّة ؛ أما حين يسخر فلا بد له من تفسير ساخر ، وقد وجد ذلك التفسير ، وذلك حيث يقول :

« وما أعرف ها هنا اجتماعاً على مشاكلة إلا في الإيثار بخبز الخشكار على الحواري ، والباقلّي على الجوزينج ، وأنا جميعاً ندعي الهندسة . فقد بلغ الآن من جرمي في مساواتك في خبز الخشكار ، وإيثاري الباقلي ، والمعرفة بتقدير المدن وإجراء القني ، أن انفى من جميع الأرض ، وأن تجعل في دمي الجعائل . فإني قد هجرت الخبز البتة إلى مواصلة التمر ، ونزلت الوبر بدلا من المدر » .

فهذا سبب الجفوة ، كما يعرض لها الجاحظ في رسالته ، جاداً مرة هازلاً مرة أخرى . ولعل هذه الناحية هي أمس نواحي الرسالة بسياقنا ، إذ نحاول أن نؤرخ صلته بابن الزيات ، ونصور وجوه هذه الصلة . ولكن نواحي الرسالة الأخرى لا تقل عن هذه الناحية طرافة وامتاعا وتصويراً لفن السخرية عنده ، بل لعلها كثيراً ما تفوقها ، كما في تصويره لهذه الجفوة ومظاهر تجني ابن الزيات ، ثم في تصويرما ينال الجاحظ من ذلك ؛ إلى غير ذلك من الموضوعات المختلفة التي عرض لها الجاحظ عرضاً دقيقاً عميقاً ، كالقول في صنوف الأصدقاء ، والفرق بين الأنواع المختلفة للذنوب ، مما لا يغني فيه تلخيص . ولعل فيما قدمنا ما يكفي في التعريف برسالة الجد والهزل ، وفي بيان مكانها من علاقة الجاحظ بابن الزيات(*) .

(*) الجاحظ : حياته وآثاره . المرحلة الثانية من الفترة الأولى في العهد البغدادي .

النص :

بسم الله الرحمن الرحيم

(*) جُعلتُ فِداكَ ، ليس من(*) أجل اختياري النّخلَ على الزرع أقصيتَني ولا على مَيلي إلى الصَدَقة دون إعطائي الخراج عاقبتَني ولا لبُغضي دَفعَ الإتاوة والرِضا بالجِزية حرمتَني ، ( ) ولستُ(*) أدري لِمَ كرهتَ قُربي وهَويتَ بُعدِي واستثقلتَ روحي ونفسي واستطلتَ عمري وأيّامَ مُقامي ، ولِمَ سَرَّتك سيِّئتي ومُصيبتي وساءتك حَسَنتي وسلامتي ،(*) نعم حتى ساءكَ عَزائي وتجمُّلي بقدر ما سَرَّكَ جَزَعي وتَضجُّري ، وحتى تمنّيت أن أُخطِئَ عليك فتجعل خطأي حُجَّةً لك في إبعادي ، وكرهتَ صوابي فيك خوفاً من أن تجعله ذريعةً لك إلى تقربي . فإن كان ذلك هو الذي أغضبك وكان هو السبب لِمَوجدتك،(*) فليس ـ جُعلتُ فِداك ـ هذا الحقد في طبقة هذا الذنب ولا هذه المطالبة من شَكل هذه الجريمة . ولو كان إذ لم يكن في وزنه وقع قريباً وإذ لم يكن عِدلَهُ وقع مشبهاً ، كان أهون في موضع الضرر وأسهل في مَخرج السماع . (*)فأيّ شيء بقّيت للعدوّ المُكاشِف وللمنافق المُلاطِف وللمعتمِد المُصِرِّ وللقادر المُدِلِّ ؟ ومَن عاقب على الصغير بعقوبة الكبير وعلى الهفوة بعقوبة الإصرار وعلى الخطأ بعقوبة العَمد وعلى معصية المُسِرّ بعقوبة معصية المُعلِن ومَن لم يُفرِّق بين الأعالي والأسافل وبين الأقاصي

---

(٣) [أجل] م ـ (٥) رأيتك أبقاك الله قد كرهت ب (في ابتداء الرواية) ـ (٧) نعم م : [ ] من ـ عزائي م: [ ] ـ (١٠) [لك] م ـ (١٠) تقربي م ـ فان كان. . . (١١) لموجدتك م : [ ] ﴿ ـ أبقاك الله م ـ (١٢) من شكل م : شكل من ـ (١٤) أبقيت م ـ وللمعتمد ب ـ (١٥) [وللقادر المدل] ولمن عاقب ب ـ (١٦) المسر ب : المتستر م ، المستتر ـ (١٧) المعلن م ب : المعاند ـ

(*) (٦ـ ص ٦٢ ، ٢) جعلت . . . الجريمة : رواية م ١ .

(+) (٨ـ٩) ولست . . . مقامي : رواية ب ١ .

(*) (٤) ابتداء رواية م ٢ ـ (٤ ـ ٧) فاي . . . المعلن : رواية ب ٢ .

والأداني عاقب على الزنا بعقوبة السَرِقة وعلى القتل بعقوبة القَذف . ومَن خرج إلى ذلك في باب العِقاب خرج إلى مِثله في باب الثواب ، ومَن خرج من جميع الأوزان وخالف جميعَ التعديل كان بغاية العقاب أحقَّ وبه أولى .

والدليلُ على شِدّة غيظك وغَلَيان صدرك ، قوةُ حركتِك وإبطاءُ فَترتك وبُعدُ الغاية في احتيالك . ومن البرهان على ثبات الغضب وعلى كظم الذنب تمكّنُ الحِقد ورسوخُ الغيظ وبُعد الوَثبة وشِدّة الصولة . وهذا البرهانُ صحيحٌ ما صحّ النظم وقام التعديل واستوت الأسباب . ( )ولا أعلم ناراً أبلغ في إحراق أهلها من نار الغيظ ولا حركة أنقض لِقوّة الأبدان من طلب الطوائل مع قلة الهدوء والجهل بمنافع الجمام وإعطاء الحالات أقسامها من التدبير .ولا أعلم تجارةً أكثر خسراناً ولا أخفَّ ميزاناً ، من عداوة العاقل العالم وإطلاق لسان الجليس المُداخِل والشِعار دون الدثار والخاصّ دون العامّ . والطالبُ ـ جُعلتُ فِداك ـ بعَرَض ظفَر ما لم يخرج المطلوب،وإليه الخيار ما لم تقع المنازلة . ومِن الحزم ألاّ تخرج إلى العدوّ إلا ومعك من القُوى ما يغمر الفَضلَة التي يُنتجها له الإخراج . ولا بدّ أيضاً من حزمٍ يحذِّرك مُصارعَ البغي ويُخوِّفك ناصرَ المظلوم(*) .

( )وبعدُ ـ أبقاك الله ـ فأنت على يَقين من موضع ألم الغيظ من نفسك ، والغيظُ عذابٌ ، ولربما زاد التشفِّي في الغيظ ولم ينقص منه .

---

(١) السرقة م : السرق ـ (٣) وبه أولى م : به وأولى ـ (٥ ـ ٦) على ثبات . . . الذنب : على بيان الغضب وعظم الذنب م ، وكلتا القراءتين محرفة . (٩ ـ ١٠) [مع قلة . . . من التدبير] ب ـ (١١) العالم م : [ ] ـ (١٢) أبقاك الله م ـ (١٤) ما يغمر م : ما < لا > يغمر ـ يفتحها م ـ (١٥) ويخوفك م : ويحرك ـ المطلوب م . (١٦) [أبقاك الله] ب ـ موقع ب ـ [من نفسك] ب ـ (١٧) وربما ب ـ

(+) (١٥ ـ ص ٦٣ ، ٤) ولا أعلم . . . دون العام : رواية ب ٣ .

(*) اهـ رواية م ٢ ـ (+) (٨ ـ ١٣) وبعد . . . معجزة : رواية ب ٤ .

ولستَ على يَقين من نفوذ سَهمك في < صيدك كما أيقنتَ بموضع الغيظ من > صدرك . والحازم لا يلتمس شِفاء عيظه باجتلاب ضِعفه، ولا يُطفىءُ نارَ غضبه تأخُّرُ عقوبةٍ من أغضبه، ولا يسدِّد سهمَه إلّا والغرضُ ممكن والغايةُ قريبة، ولا يهرب والمهرب معجزة . إنّ سلطان الغيظ غَشوم وإنّ حُكم الغضب جائر ، وأضعف ما يكون العزم عن التصرُّف أضعف ما يكون الحزم . (**)والغضب في طباع شيطان والهوَى يتصوّر في صورة امرأة ، فلا يُبصِر مَساقطَ العَيب ومواقعَ الشرف إلا كلُّ معتدل الطِباع ومعتدل الأخلاط ومستوى الأسباب . (*)والله لقد كنتُ أكره لك سَرَفَ الرضا مخافةَ جواذبه إلى سرف الهوى ، فما ظنُّك بسرف الغضب وبغلبة الغيظ ، ولا سيما ممن قد تعوّد إهمالَ النفس ولم يُعوِّدها الصبرَ ولم يُعرفها موضعَ الحظّ في تجرُّع مَرارة العفو . وإنما المراد من الأمور عواقبها لا عواجلها . ولقد كنت أُشفق عليك من إفراط السرور فما ظنّك بإفراط الغيظ . وقد قال بعض الناس : لا خير في طول الراحة إذا كان يورث الغفلة، ولا في طول الكفاية إذا كان يؤدّي إلى المَعجزة، ولا في كثرة الغنى إذا كان يخرج إلى البلدة .

(+)جعلتُ فِداك ، إنّ داء الحُزن وإن كان قاتلاً فإنه داءٌ مُماطِل وسقمه سقم مُطاول ومعه من التمهُّل بقدر قسطه من أناة المِرّة السوداء .

(١ ـ ٢) < . . . > ب : سهمك في صدك ـ (٢) لا يجتلب ب ـ [ولا يطفي . . . أغضبه] ب ـ تاخر ، لعل الصواب : بأمرٍ ـ (٤) والهرب معجز ب ، < إلا > والمهرب معجزة ـ (١٠) [قد] تعود [إهمال] م ـ (١١) مرارته [العفو] م ـ وإنمام : وان خ ـ (٦) [بعض] م ـ (٧) [طول] الكفاية ـ (٨) الغنى م : العي ـ (١٢) و < ان > سقمه ب ـ من التمهيل م ، من التمسك ب ـ آثار ب ـ

(**) ابتداء رواية ب ٥ .

(*) ابتداء رواية م ٣ ، وانتهاء رواية ب ٥ .

(+) (٩ـ ١٤ زلله) رواية ب ٦ .

وداء الغيظ سفيه طيّاش وعجول فحاش، يعجل عن التوبة ويقطع دون الوصية[**] ومعه مِن الخرق بقدر قسطه من التهاب المِرّة الحمراء . < والعجول يُخطىء وإن ظفره، فكيف به إذا أخفق . على أنّ إخفاقه يزيد في حقيقة خطئه كما أنّ فَره لا ينتقص من مقدار زَلَله > . وأنت روحٌ كما أنت وحشيّ مِن قَرنك إلى قَدَمك ، وعمل الآفة في الدِقاق والعِتاق أسرع ، وحدّها عن الغلاظ الجُفاة أكلّ . فلذلك اشتدّ جَزَعي لك من سلطان الغيظ وغلبتِه .

والله لو كنتُ ابتلعتُ مِرارَ بابَك، وأبطلتُ ثمر الباطل، ورددتُ القطائع كلها، ونقضتُ الشروط بأسرها، وأفسدتُ نِتاجِك، وقتلتُ كل شطرنجيّ لك ورفعتُ من الدنيا فراهة الخيل، وجعلتُ المروج كلها حِمىً، وكنتُ جُذام المردان وبرسام الأولاد، ومسختُ جميع الجواري في صورة أبي رملة ورددتُ شطاط خلقك إلى جعودة أبي حثة، وكنتُ أوّل من سَنّ بَيعَ الرجال في النخاسين، وفَتَحَ باب الظُلم لأصحاب المظالم، وحوّلتُ إليك عقل أبي دينار، وطُبِعتُ على بيان مانويه[*] وأعَنْتُ على موت المعتصم وغضبتُ

---

(١) طائش ب - (١ - ٢) ويقتطع عن التوصية ب - (٢) من الخوف ب - (٢ - ٤) < ... > ب فقط - (٨) كذا في   وكلتا الكلمتين محرفة - (١١) جذام المردان ، صححنا : صداق المرادين   - (١٢) ابى حثة   ولعله محرف - (١٠) والله لو كنت احتلت على موت ب -

---

(**) ا هـ رواية م ٣ .

(*) (١٠ - ١٦ عرف بالصدق) رواية ب ٧ .

أبو رملة . ربما كان يعني أبا رملة يحيى بن آدم الكرخي (تاريخ الطبري ١١ : ١٩) .

أبو دينار ، ربما كان يعني جعفر بن دينار ، أحد قواد الأفشين في حرب يابك .

صالح بن حنين : ذكر في كتاب البخلاء في سياق يدل على البغض والثقل . يمكن مراجعة التعليق رقم ١٦ من تعليقات وشروح كتاب البخلاء .

حاتم الريش : يذكره صاحب الأغاني في ندماء صالح بن الرشيد (٧ : ٢٠٤) ، وأورد في الصفحة التالية أبياتاً يهجوه بها حسين بن الضحاك .

لمصرع الأفشين، واستَجبْتُ للديك الأفرق، وأحببتُ صالح بن حُنَين وأحوجتُك إلى حاتم الريش، وكان أبو الشماخ صديقي والفارسيّ من شيعتي < ورفست حمزة رفسةً شديدة وركلتُ عُمَرَ ركلةً صعبة ، > لكــان مــا تركبني به سرفاً، ولكنتَ في هذا العقاب متعدّياً .

جُعلت فِداك ، لا تتعرّض لعداوة عقلاء الرواة ولضغينة حُفّاظ المثالب وللسان مَن قد عُرف بالصدق والتوخّي وبقلّة الخَطَل والتكسُّب ، ما وجدتَ عن ذلك مندوحة ووجدتَ المذهب عنه واسعاً . ولا تُعاقِب وَادّاً وإن اضطرّك الوادّ ، ولا تجعل طول الصُحبة سبباً للتضجُّر . واصبر على خَلقَه فإنّ خَلقَه خير من جديد غيره . وصداقة المستطرف غَرَرٌ ومَلالة الصديق أفنّ . والعلم بأقدار الذنوب غامض وحدود الذنوب في العقاب خَفِيّة. ولن يَعرف العقاب مَن يجهل قدر الذنب، والأجرام كثيرة الأشكال ومتفاوتة في *الأقدار. وإذا أردتَ أن تعرف مقدار الذنب إليك من مقدار عقابك عليه، فانظر في علّته وفي سببه وإلى معدنه الذي منه نجم وعُشّه الذي منه دَرَجَ ومغرسه الذي فيه نَبَتَ ، وإلى جهة صاحبه في التتايُع والتترع وفي النزوع والثبات ، وإلى قِحته عند التقريع وإلى حيائه عند التعريض وإلى فطنته عند الرشق والتودية . فإنّ فضل الفطنة ربما دلّ على فرط الاكتراث ، وعلى قدر الاكتراث يكون الإقدام والإحجام . (*)فكل ذنبٍ كان سببه الدالّة وضيق صدرٍ وغلظ طباعٍ وحدّة مرارٍ ، من جهة تأويل أو من جهة

(١) لصرع ب ـ للديك الأفرق ب : للدين الأبيض ـ (٢) وأخرجتك إلى حاتم الرئيس ب ـ أبو السماح ب ـ (٣) < ورفست . . . صعبة > ب ـ (٣ ـ ٤) ما تركبني ، صححنا : ما تركتني ـ معتديا ب ـ (٥) الرجال ب ـ (٦) عرف العضد ب ـ كذا ، ولعلها : التكذب ، أو التكنب ـ (٩) غرر ، صححنا : غرور ـ (١٠) باقدار ، صححنا : باقرار ـ (١٢) الاقدار ، صححنا : الأقدام ـ (١٤) لعل الصواب : التسرع ـ (١٦) كذا ولعلها : الرمز والورية ـ (١٨) الصدر وعلو الطباع ب ـ [من جهة تأويل] ب ـ

(*) (١١ ـ ص ٦٧ ، ٢) فكل ذنب . . . حليم : رواية ب ٨ ـ ٩ .

غَلطٍ في المقادير أو من طريق < فرط > الأنَفَة وغَلَبة طباع الحميّة من بعض الجفوة أو لبعض الأثرة ، أو من جهة استحقاقه عند نفسه وفيما زيّن له مِن عمله ، وأنه مُقصَّر به مؤخَّر عن مرتبته ، أو كان مُبلغاً عنه أو مكذوباً عليه ، وكان ذلك جائزاً عليه غير ممتنع فيه ، فإذا كانت ذنوبه من هذا الشكل وعلى هذه الأسباب وفي هذه المجاري ، فليس يقف عليها كريم < ولا يلتفت لها حليم > . ولست أسميه بكثرةٍ معروفة كريماً ، حتى يكون عقله غامراً لعلمه وعلمه غالباً لطبعه ، وحتى يكون عالماً بما ترك وعارفاً بما أخذ . واسم الحليم جامع للكظم والقدرة والفهم . فإذا وجدتَ الذنب بعد ذلك لا سبب له إلاّ البِغضة ، فلو لم تَرضَ لصاحبه بعقابٍ دون قَعر جهنم ، لَعَذَرَك كثير من العُقلاء ولصوّب رأيك عالم من الأشراف . ومتى كانت علّته طبيعة الداء وخُلقه الشرارة والتسرُّع ، فاقتله قتلَ العقارب وادمغه دمغَ رؤوس الحيّات . وإذا كان ممن لا يُسيء فيك القَولَ ولا يرصدك بالمكروه ، إلاّ لتعطيه على الخوف وتمنع عِرضك من جهة التقيّة ، فامنعه جميل رفدك واحتلْ في منعه من قبل غيرك ، فإنك إن أعطيته على هذه الشريطة وأعظمته من هذه الحكومة ، فقد شاركته في سبِّ نفسك واستدعيتَ الألسنة البَذيئة إلى عرضك وكنتَ عوناً لهم عليك . وكيف تُعاقبه على ذنبٍ لك شطرهُ وأنت فيه قسيمُه ، إلاّ أنّ عليك غُرمُه وله غُنمه

(*)ومِن العدل المحض والإنصاف الصحيح أن تحطّ عن الحسود نصف عقابه وأن تقتصر < منه > على < بعض > مقداره ، لأنّ ألم

(١) الغلط ب ـ < فرط > ب ـ (١ ـ ٤) [من بعض الجفوة . . . ممتنع فيه] ب ـ (٢) الأثرة ، صححنا : الاتوة ـ (٦) < ولا يلتفت لها حليم > ب ـ (١٣) التقية ، صححنا : النقبة ـ (١٧) قسيمة ، صححنا : قسمة ـ (١٨) يحط من ب ـ (١٩) يقتصر على مقداره ـ

(*) (١٤ ـ ٦٨ ، ٣) ومن العدل . . . قوله : رواية ب ١٠ .

حَسَده لك قد كفاك مؤونة شطر غيظك عليه .

وأما الوادّ فلا تعرض له البتة < ولا تلتفت لِفتَه > ولو أتى على الحرث والنسل وجنى على الروح والقلب ، ولا تغترّ بقوله: إنّي وادّ ولا تحكم له بدعواه : إني جدّ وامق ، وانظر أنت في حديثه وإلى مخارج لفظه وإلى لحن قوله(*) وإلى طريقته وطبيعته وإلى خُلقه وخليقته وإلى تصرُّفه وتصمُّنه وإلى توقُّفه وتهوُّره ، وتأمّل مقدار جزعه من قلة اكتراثك وانظر إلى غضبه فيك ولك،وإلى انصرافه عمّن انصرف عنك وميله إلى من مال إليك،وإلى تسلمه من الشّر وتعرُّضه له،وإلى مُداهنته وكشف قناعه . بل لا يقضي له بجماع ذلك ما كان ذلك في أيّام دولتك ومع إقبالٍ من أمرك ، وإن طالت الأيّام وكثرت الشهود حتى تنتظم الحالات وتستوي فيه الأزمان . نعم ثم لا تحكم له بذلك حتى تكون حاله مقصورة على محبتك ومحنوة على نصيحتك بالعِلل التي توجب الأفعال، والأسباب التي تسخر القلوب للمودّات ، كالعلل الثابتة في الصنيعة والأسباب الموجودة مع مولى العَتاقَة. فإنّ عللهما خلاف علل مولى الكلالة ، وخلاف علل الصديق الذي لم يزل يرى أنه مثلك وأنه يستوجب منك استيجابك ، ولا سيّما إذا كانت الصنيعة أنت ابتدأتَها وأنت أبو عُذرتها . فإن أنت لم تحكم له بالغاية مع اجتماع هذه العلل فيه ومع توافيها إليه ، ولم تقض له بأقصى النهاية مع ترادُف هذه الأسباب وتكامُل هذه الدلائل وتعاوُن هذه البرهانات ، فكل خبرٍ بيِّنة زور وكل دلالة فاسدة . وقد قال الأول : دلائل الأمور أشدُّ تثبيتاً من شهادات الرجال . إلّا أن يكون في الخبر دليل ومع الشهادة برهان ؛ لأن الدليل لا يكذب ولا ينافق ولا يزيد ولا يبدل ، وشهادة الإنسان لا تمتنع من ذلك

---

(١) شطر ب : سطو ـ (٢) فأما ب ـ < ولا تلتفت لفتة > ب ـ (٣ ـ ٤) [ولا تحكم . . . وامق] ب ـ وفي لحن ب ـ (٦) وتصمميه ـ

وليس معها أمان من فساد ، ما كان الإمكان قائماً .

وبعد ، متى صار اختيار النخل على الزرع يُحقد الإخوان؟ ومتى صار تفضيل الحَبّ وتقريظ الثمر يورث الهجران؟، ومتى تميّزوا هذا التمييز وتهالكوا هذا التهالُك؟ ومتى صار تقديم النَخلة مِلّةً وتفضيل السنبلة نِحلةً ؟ ومتى صار الحكم للنعجة نَسَباً وللكرمة صهراً ومتى تكون فيها دِيانة وتستحكم فيها بصيرة وتحدث عنها حَمِيّة؟.

وقد كنا نعجب من حرب البسوس في ضرع نابٍ* ومن حرب بُعاث في مِخرف تمرٍ ومن حرب غطفان في سبق دابّة ، فجئتنا أنت بنوعٍ من العجب أبطلَ كلَّ عجب وآنَسَنا بكل غريب وحسَّن عندنا كل قبيح وقرّب عندنا كل بعيد . فإن جهلتُ ـ أعزّك الله ـ غضبك فمثلي جهل ما لا علة له ، وإن عجزتُ عن احتمال عقابك فمِثلي ضجّ مما لا يُطيق حملَه ، ولا عارَ على جازع إلاّ فيما يمكن في مثله الصبر، ولا لومَ على جاهل فيما لا ينجح في مثله الفكر . وليس هذا أوّل شَرَكٍ نصبتَه ولا أوّل كيدٍ *أرَغتَه ، ولا هي بأوّل زُبيَةٍ غطّيتَها وسترتَها وحيلةٍ أكمنتَها وربصتها . وقد كانت التقيّة والاقتصاد أسلم ، بل كان العفو أرحم والتغافل أكرم . ولا خير في

---

(٤) نحلة ، صححنا : محنة ᴰ ـ (٥) وحتى ᴰ ـ (١٣) ارعتة ᴰ ـ

---

(٧) الناب هي الناقة المسنة ، يعني بها ناقة البسوس بنت منقذ التميمية ، خالة جاس بن مرة ، وكانت نازلته في جواره ، فقتل كليب هذه الناقة ، فثارت الحرب بسبب ذلك بين بكر وتغلب ، ودامت أمداً طويلاً .

بعاث موضع بالمدينة ، تنسب إليه الحرب التي نشبت في الجاهلية بين الأوس والخزرج ، والتي يمكن مراجعة بعض وقائعها في الأغاني ١٧ : ١١٨ وما بعدها . أما المخرف فهو ما يخترف فيه من أطايب الثمر .

حرب غطفان : يعني بها الحرب بين عبس وذبيان ، بسبب بعض أحداث السباق بين داحس والغبراء ، وكانت من أطول حروب العرب .

عقوبةٍ تُشمِت العدوَّ القادم ويُنادي بها العدوُّ الحادث، والأناة أبلغ من الحزم وأبعد من الذمّ وأحمد مغبّةً وأبعد من خُرْق العجلة. وقد قال الأول: عليك بالأناة فإنك على إيقاع ما أنت مُوقِعُه أقدر منك على ردِّ ما قد أوقعتَه. *وقد أخطأ من قال:

قد يُدرِكُ المتأنّي بعضَ حاجته وقد يكونُ مع المستعجل الزَّلَلُ

بل لو قال: والمتأني بدرِكِ حاجاتِهِ أحقّ والمستعجل *بفَوتِ حاجاتِهِ أخلق، لكان قد وفّى المعنى حقّه وأعطى اللفظ حظّه، *و < إن > كان القولُ الأوّل موزوناً والثاني منثوراً. ولولا أنه اشتقّ المستعجلَ من العَجَلة لما قَرَنه بالمتأنّي، وينبغي أن يكونَ الذي غلّطه قولُهم: رُبَّ عجلةٍ تَهبُ رَيْثاً، فجعلَ الكلام الذي خرج جواباً عندما يعرضُ من السبب كالكلام الذي خرج ارتجالاً، وجعله صاحبُه مَثَلاً عامًّا. فإذا سمّيتَ العمل عجلةً ورَيْثا فأقض على الريث بكثرة الفوت وبقدر ذلك مِن العجز، وعلى العجلة بقلّة النُجح وبقدر ذلك مِن الخُرق. والريثُ والأناة في بلوغ الأمل *وإدراك النعمة كانتهاز الفرصة واهتبال الغِرّة، *والأناة وإن طالت* وانتهاز الفرصة وإن كان في غاية السرعة، فليس من جنس العجلة. (*)ورُبَّتَ كلمةٍ لا توضعَ إلاّ على معناها الذي جُعلت حظّه وصارت هي حقّه *والدّالة هي *عليه دون غيره، *كالحزم والعلم والحلم* والرفق والأناة والمدارة والقصد والعدل والانتهاز* والاهتبال وكاليأس والأمن وكالخُرق والعجلة والمداهنة

(٤) فقد ﻫ - (٦) لفوت ﻫ - (٧) وكان ﻫ - (١٤) ودراك ﻫ - (١٤) والهناة ﻫ - لهله سقط بعد «وإن طالت»: < فليست من جنس الريث > - (١٦) والدالة [هي] عليه م - كالعزم والحلم والعلم م - (١٨) والابتهال م -

(*-*) (١١-ص ٧١، ٦) وربت كلمته ... ونبل صوابه: رواية م ٤.

والتسرُّع والغلوّ والتقصير . *ورُبَّتَ كلمةٍ تدور مع *خُلّتها وتتقلّب مع *جارتها وبإرادة *صاحبتها وعلى قدر ما تقابل من الحالات وتلاقي من الأسباب ، كالحُبّ والبُغض والغضب والرِضا والعزم *والإرادة والإقبال والإدبار والجِدّ *والفتور ، لأنّ هذا الباب الأخير يكون في الخير والشرّ ويكون محموداً ويكون مذموماً . وصاحب العجلة ـ *أعزّك الله ـ صاحب تغرير ومخاطرة : *إن ظفر لم يحمده *عالمٌ وإن لم يظفر قطعته الملاوِمُ .

والريث أخو المَعجزة ومقرونٌ بالحَسرة وعلى مَدرَجة اللائمة . وصاحب الأناة *إن ظفر نفع غيره بالغُنم ونفع نفسه بثمرة العلم ، *وطاب ذكره ودام شكره وحُفظ فيه ولدُه ، وإن حُرِم فمبسوطٌ عُذرُه ومُصوَّبٌ رأيه ، مع انتفاعه بعلمه وما يجدُ من عِزّ حَزمه *ونبل صوابه(*) ، ومع علمه بالذي له عند العقلاء وبعذره عند الأولياء والأعداء .

وما عندي لك إلاّ ما قال الدِهقان لأسَد بن عبدالله ـ وهو على خُراسان ـ حين مرّ به وهو يُدهق في حبسه : « إن كنتَ تُعطي مَن ترحم فأرحم مَن تظلـم . إنّ السموات تنفرج لدعوة المظلوم ، فاْحذر مَن ليس له ناصر إلاّ الله ، ولا جُنّة إلاّ الثِقة بِنزول التغيُّر ، ولا سلاحَ إلاّ الابتهال إلى مولًى لا يعجزه شيءٌ . يا أسَدُ إنّ البغي يصرع أهله ، وإنّ الظُلم مصرعَةٌ

(١) ورب م ـ (١) مع واصلتها م ـ جاراتها ـ صاحبها م ـ (٣) والإرادة ، كذا م ـ والفتوة (٥) أبقاك الله م ـ (٦) وان ظفر ⅁ ـ عاقل م ـ (٨) وان ظفر ⅁ ـ واطاب ذكره دوام شكره ⅁ ـ (١٠) وقبل صوابه ⅁ ـ

(*) أسد بن عبدالله القسري البجلي ، امير خراسان ، منذ سنة ١٠٨ إلى أن توفي سنة ١٢٠ ، حين كان أخوه خالد أمير العراقين ، وبجدد بناء مدينة بلخ التي اتخذها مقراً له ولجنده ، والمنتصر على الأتراك حين أغاروا على خراسان . فأما الدهقان فيطلق على رئيس أهل القرية المسؤول عنها .

وَخيمٌ ، فلا تغترّ بإبطاءِ العِقابِ من ناصرٍ متى شاء أن يُغيث أغاثَ ، وقد أملى لقومٍ كي يزدادوا إثماً . وجميعُ أهل السعادة إمّا سالمٌ من ذَنبٍ وإمّا تاركٌ الإصرار . ومَن رَغب عن التمادِي فقد نال أحدَ الغُنمَين ، ومَن خرجَ من السعادة فلا غاية له إلاّ دار *الشِقْوَة . وسَواءٌ ـ جُعِلتُ فِداكَ ـ ظلمتَ بالبطش والغَشم أو ظلمتَ بالدَحسِ *والدسّ ، فشاوِر لُبَّك ، وناظِر حَزمك ، وقِف قبل الوثبة ، وآحذر زَلّة العالم . وقد قال صاحبكم : مَن استشار الملالة وقلّد طبيعتَه الاستطراف وجعل الخطرةَ ذنباً والذنب ذنوباً ومقدارَ الطرفة إصراراً والصغيرَ كبيراً والقليل كثيراً ، *عاقب على المتروك الذي لا يُعبأ به ويلغَ بالبطش إلى حيثُ لا بقيَّةَ معه ، ورأى أنّ القطيعة التي لا صِلة معها والتخليج الذي لا تَجمُّل معه الحزمُ المحمود ، وأنّ الاعتزام في كل موضع هو الرأي الأصيل». وقال أيضاً : (*)«مَن(*) كانت طبيعته مأمونةً عليه عند نفسه ، وكان هواه رائدَهُ الذي لا يكذبه والمتأمّر عليه دون *عقله ، *ولم يتوكّل لما يهواه على ما لا يهواه* ، ولم ينصر تالدَ الإخوان على الطارف ، ولم يُنصف *المملول المبْعَد من المستطرف *المُقرَّب ، ولم يَخفْ أن *تجتذبه العادةُ وتتحكم عليه الطبيعة ، فليرسم حُجَجهما ويُصوّرهما في كتابٍ *مقروء أو لفظٍ مسموع ، ثم يعرضهما على جهابذة المعاني وأطبّاء أدواء العقول ، على ألاّ يختارَ *إلاّ مَن لا يدري أيَّ النوعين يبغي *وعلى أيّهما يُحامي ، وأيّهما داؤُهُ* . فإن لم يستعمل ذلك ، *بما

(٤) الشقوة ، صححنا : الندوة ـ (٥) لعل الصواب : الدعس ـ (٨) وعاقب د ـ (١١) ومن كانت م ـ (١٣) حقه م ـ ولم يتوكل لما يهواه د ، ولم يتوكل لما لا يهواه على ما يهواه م ـ (١٤) المملول : المملوك د م ـ (١٤) والمقرن م ـ (١٥) تجذبه م ـ (١٦) مقروء صححنا : مفرد د ، مقرر م ، (١٧ ـ ١٨) إلا من [لا] يدري أي النوعين يتقي و[على] أيهما يحامي وأيهما يداوه وأيهما دواؤه م ـ وعلى ، لعل الصواب : وعن ـ

(*ـ*) (٦ ـ ص ٧٣ ، ٧) ومن كانت ... في الضعف قوة : رواية م ٥ .

فضل له مِن سُكر سُوء العادة* ، لم يزل متورّطاً في الخطأ مغموراً * بالذمّ».

سمعتُك وأنت تريدني وكأنّك تريد غيري ، *أو كأنك تُشير عليّ من غير أن *تَنُصّني ، وتقول : إنّي لأعجب ممّن ترك دفاتر عملِه متفرّقةً *مبثوثةً وكراريسَ درسِه غير مجموعة ولا منظومة ، كيف يعرضها للتخرّم وكيف لا يمنعها من *التفرُّق ، وعلى أنّ الدفتر إذا انقطعت جِزّامته وانحلَّ *شِداده وتخرّمت رُبُطه ولم يكن دونه وِقاية* ولا جُنّة تفرّق ورقه ، *وإذا تفرّقَ ورقه *اشتدّ جمعُه وعسر نَظمُه وامتنع تأليفه ، *وربما ضاع أكثره . والدَفّتان أجمع وضمُّ الجلود* لها أصوَنُ *والحَزم لها أصلح . وينبغي للأشكال أن *تنظم وللأشباه أن تؤلَّف ، فإن التأليف يزيد الأجزاء الحسنة حُسناً والاجتماع يحدث للمتساوي في الضعف قوةً(*) . فإذا فعلتَ ذلك صِرتَ متى وجدت بعضها فقد وجدت كلها ، ومتى رأيت أدناها فقد رأيت أقصاها ، فإن نشطت لقراءة جميعها مضيت فيها . وإذا كانت منظومةً ومعروفة المواضع معلومةً ، لم تحتج إلى تقليب القماطر على كثرتها ولا تفتيش الصناديق مع تفاوُت مواضعها ، وخَفَّت عليك مؤونتها وقلّت فكرتك فيها ، وصرفتَ تلك العناية إلى بعض أمرك وادَّخرتَ تلك القوة لنوائب غيرك . وعلى أنّ ذلك أدلُّ على حُبّك للعلم واصطناعك للكتب ، وعلى حُسن السياسة والتقدُّم في إحكام الصناعة . وقلتَ : لأمرٍ ما جمعوا أسباع القرآن وسُوَرَه في مُصحفٍ ، ولم يدَعوا ما فيه مُفرَّقاً في الصدور ولا مُبَدَّداً في الدفاتر ومفرَّقاً في القماطر ، على ذلك أجمعَ المسلمون والسابقون الأوّلون والأئمة الرشيدة والجماعة المحمودة ، فتوارثه خَلَفٌ عن سَلَفٍ

(١) [بما فضل . . العادة] م ـ بالذنب م ـ (٢) أو كانك م : وكأنك ه ـ (٣) تنصى ه م ـ [مبثوثة] م ـ (٥) التحرق م ـ سداده م ـ (٦) ولا < دونه > جنة م ـ و [إذا تفرق ورقه] (٧) اشتد م ـ و[ربما] ضاع م ـ (٨) إليها أصون ـ والخرز ـ (٩) تنظم < وللدفتان] ـ

وتابعٌ عن سابق وصغيرٌ عن كبير وحديثٌ عن قديم . ولم أشكّ في أنها نصيحةُ حازمٍ ومشورةُ وامقٍ ، أو رأيٌ حَضَرَ أو حكمةٌ نَبَغَت ،أو صدرٌ جاشَ فلم يُملك ، أو علمٌ فاض فلم يُرَدّ ، استعمله مَن استعمله وتركه مَن تركه . فلمّا أخذتُ بقولك وصرتُ إلى مشورتك ، وأكثرتُ حمدَ الله على إفادتك من العلم وحظّ *عِنايتك من النقل ، وجمعتُ البعضَ إلى البعض والشِكل إلى الشِكل ، وتقدّمتُ في استجادَة الجلود وفي تمييز الصُنّاع وفي تخيُّر الساعات ، وغَرِمتُ المالَ وشَغلتُ البالَ ، وجعلتُها مُصحفاً مُصحفاً وأجملتُها صِنفاً صِنفاً ، ورأيتُ أنّي قد أحكمتُ شأني وجمعتُ إليّ أقطاري ، ورأيتُ أنْ أنظرَ فيها وأنا مستلقٍ ولا أنظرَ فيها وأنا مُنتصِب ، استظهاراً على تعب البدن ، إذ كانت الأسافلُ مُثقَلةً بالأعالي ، وإذ كان الانتصابُ يُسرِع في إدخال الوَهَن على الأصلاب ، ولأنَّ ذلك أبقى على نُور البصر وأصلحُ لقوّة الناظر ، *إذا كلّ واحد من هذه المصاحِف قد أعجز يدي بثِقَل جِرمه وضيَّق صدري بجفاء حَجمه ، وإذا ثَقُل أنكأ الصدرَ وأوهنَ العَظمَ . وإذا أنا إن نظرتُ فيها وأنا جالسٌ سَدِرَت عيني وتقوّس ظهري وآجتمع الدمُ في وجهي وأكرهتُ بصري على غير جهته وأجريتُ شُعاع ناظري في غير مُجراه . وقد علمتَ ـ أبقاك الله ـ مع خِبرتِك بمصالح الأمور ومواقِع المنافع والمضارّ ، ثم بمصالح العباد والبلاد ، أنّ من كان على مَقطع جبلٍ أو على شُرُفات قصرٍ ، فأراد رُؤ ية السماء على بُعدها وجد ذلك على العين سهلاً خفيفاً ، وإن أراد أن يرى الأرض على قُربها وجد ذلك على العين عِبأً ثقيلاً . فإن بَدا لي أن يقابلَ عيني به العبدُ أو تواجِهَني به الأَمَةُ كلّفتُ أخرقَ الناس كَفّاً وأقلَّهم وَفقاً وأكثرهم آلتفاتاً وأحضرهم نُعاساً وأقلهم على حالٍ واحدةٍ ثباتاً وأجهلَهم بمقدار الموافَقة ولمقادير المقابلة وبحظّ

(٥) عناية D – (١٢) إذا ، صححنا : إذ .

اليد *ورفْعها وإمالتها ونَصبِها ، ثم رأيتُ في تضجُّرهم وتكرُّههم وفرارهم منه ما صيّر تجشُّمي لثِقَل وزنه، ومقاساتي لجِفاء حَجمه، أهونَ على يدي وأخفَّ على قلبي . فإن تعاطيتُه عند ذلك بنفسي فشقاةٌ حاضرٌ، وإن ألزمته غيري فغَيظٌ قاتلٌ ، وحتى صارت الحال فيها داعيةً إلى ترك درسها والمُعَاودةِ لقراءتها ، مع ما كان فيها من الفائدة الحسنة والمنافع الجامعة ، ومِن شَحذِ الطبيعة وتمكين حُسن العادة . ولو لم يكن في ذلك إلاّ الشُغل عن خَوض الخائضين والبُعد عن لهو اللاهين ، ومن الغِيبة للناس والتمنّي لِما في أيديهم ، لقد كان نفع ذلك كثيراً وموقعه من الدين والفرض عظيماً . ومتى ثقل الدرس تثاقلَت النفس وتقاعسَت الطبيعة ، ومتى دام الاستثقال أحدث الهِجران ، وإذا تطاوَل الكَدّ رسخ الزُهد ، وفي ترك النظر عَمَي البصر ، وفي إهمال الطبيعة كلالُ حدّ الطبيعة ، وعلى قدر الحاجات تكون الخواطر ، كما أنه على قدر غريزة العقل تصحّ *الجوانح وتسقم ، وعلى قدر كثرة الحاجة تتحرّك الجارحة ويتصرّف اللسان ، ومع قِلّة الحركة وبُعد العهد بالتصرُّف يحدث العيّ ويظهر العجز ويُبطىء الخاطر ، ومع ذهاب *البيان يفسد البرهان ، وفي فساد البرهان هلاك الدنيا وفساد الدين .

فقد بلغتَ ما أردتَ ونلتَ ما حاولتَ ، فحسبك الآن مِن شجٍّ مَن يأسوك ومِن قَتل من يُقتَل فيك .

(*)جُعلتُ فِداك ، *إنه ليس *يَومى منك *بواحِدٍ وأنا *على عقابك

---

(١) فدفعها ⊃ - (١٢) لعلها : الجوارح - (١٥) البيان ، صححنا : البرهان - (١٨) [أنه] ب - بُومي ؟ - واحدا ب - في عقابك واحد ب -

---

« ما يومي منك بواحد » قال أبو منصور الثعالبي في المضاف والمنسوب : قال ابو بكر الخوارزمي : فيما يقولون ، ما يومي من فلان بواحد ، أي ما الشر آت منه من جهة واحدة . وانظر في هذا أمثال الميداني ٢ : ١٩٢ .

أوحدُ ، وليس يُنجيني منك مَعقلٌ وَعلٍ ولا *مغارةُ سَبُعٍ ، ولا قعرُ بحرٍ ولا راسُ طَرِدٍ ، * < ولا سَنىٌ > ولا *دَغَلٌ ، ولا *دخلٌ ولا نَفَقٌ ، ولا *مغارةُ ولا مَطمورة . وليس يُنجيني منك إلاّ مفازة المهلّب ، فإن أعرتَني قلبَه وعلّمتَني حيلتَه وأمكنتني من سِكّينه ، وإلاّ فانا أوّل مَن ابتلعتَه تلك الحيّةُ .

(*)ولا والله *إنْ بي قوة على الثُعبان فكيف التِنّين ، * < ولا على القُرَة فكيف الأُصَلَة > . أعفِني من حيّة المهلّب ثم آقتلني أيّ قتلةٍ شِئتَ . إن احترستُ منك ألفيتُ لنفسي كدًّا شديداً وغمًّا طويلاً ، وطال اغترابي *وافتراق الألْفي ، وتعرّضتُ للعدوّ وتحرّشتُ *بالسباع ، *وإن استرسلتُ إليك لم تَرَ أن تقتلني إلاّ شرَّ قتلةٍ *وآلَمها ولم تُعذِّبني إلاّ بأشدّ النَقِم وأطولها ، ولو أردتَ *ذَبحي لاخترتَ *الكليل على المُرهَف *والتطويل على التذفيف ، حتى كأني *علّمت عليك *شاه مات أو أكلتُ *سَبعةً وأطعمتُك واحدةً .

ولقد تقدّمتَ في المكر واستظهرتَ عليّ في لكيد ، حتى تَولّيتَ ذلك في صِغار كتبي وفيما لا تحفل به من دوام أمري ، وعلمتَ أنّ الدرس للّيل وأنّ *الا . . . . للنهار ، وأنّ الكتاب لا يُقرأ ليلاً إلاّ والنيران زاهرة

---

(١) مغار ب ـ (٢) < ولا سني > : كذا في ب فقط ويظهر أنه محرف ـ وعل (= وغل) ب ـ ولا وحل < ولا لثق > ولا نفق ب ـ مغار ب ـ (٥) أرى قوة ب ـ (٥ ـ ٦) < . . . > : كذا في ب فقط ـ (٨) وفراقي ب ـ للسباع ب ـ وإن ب : فان ـ (٩) وألأمها ب ـ (١٠) [ذبحي] ب ـ الكليل المرتدف ب ـ والطويل على الدقيق ب ـ (١١) عملت ب ـ شافعان ب ـ عشرة ب ، ولعل الصواب : تسعة ـ

(*) (٥ ـ ١٢) ولا والله . . . واحدة : رواية ب ١٢ .

والمصابيح مُقرَّبة ، وعلمتَ أنّ كلَّ من ضعف بصرُه وكَلّ نظرُه ، فإنه أبداً أقربُ مصباحاً وأعظمُ ناراً ، *وأنّ المحرور المحترق والممرور الملتهب واليابس المتهافت ، إذا كان صاحب كتبٍ ودرسٍ *فإنه لا يجد بُدًّا من الصبر على ما يُحرّقه ويعمّيه ، *أو الترك للقراءة فيها والتعرُّض لها ، فخيَّرتَني بين العَمَى والجهل ، وما فيهما حظٌّ لمختارٍ .

وقلتَ : إذا *سَخن بدنُهُ سُجِن بوله ، وإذا سُجن بوله جَرح مثانَتَه وأحرق كُلْيَتَه وطبخ فضول غذائه وجفّف ما فضل عن استمرائه ، فأحاله *حَصاً قاتلاً وصَخراً جامداً ، وهو دقيق القضيب ضيِّق الإحليل ، *فإذَا حَصاهُ يورثه الأسر ، وفي ذلك الأسر تلفُ النفس أو غاية التعذيب . وقلتَ : فإن ابتليتُ بطولِ عمره أقام فينا مشغولاً بنفسه ، وإن ذهب عنّا فقد كفانا مؤونة الحيلة في أمره .

جُعلت فِداك ، ما هذا الاستقصاء وما هذا البلاء؟ وما هذا التتبُّع لغوامض المسألة والتعرُّض لدقائق المكروه؟ وما هذا التغلغل في كل شيء يُخمِل ذِكري؟ وما هذا الترقِّي إلى كل ما يَحُطّ من قدري؟ ، وما عليك أن تكون كتبي كلها من *الورق الصينيّ ومن الكاغد الخُراسانيّ؟ . قُل لي لِمَ زيَّنتَ النَسخَ في الجلود ولِمَ حثثتَني على الأَدَم ، وأنت تعلم أنّ الجلود جافية الحجم ثقيلة الوزن ، إن أصابها الماء بطلَت وإن كان يومٌ لَثِقٍ استَرخَت ، ولو لم يكن فيها إلاّ أنها تُبغِّض إلى أربابها نزولَ الغيث وتُكرِّه

(١) بياض كلمة أو كلمتين في الأصل ، وعلى الهامش : حراو به (؟) ، ولعل الصواب : « وأن الاعراض عنه » أو ما يشبهه - (٢) فان ك - (٣) انه ك - (٤) والترك ك - (٧) سجن ك - (٩) جصا ك - (٩) فارى خصاه ك - (١٦) ورق الصيني ك -

(١) الورق الصيني ، الكاغد الخراساني ، الجلود .

إلى مالكيها الحَيَا لكان في ذلك ما كفى ومنع منها ، *وقد علمتَ أنّ الورّاق لا يخطّ في تلك الأيّام سطراً ولا يقطع فيها جِلداً . وإن نَدِيتَ فضلاً *عن أن تُمطَر وفضلاً عن أن تغرق ، استرسلت وامتدّت ، ومتى جفّت لم تَعُدْ إلى حالها إلاّ مع تقبُّضٍ شديد وتشنُّجٍ قبيح . وهي أنتن ريحاً وأكثر ثمناً وأحمل للغِشّ : يُغَشّ الكوفيُّ بالواسطيّ والواسطيّ بالبصريّ ، وتعتّق لكي يذهب ريحها وينجابَ شَعرها ، وهي أكثر عُقَداً وعُجَراً وأكثر خَباطاً وأسقاطاً ، والصُفرة إليها أسرع وسرعة انسحاق الخطّ فيها أعمُّ . ولو أراد صاحبُ علمٍ أن يحملَ منها قدرَ ما يكفيه في سَفَره لما كفاه حِملُ بعيرٍ ، ولو أراد مثلَ ذلك من القُطنيّ لكفاه ما يحملُ مع زاده . وقلتَ لي : عليك بها فإنها أحمل للحكّ والتغيير ، *وأبقى على تعاوُر العارية وعلى تقليب الأيدي ، ولِرَدِيدِها ثمنٌ ولِطِرْسها مرجوعٌ ، والمُعاد منها ينوب عن الجُدُد . وليس لِدفاتر القُطنيّ أثمانٌ في السوق وإن كان فيها كلُّ حديثٍ طريف ولطفٍ مليح وعِلمٍ نفيس ، ولو عرضتَ عليهم عِدلَها في عَدَد الورق جلوداً ، ثم كان فيها كلّ شِعرٍ بارد وكلّ حديث غَثٍّ ، لكانت أثمن ولكانوا عليها أسرع . وقلت : وعلى الجلود يُعتمدُ في حساب الدواوين وفي الصِكاك والعهود وفي الشروط وصُوَر العَقارات ، وفيها تكون نموذجات النقوش ومنها تكون خرائط البُرد ، وهنّ أصلح للجُرُب ولِعفاص الجَرّة وسِداد القارورة . وزعمتَ أن الأَرَضة إلى الكاغد أسرع ، وأنكرت أن تكون الفارة إلى الجلود أسرع ، بل زعمتَ أنّها إلى الكاغد أسرع وله أفسد ، فكنتَ سببَ المضرّة في اتّخاذ الجلود والاستبدالِ بالكاغد ، وكنتَ سبب البليّة في تحويل الدفاتر الخِفاف في المحملِ إلى المصاحف التي

(١) قد ف - (٣) على أن ف (مرتين) - (١٠) وأبقاه ف

تُثقل الأيدي وتَحطِم الصدور وتقوّس الظهور وتعمي الأبصار . وقد كانَ في الواجب أن يدَعَ الناسُ اسمَ المُصحفِ للشيء الذي جَمَع القرآن دون كلِّ مجلَّد ، وألاّ يروموا جمع شيء من أبواب التعلم بين الدَفَّتين فيُلحقوا بما جعله السلفُ للقرآن غيرَ ذلك من العلوم .

دَع عنك كلَّ شيء . ما كان عليك أن يكون لي ولدٌ يُحيِي ذكري ويَحوي ميراثي ، ولا أخرجُ من الدنيا بحسرتي ، ولا يأكله مُراءٍ يرصُدني وابن عمّ يحسدني ، *ولا يرتَعُ فيه المُعَدِّلون في زمان السوء ، *ولا تُصطنع فيه الرجال ويقضي به الذِمام ، فقد رأيتَ صنيعهم في مال المفقود *والمناعة والوارث الضعيف ومن مات بغير وصيّة .

جُعلتُ فِداك ، إنّ النفوس لا تجود لمولى الكلالة بما تجود به لأولاد الأصلاب وما مسّ تلك الأصلاب ، لأنّ الرحمَ الماسّة والقرابة الملتصقة واللُحمة الملتحمة وإن أمّلت التَركة ونازعت إلى *الوِرْث فمعها ما يَأطُرها *ويثنيها ويحزُنها ويُبكيها *ويحرّك دمَها ويَستغزر دمعها . وقد يَشفع للولد إلى أبيه *حال أبيّه كانت من أبيه وابن العمّ الذي ليس بالبعيد *فيحتك من حسده وليس بالقريب المحنوّ على رحمه . *وسببه الجاذب له إلى تمنّي مماتي أمتن من سببه إلى تمني بقائي ، فهو إلى الحال الموجِبة للقَسْوة والغلظة أقرب منه إلى الحال الموجبة للرِقّة والعطف ، وليس ينصُرك إذا

ـ (٧) ولا يرقع ع ـ ولا يصطنع فيه الرحال ع ـ (٩) والضاعة ، لعل الصواب : و < مولى > النباعة ـ (١٢) المورث ع ـ (١٣) ويثبتها ع ـ ويحول ع ـ (١٤) كذا في ع وظاهر انه محرف لعل الصواب : فيفتك ـ (١٥) وسبب الجاذب محرف ـ لعل الصواب :

(*) نقل صاحب اللسان عن المنذري حكايته قول أبي عبيدة : الكلالة كل من لم يرثه ولد أو أب او اخ ونحو ذلك .

نصرك ولا يُحامي عليك لقرابته منك ، ولكن لعلمه بأنه متى خذلك حلّ به ضَعفُك وآجترأ بعد ضَعفِك عليه عَدوُّه ، فهو يريد بنصره مَن لا يجب عليه شكره ، ويُقوِّي ضعفَ غيره بدفع الضعف عن نفسه .

جُعلت فِداك ، ما كان عليك من بُنَيٍّ صغيرٍ يكون لي ، ولا سيَّما ولستُ عندك ممَّن يُدرَك كسبه أو تبلغ نصرته أو يُعايَن برُّه أو يؤمَّل إمتاعه . وما كان عليك مع كِبَر سِنّي وضَعف ركني أن يكون لي ريحانةٌ أشمها وثمرةٌ أضمها ، وأن أجد إلى الأماني به سبباً وإلى التلهّي سُلّماً ، وأن تكثر لي من جنس سرور الحالم وبقدر ما يُمتع به راجي السراب اللامع ، حتى حبَّبتَ قِصرَ عمري إلى وليّي وشوَّقتَه إلى ابن عمّي ، وحتّى زدتَ فيما عِنده مع كثرة ما عنده ، وحتى صيَّرني حُبُّه لموتي إلى حبِّ موته وتأميلُ مالي * < إلى > تأميل فقره ، وحتى شَغلتني *عمَّن كان يشغلُ عدوِّي عنّي . وسواءٌ أعِبتَ عليَّ أن لا يكونَ لي ولد قبل أن يكون ، أو عِبتَ عليَّ أن لا يكون بعد أن كان ـ فإنما يعذِّب الله على النيّة والقصد وعلى التوخّي والعمد ـ *كما أنه سواءٌ أن تحتال في ألّا يكونَ لي مالٌ قبل أن أملكه أو احتلتَ في ألّا يكون بعد أن ملكتُه . وكنتُ لا أدري ما كان وجهُ حُبِّك لإعناتي وللتشييد بذكر تُراثي والتنويهِ باسمي ، ولا لِمَ زهَّدتني في طلب الولد ورغَّبتني في سِيرة الرُهبان ، فإذا أنتَ لم ترفع ذكري في الأغنياء إلّا لتعرُّض ذنبي للفقراء ، ولم تُكثر مالي إلّا لتقوِّي العلّة في قتلي ، فيا لها مكيدةً ما أبعدَ غَوْرَها ويا لها حفرةً ما أبعدَ قعرَها ، (*)لقد جمع هذا التدبيرُ لطافةَ الشخص *ودِقة المسلك وبُعدَ الغاية* .

ـ (١٠) < إلى > سقط من د ـ (١٣) وكما د ـ (١٩) وبعد الغور ودقة المسلك ب ـ

(*) (١٨ ـ ص ٨٢ ، ٤) لقد جمع ... تعاشر : رواية ب ١٣ .

والله لو دبَّرها الإسكندر على دارا بن دارا ، وآستخرجها المهلَّب على سفيان ابن الأبرد ، *وفتحت على هرثمة في مكيدة خازم بن خزيمة ، *ولو دبّرها لُقَيمُ *بنُ لقمان على لقمانَ بن عادٍ ، *ولو أذاعها قيس بن زُهَير على *حِصن بن حُذَيفة ، *ولو تَوَجَّهت لكُهّان بني أسد على دُهاة قريش ، *لقد كان ذلك من تدبيرهم *نادراً < بديعاً > ولكان في مكايدهم شاذًا غريباً* ، وإنها لتَرتفع عن قَصير في كيد الزَّبّاء *وعن جذيمة في *مشاورة قصير ، *وما إخالها إلاَّ وتَدِقُّ *على ابن العاص وتُغمضُ على ابن هندٍ ويكلُّ عنها أخو ثقيفٍ ويستسلم لها إبنُ سُمَيَّة . هذا والله التدبيرُ ، لا مخاريق العرّاف *وتزاوير *الكاهن وتهاويل *الحاوي ، ولا ما *ينتجها صاحبُ الزَّرق (؟)* ، بل تضلّ فيها رُقَى الهند وتقربها سَحَرة بابل .

*فلو كنتَ ـ *إذ أردتَ ما أردتَ وحاولتَ ما حاولتَ ـ رفعتَ قبل كلّ شيءِ المؤانسة ، *ثم ابيتَ المؤاكلة ، ثم قطعتَ البِرّ ، ثم أذنت مع العامّة* ، ثم أعملتَ الحِرمان ، ثم صرَّحتَ بالجفوة ، ثم أمرتَ بالحجاب ، ثم صرمتَ الحبل ، *ثم عاديتَ واقتصدتَ ، ثم من بعد ذلك كلِّه أسرفتَ واعتديتَ* ، لكنتُ واحداً ممن يصبِر *أو يجزَع . فلعلّي كنتُ أعيش بالرِفق وأتبلَّغ بحُشاشة النفس وأعلِّل نفسي بالطمع الكاذب* . ولكنَّ فُجاءات الحوادث وبَغتات البلاء ، لا يقوم لها الحجرُ القاسي ولا الجبَل الراسي ، *فلم تدع غايةً في صَرفِ ما بين طبقات التعذيب إلاّ أتيتَ عليها

---

(٢) وفتحت ذ ، وفتحت ب ـ او دبرها ب ـ (٣) [ابن لقمان] ب ـ وأذاعها ب ـ حصين ب ـ (ذ(و [لو] توجهت ب ـ [لقد] ب ـ (٥) [بديعاً] ذ ، نادراً < بديعاً > وشاذا غريبا ب ـ (٦) وعن ب . عن ذ ـ مساورة ب ـ وتدق ب : ستدق ذ ـ (٩) وتزاويق ذ ـ (٩) الكهان ب ـ الحان ب ـ ينتجها صاحب الدين ب ، ينتحلها صاحب الري ذ ، ونرجح أن يكون الصواب « الزرق » أي الخدعة ـ (١١) ولو ب ـ إذ ، صححنا : إذا ذ ب ـ (١٢ ـ ١٣) [ثم ابيت . . . العامة] ب ـ (١٤ ـ ١٥) [ثم عاديت . . . واعتديت] ب ـ (١٥ ـ ١٦) [أو يجزع . . . الكاذب] ب ـ (١٨ ـ ص ٩٦ ـ ١) [فلم تدع . . . بلغتها] ب ـ

ولا فضول ما بين قواصِم الظهر إلّا بلغتَها* ، فقد مِتُّ الآن *فمع مَن تعيش ، < بل قد قتلتَني فمَن الآن تُعاشر ! > . كما قال ديوست المغنّي لكِسرى حين أمر بقتله لقتله تلميذه *بلهبذ : قتلت أنا بلهبذ وتقتلني ، فمن يُطربك ؟ قال : خَلُّوا سبيلَه فإنّ الذي بقي من عمره هو الذي أنطقه بهذه الحجَّة . ولكني أقول : قد قتلتني فمع من تعيش ؟ أمعَ الشطرنجيين ؟ فقد قال جالينوس : إياك والاستمتاع بشيء لا يعمُّ نفعُه .

(*) [*إنَّ الكلام إنّما صار أفضلَ من الصمت لأنّ نفع الصمت لا يكاد يعدو الصامتَ ونفع الكلام يعمُّ القائلَ والسامعَ والغائب والشاهِد والراهِن والغابر . قالوا : ومما يدلُّ *من فضلِ الكلام على الصمت *أنك بالكلام تُخبر عن الصمتِ وفضله ولا تخبرُ بالصمت عن فضل الكلام . ولو كان الصمتُ أفضلَ لكانت الرسالةُ صمتاً ولكان عدمُ القرآن أفضلَ من القرآن ، وقد فرّق بينهما رسولُ الله ﷺ وفصّل وميّز وحصّل حيث قال : رحِم الله أمرءاً قال خيراً فغنِمَ أو سكت فسلِمَ . فجعل حظَّ السكوت السلامة وحدّها ، وجعل حظَّ القول الجمعَ بين الغنيمة والسلامة ، وقد يَسلمَ من لا يغنم ولا يغنم إلّا من سَلِم] .

فأمّا الدوابّ فَمن يضع المركَبَ الكريم إلى الصاحب الكريم ، ومَن يعدِل إمتاعَ بهيمة بإمتاع أديب ؟ قالت آبنةُ النعمان . لم نر فيما جَرَّبْنا من جميع الأصناف أبلغَ في خيرٍ وشرٍّ من صاحبٍ . ولما عزم ابنُ زيادٍ على

(٢) فمن يعيش ب ـ < بل قد . . . تعاشر > ب ـ (٣) بلهند ه (مرتين) ـ (٧) إنما الكلام ه ـ (٩) لعل الصواب : على فضل ـ لأنك بالكلام ه ـ

(*) نرجح أن الفصل من سطر ٩ (إن الكلام) إلى سطر ١٥ (من سلم) ليس في مكانه ولعله مأخوذ من رسالة أخرى للجاحظ .

الحُقنة بعد أن كان تفحّشَها قال له حارثةُ بنُ بدر : ما أجد أولى بتولّي ذلك من الطبيب . قال عُبَيدالله : كلا ، فأين الصاحب !

(*)والله *لو نتجتَ في كل عام ألف *شَبدِيز *وقهرتَ في كل ليلة أربعة *آلاف زَبْرَبٍ *وصار لك كل *نهر المرك بدلاً من بعض بابك* ، وأكلتَ رأس الجنيد بن حاق الأشيم* *واحتلت بين الغر من إفراط الشبق* ، لما كان ينبغي لك *أن تُعاملنا بهذه المعاملة ولا كان ينبغي أن* *تقتلنا هذه القتلة . ولو اقتصرتَ *مِن العقوبة على شيء دون شيء *لكان أعدل ولو عفوتَ البتة*لكان أمثل(*) . إنّ الاعتزام على قليل العِقاب يدعو إلى كثيره ، ومبتدىء العِقاب بعرض لجاج ، وليس يُعاقِب إلّا غضبانُ ، والغضب يغلب العزم على قدر ما مكّن ويحيِّر اللُّبَّ بقدر ما سلط ، والغضب يُصوِّر لصاحبه مثلَ ما يصوّر السُكرُ لأهله ، والغضبانُ يشغَله الغضب ويغلي به الغيظ وتستفرغُه الحركة ويمتلىءُ بدَنه رِعدةً وتتزايلُ أخلاطُه وتنحلّ عُقَدُه ولا يعتريه من الخواطر إلّا ما يزيدُه في دائه ولا يسمع

---

(٣) الو نتجت د - شبديز ب : سبدين د - وقهرت د : وأحبلت ب - (٤) الف ب - (٤ - ٥) [وصار لك ... الاشيم] ب - (٤) نهر المرك ... بابك : كذا د ولم نوفق الى تصحيحه ، راجع ص ٨٠ ، ١٨ ؟ - (٥ - ٦) واحتلت ... الشبق د : واحتلت ابن الغر مع إفراط السبق ب ، وكلتا الروايتين ظاهرة التحريف - (٦) [أن تعاملنا ـــ ينبغي أن] ب - تقتلني ب - (٧ - ٨) مع < هذه > العقوبة ب - [لكان أعدل ... البتة] ب -

---

(*-*) (٦ - ١١) والله ... أمثل : رواية ب ١٤ .

حارثة بن بدر التميمي : من أصحاب زياد وابنه . مات في قتال الخوارج سنة ٦٤ .

شبديز : اسم فرس كان لكسرى ابرويز . انظر ما أورده ياقوت عنه حكاية عن مسعر بن المهلهل ، وعن أحمد بن محمد الهمذاني ، معجم البلدان ٥ : ٢٢٨ .

نهر المرك : هكذا . وليس يبعد أن يكون هو نهر نيرك الذي جاء في قصيدة للبحتري في مدح المتوكل ، إذ يقول :

فنهر نيرك ورد من مواردها وساحة التل مغنى من معانيها

زبرب : اسم ضاربة أيضاً . انظر الأغاني ١١ : ٣٣٧ .

من جليسه إلّا ما يكونُ مادَّةً لفساده ، وعلى أنه ربما استفرغ حتّى لا يَسمع واحترق حتى لا يفهم . ولولا أنّ الشيطانَ يريد ألّا يخلوَ من عمله ولا يقصِّر في عادته ، لما وَسْوَس إلى الغضبان ولا زيَّن له ولَمَا أغراه ولا فَتح عليه ، إذ كــان قــد كفــاه وبَلّغَ أقصى مُنــاه. وليس يُصــارع الغضبَ أيّام شبابه وغرب نابه شيءٌ إلّا صَرَعَه ولا يُنـازعه قبـل انتهائـه، وإدباره شيءٌ إلّا قَهَرَه، وإنما يُحتال له قبل هَيْجه ويُتوثّق منه قبل حركته ويُتَقَدَّم في حسم أسبابه وفي قطع عِلله. فـأمّا إذا تمكن واستفحل وأذكى ناره واشتعل، ثم لاقى ذلك من صاحبه قدرةً ومن أعوانه سَمعاً وطاعةً ، فلو سعطتَه بالتوراة ووجَرْتَه بالإنجيل ولددته بالزبور وأفرغت على رأسه القرآن إفراغاً وأتيتَه بآدم عليه السلام شفيعاً ، لما قصر دون أقصى قوّته ولتمنّى أن يعار أضعافَ قدرته . وقد جاء في الأثر : إنّ أقربَ ما يكونُ العبدُ مِن غضبِ الله إذا غضب . قال قتادة : ليس يُسَكِّن الغضبَ إلّا ذِكرُ غضبِ الرحمن عز وجل . وقال عمرو بن عُبيد : ذِكرُ غضبِ الربّ يمنعُ من الغضب . إلّا أن يريد الذكر باللسان ، ويسمّى المتوجد غضبانَ والذَكورُ حقوداً .

(*)فلا تقف ـ *حفظك الله ـ بعد مُضِيّك *في عقابي التماساً للعفو عنّي ، ولا تقصر *عن إفراطك من طريق الرحمة لي . ولكن قف وقفة مَن يتّهم الغضبَ على عقله والشيطانَ على دِينه ، *ويعلم أنّ للعقل خصوماً وللكرم أعداءً ، وأنّ من *النَّصَف أن تنتصف لعقلك من خصمه *وتنتصف

---

(١) كذا ه ، ولعلها : استغرق ـ (١٥) غضبانا ه ـ (١٦) جعلني الله فداك ب ـ [في عقابي] ب ـ (١٧) في إفراطك ب ـ (١٧) وتعلم ب ـ (١٩) النصفة ب ـ و [تنتصف] لكرمك ب ـ

(*ـ*) (١٥ـ ص ٨٥ ، ٦) فلا تقف ... المعاني : رواية ب ١٥ .

لكرمك من عدوّه ، وتُمسِيك إمساك مَن لا يُبَرِّىء نفسَه من الهوى *ولا يبرِّىء الهوى من الخطأ ، ولا تُنكر لنفسك أن تَزِلّ *ولعقلك أن يهفو ، فقد زلّ آدم *عليه السلام وهفا *وعصى ربَّه وغوى وغرّه عدوُّه وخدعه خصمهُ وعِيبَ بآختلال عزمه وسكون قلبه إلى خلاف *ثِقَته ، هذا وقد خلقه الله بيده وأسكنه في دار أمنه وأسجد له ملائكته ورفع فوق العالمين درجته وعلّمه جميع الأسماء بجميع المعاني(*) . ولا يجوز أن يعلّمه الاسم ويدع المعنى ، ويعلّمه الدلالة ولا يضَع له المدلول عليه . والاسمُ بلا معنًى لَغوٌ كالظَّرْف الخالي ، *والاسم في معنى الأبدان والمعاني في معنى الأرواح ، اللفظُ للمعنى بَدَن والمعنى للفظ رُوح . ولو أعطاه الأسماء بلا مَعانٍ لكان كَمَن وَهَب شيئاً جامداً لا حَرَكةَ له وشيئاً لا حِسَّ فيه وشيئاً لا منفعةَ عنده . ولا يكونُ اللفظُ آسماً إلاّ وهو مضمَّن بمعنىً ، وقد يكونُ المعنى ولا آسم له ولا يكون آسمٌ إلاّ وله معنىً . في قوله جلّ ذكره : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ ٱلْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ ، إخبارٌ أنّه قد علّمه المعاني كلّها . ولسنا نعني معانيَ تراكيبِ الألوان والطُعوم والأراييح وتضاعيف الأعداد التي لا تنتهي ولا تتناهى . وليس لِما فَضَل عن مقدار المصلحة ونهاية الوهم آسمٌ ، إلاّ أن تُدْخله في باب العلم فتقولَ شيء . ومعنى الأسماء التي تدور بين الناس إنّما وُضِعت علاماتٍ لخصائص الحالات لا لنتائج التركيبات . وكذلك خاصُّ الخاصِّ لا اسمَ له ، إلاّ أن نجعلَ الإشارة الموصولَة *باللفظ آسماً . وإنما تقع الأسماء على العلوم المقصورة ، ولعمري إنّها لَتُحيطُ بها وتشتمل عليها . فأمّا العلوم المبسوطة *فإنما تبلغ الأسماءُ مبالغ الحاجاتِ ثم

---

(١) ولا [يبرى] ب ـ (٢) و < لا > لعقلك ب ـ (٣) [عليه السلام] ب ـ و < قد > عصى ب ـ (٤) ثقته ب : نعته ؔ ـ (٨) لعله : والأسماء ـ (١٨) اللفظ ؔ ـ (١٩) فانها ؔ ـ

(١٢ ـ ١٣) سورة البقرة : ٣١ .

تنتهي . فإذا زعمتَ أنّ الله تبارك وتعالى عَلَّمَ آدَمَ آلأَسْمَاء كُلَّها بمعانيها فإنّما يعني نهاية المصلحة لا غيرَ ذلك .

(*)هذا وآدم هو الشجرة وأنت ثمرة ، وهو سماويّ وأنت أرضيّ ، وهو الأصل وأنت الفرع ، والأصل أحقّ بالقوة والفرع أولى بالضَعف . فلستُ أسألك أن تمسك إلاّ ريثما تسكنُ إليك نفسُك ويرتدُّ إليك ذِهنُك ، وحتى تُوازنَ بين شفاء الغيظ والانتفاعِ بثواب العفو(*) ، وترى الحِلم وما يجلب من السلامةِ وطيبِ الأُحدوثة ، وترى تصرُّم *الغرض وما يُفضِي لأهله مِن فضل القوة . على أنّ العقلَ إذا تخلّص من سُكر الغضب أصابه ما يصيب المخمورَ إذا خَرَج من سُكر شرابه، والمنهزمَ إذا عاد إلى أهله، والمبرسَمَ إذا أفاق من برسامه . وما أشكّ أنّ العقل حين يُطلق من إساره كالمقيَّد حين يُفَكّ من قيوده ، فإنّه يمشي كالنزيف ويَحجِل كالغُراب . فإذا وجب عليك أن تحذَر على عقلك مخامرةَ داءِ الغضب بعد تخلُّصه، وأن تتعمّده بالعلاج بعد مباينته له وتخلُّصه من يده ، فما ظَنُّك به وهو أسير في مِلكه، وصريع تحت كَلكَله ، وقد غطّه في بحره وغمره بفضل قوته .

وقد زعموا أنّ الحسن حضر أميراً قد أفرط في عُقوبة بعض المذنبين ، فكلّمه فلم يَحفِل بكلامه وخوّفه فلم يتّعظ بزجره ، فقال: إنك إنّما تضربُ نفسك ، فإن شئتَ الآنَ فأقِلَّ وإن شئت فأكثِر . ومعاذ الله أن أقولَ لك كما قال الحسن لذلك الظالم المعتدي والمصمِّم القاسي . ولكنّي أقول : آعلم أنك تضرب مَن قد جعلك من قَتلِه في حِلٍّ . وإن كان

---

(٧) لعله : الغيظ ، أو الغضب ؟

(*-*) (٤-٧) هذا ... العفو : رواية ب ١٦ .

القتلُ يحلُّ بإحلالِ المقتول، ويَسقطُ عنه عِقابُه بهِبة المظلوم ، ولو أمكن في الدِين تواهُب قِصاص الآخرة في الدنيا ، وإن كان ذلك ممّا تجودُ به النفس يومَ الحاجة إلى الثواب وإلى دفع العِقاب ، وكان الوفاءُ مضموناً ، لكنتُ أوّلَ مَن أسمحَت *بذلك نفسُه وانشرح به صدره .

(*)جُعلتُ فداك ، اعلم *أني قد أحصيتُ جميعَ أسباب التعادي وحصّلت جميعَ علل التضاغن ، إلاّ علّةَ عداوة الشيطان للإنسان ، فإنّي لا أعرف *إلا مجازها في الجملة ، ولا أحقُّ خاصّتها على التحصيل ، وعلى * < كل > حالٍ فقد عرفتُها من طريق الجملة ، وإن جهلتُها من طريق التفصيل . فأمّا هذا التجنّي فلم أعرفْه *في خاصٍّ ولا عامٍّ .

فمن أسباب العداوات تنافسُ الجيران والقرابات وتحاسُد الأشكال في الصناعات ، ومن أمتن أسبابهم إلى الشرّ وأسرعها إلى المروءة والعقل وأقدحها في العِرض وأحطّها على الدين ، التشاحُّ على المواريث والتنازُع في تخوم الأرضين ، فإن اتّفق أن يكون بين المتشاكلّين في القرابة كان السبب أقوى والداءُ أدوى ، وعلى حساب ذلك إن جُمعت هذه الخصومة مع الجوار والقرابة واستواءِ الحظّ في الصناعة . ولذلك كتب عُمَرُ ـ رضي الله عنه ـ إلى قُضاته أن رُدّوا القراباتِ عن *حر القضاء ، فإنّ ذلك يورث التضاغُن .

ولم أعجب من دوام ظلمك وثباتك على غضبك وغلظ قلبك ، ودُورُنا بالعسكر متجاورة ومنازلنا بمدينة السلام متقابلة ، ونحن ننظر في

---

(٤) ذلك ى ـ (٧) [إلا] ب ـ (٨) < كل > : أضفناه : وقد سقط من ى و ب ـ (٩) في عام ولا خاص ب ـ (١٦) كذا

(*ـ*) (٦ ـ ١٠) : رواية ب ١٧ .

علمٍ واحد ونرجع في النِحلة إلى مذهبٍ واحد ،(*) ولكن اشتدّ تعجُّبي منك اليوم وأنا بفرغانة وأنت بالأندلس ، وأنا صاحب كلام وأنت صاحب نِتاج ، وصناعتك جودة الخطّ وصناعتي جودة* المحوِ ، وأنت كاتب وأنا أمّي ، وأنت خَراجيّ وأنا عُشْريّ ، وأنت زَرعيّ وأنا نخليّ . فلو كنتُ *إذ كنتَ من بكر كنتُ من تميم* كان لك إلى العداوة *سببٌ وإلى المنافسة *سُلّمٌ .

( )أنت أبقاك الله شاعر وأنا راوية ، وأنت طويل وأنا قصير ، وأنت أصلع وأنا *أنزع ، وأنت صاحب براذين وأنا صاحب حَمير ، وأنت ركين وأنا عَجول ، وأنت تدبِّر لنفسك وتقيم أَوَدَ غيرك وتتسع لجميع الرعيّة *وتبلغ بتدبيرك أقصى الأُمّة ، وأنا أعجز *عن تدبير نفسي وعن تدبير أَمَتي وعبدي ، وأنت مُنعِمٌ وأنا شاكر ، *وأنت مَلِكٌ وأنا سوقة* ، وأنت مصطنع وأنا صنيعة وأنت تفعل وأنا أصفُ ، وأنت *مقدم وأنا تابع ، وأنت إذا نازعتَ الرجالَ وناهضتَ الأكفاء ، لم تَقُلْ بعد فراغك وانقطاع كلامك : لو كنتُ قلتُ كذا *كان أجود ، ولو تركتُ قول كذا *لكان أحسن ، *أمضيتَ الأمور على حقائقها وسلّمتَ إليها *أقساطها على مقادير حقوقها ، فلم تندم بعد قولٍ ولم تأسَف بعد سكوتٍ ، وأنا إن *حكمتُ ندمتُ( )وإن جاريت أبدعتُ(*) ورأيي كلُّه دَبَرِيٌّ . وأنت *تُعَدّ في

(٣) المحوب : النجوم ف - (٥) إذ كنت من تميم كنت من بكر ب - (٥) سبباً ف - (٦) سلما ف - (٨) اقرع ب - (١٠) ويبلغ تدبيرك م - عن تدبيري م ، عن نفسي ف - (١١) [وأنت ملك وأنا سوقة] ب - (١٢) متقدم م - (١٤) لكان م - كان ب - (١٥) وأمضيت ف - أقاسيطها ب - (١٦) حكمت م : تكلمت ف ، جملت ب - (١٧) وإن جازيت بدعت م : وإن حاريت هربت ب ، سقط من ف - [تعد] ب -

(*-*) (٢ - ص ٨٩ ، ٢) ولكن اشتد ... لا أحد : رواية ب ١٨ .
(+-+) (٧- ص ٨٩ ، ١) أنت أبقاك ... بدعت : رواية م ٦ .

الشطرنج *زبرب وأنا في الشطرنج *لا أحد(*) .

وما أعرف ههنا اجتماعاً على مشاكلة ، إلاّ في الإيثار بخُبز الخُشكار على الحُوّاري ، والباقلّي *على الجوزينج ، وأنّا جميعاً ندّعي الهندسة . فقد بلغ الآن من جُرمي في مُساواتك في خُبز الخشكار وإيثاري الباقلّي ، والمعرفة بتقدير المُدُن وإجراء القُنِيّ ، أن أُنفَى من جميع الأرض وأن تُجعَل في دمي الجعائل . فإنّي قد هجرتُ الخبز البتة إلى مواصلة التمر *ونزلتُ الوبَرَ بَدَلاً من المَدَر .

دَعْنا الآن فإنّك فارغ . إنّ الله يعلم . وكفي به عليماً وكفى به شهيداً وكفى به حفيظاً ووكيلاً وكفى بجُراةِ مَن يعلّمه ما لا يعلم جراةً وتعرُّضاً وكفى بحالِه عند الله بُعداً ومَقتاً . لقد أردتُ أن أُفديك بنفسي في بعض كتبي ، وكنت عند *نفسي في عداد الموتى وفي حيّز الهَلكى ، فرأيتُ أنّ مِن الخيانة لك ومن اللؤم في معاملتك ، أن أُفديك بنفسي مَيتةً ، وأن أُريك أنّي قد جُدتُ لك بأنفس عِلقٍ ، والعلق معدومٌ . ليس أنّ مَن قد فداك فقد جُعل فِداك ، ولكنها نهايةٌ من نهايات التعظيم ودليل من دلائل الاجتهاد ، ومَن أعلن الاجتهاد لك واستسرّ خِلاف ذلك ، فقد نافق وخان وغشّ والام ، وأخلِقْ بمن أخَلَّ بهذه ألاّ يَرعى حقًّا ولا يَرجع إلى صحةٍ ولا إلى حقيقةٍ .

(١) زبرب ، زبزب ب ـ لا جد ب ـ (٣) عن ق ـ (٧) ونزلت ، صححنا : وتركت ق ـ (١١) بنفسي ق ـ

(١) زيرب : أنظر جمع الجواهر ص ٢٣٥ . ومن تلاميذ الكندي من اسمه زرنب . أنظر ابن أبي اصيبعة ١ : ٢١١ .

ثم أنت لا يشفيك منّي السمُّ المُجهز ولا السمّ الساري فإنّه أبعدُ غايةً في التطويل وأبلغُ في التعذيب ، لا ولا لُعاب الأفاعي وداهيةُ الدواهي ، فإنه يُعجِزُ الرُقَى ويفوتُ ذَرعَ الأطبّاء ، لا ولا نارُ الدنيا ، بل لا يشفيك من نار الآخرة إلاّ الجحيم ، ولا يشفيك من الجحيم إلاّ أن أُرمَى في سَواته وفي أُضْطُمَّةِ ناره وفي مُعظم حريقه وفي موضع الصميم من لهيبه ، بل لا تكتفي بذلك دون الدَرك الأسفل ، بل لا يُرضيك شيءٌ سوى الهاوية ، بل لا تَرضى إلاّ بعذابِ آل فرعونَ أشدُّ العذاب ، بل لا يُرضيك إلاّ عذابُ إبليس الذي زيَّن الخَتْر للعباد وبثّه في البلاد ، والذي خطّأ الربَّ وعانده وردّ قوله وغيّر عليه تدبيره ، ولم *يزدَدْ إلاّ شكًّا ولجاجةً *وتمادياً وإصراراً ، ثم لم يرض من الجِدّ في مخالفة أمره وخَلعِ العِذار في شدّة الخلاف عليه ، إلاّ بأن يحلف على شدّة اجتهاده في ذلك بعِزّته ، فجعل العِزّة المانعة من إسخاطه سبيلاً إلى إسخاطه ، والقَسَمَ الحاجز دون إغضابه وسيلةً إلى إغضابه ، حيث قَالَ : *فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ .

فعليك ـ عافاك الله ـ بإبليسَ إن كنتَ لله تغضب ، أو عليك بالأكفاء إن كنت لنفسك تتشفّى . لا ولكنك استغمرتَني واستضعفتَني ، وجَعَلتني فَرّوج *الرقا ، (*)وتريد أن تتعلّم فيّ معاقبة الأعداء(*) . فإن كنتَ إلى هذا تذهب فجعفر بن معروفٍ أضعف منّي ، وعبدالله بن عيسى أسوأ خُبراً مني .

---

(٩) يرده د ـ (١٠) وتباينا د ـ (١٣) وعزتك د ـ (١٧) كذا في د ولعله الرفاء ـ

---

(١٢) سورة ص : ٨٢ .
(*ـ*) (١٥) رواية ب ١٩ : أنت جعلني الله فداك تريد أن تتعلم بي عقوبة الأعداء .

سبحان الله يسلمُ عليك حَيْدرُ *الأفشين ويهلكُ عليك عَمرو الجاحظ ، ويسودُ بك أبعدُ البُعَداء ويشقي بك أقرب القُرَباء ، وتتغافلُ عن *مِثلِ الجبال التماساً للتسلُّم وحُبًّا للسلامة ، *وتتغلغل إلى المحقَّرات طلباً للتعرُّض وحُبًّا للشرّ . ومتى قدرتَ على عدوّك فلم تجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه ، ومتى لم تتغافل عنه تكرُّماً أو تدعه إحقاراً ، ومتى اكترثتَ لكبير أو ضاق صدرك عن شيء عظيم ، فهأنا ذا بين يديك فكُلْني بخلٍّ وخَردَلٍ ، فوالله إنك لتأكله غَثًّا غيرَ مَرِيّ وَخبيثاً غيرَ شهيّ .

لا (*) والله لكأنك وقعتَ على مطمورة وظَفِرتَ برأس خاقان(*) .

كنتُ أظنّ أنّ الرَشاقة والحِلم لا يجتمعان وأنّ *ظَرفَ الإنسان *وإصابة الرأي لا *يقترنان ، وأنّ النَزَق والخِفّة مقرونان بخِفّة البدن وأنّ الركانة والأناة مجموعان لصاحب السِمَن . حتى رأيتُك فآعتقدتُ بك خلاف ذلك الرأي واستبدلتُ فيك ضدّ ذلك الظنّ ، فتركتَني ، حتى إذا نازعتُ الرجال وتعرّضتُ للشَجَى ، وشغلتُ نفسي بثَلب *الخصام وانقطعتُ إلى أصحاب القدود وجعلتُ عداوتي في تقديم القِضاف ، وطال لساني بك وأظهرت الاستبصار في فضلك ، (+)* وجعلتُ مزاج أخلاطك هو الحُجّة *واعتدالَك هو النهاية وطبيعتَك هي المسكنة ، وزعمتُ أنّ منظرك يُغني عن مَخبرك وأنّ أوّلك *يُجلي عن آخرك ، *شددتَ عليّ شَدَّةَ المُهر

(١) الافشيني د - (٣) مثلك الحبال د - وتغلغل د - (١٠) طرف د - وإطالة الراي د - (١١) لا يعترفان د - (١٤) لعل الصواب : القصار ؟ (١٦) جعلت < فداك > مزاج أخلاطك ب - (١٧) واعتدال < طبائعك > هو ب - (١٨) يحكى ب - < و > شددت ب -

(*-*) (١٠) رواية ب ٢٠ .
(+-+) (١٤- ص ٩٢ ، ١) جعلت ... الحنق : رواية ب ٢١ .

الأرِن وتسرّعتَ إليّ تسرُّعَ الغرِّ النَزِق وألححتَ * < عليّ > إلحاحَ الحَنِق(١) . كأنك لم تحفل بما يشيع لك مِن آسم المتسرّع وبما تُضافُ إليه مِن سُخف * المتترّع ، بعد أن تُكذّب قولي وتُفسد خَبري . (*)*وقد تقدّمَت التجربة في أنّ الحديد لا يكون حَقوداً *وأنّ المصطنِع لا يكون للصنيعة حاسداً* ، فقصدتَ على رأسي إلى *القياس الممتحن فأفسدتَه وإلى الطبائع المعتدلة فنقضتَها ، وإلى القضايا الصحيحة فرددتَها(*) .

وقد قالوا بأجمعهم : حالانِ لا يقبلان الحَسَد ولا يخلُوانِ من الرَشَد ، حالُ الصنيعة لمُصطَنِعِه وحالُ المولى لمُعتِقِه . فكيف إذا كان الصنيعةُ صديقاً وكان للخاصّة محتملاً . وإنما صارت ـ أبقاكَ الله ـ أجزاءُ النفس وأعضاءُ الجسد ـ مع كثرة عددها واختلاف أخلاطها وتباعدُ أماكنها ـ نفساً واحدة وجَسَداً واحداً ، لاستواء الخواطر ولإيقافها على الإرادة . فأنتَ وصديقُك الموافق وخليلُك ذو الشكل المطابق ، مستويان في المحابّ متّفقان في الهوى متشاكلان في الشهوة ، وتعاوُنكما كتعاوُن جوارح أحدِكما وتسالُمكما كتسالُم المتّفق من طبائعكما ، فإذا بان منك صديقُك فقد بان منك شَطرُك ، وإذا اعتلّ خليلك فقد اعتلّ نِصفك . بل النفوس المضمَّنة كالمعاني المضمَّنة ، فذهاب بعضها هو ذَهابُ جميعها ، فموتي هو موت صديقي وحياتي هي حياة صديقي ، فلا تُبعدنّه من قلبك بُعدَ بدنه من بدنك ، فقد يقرب البغيض وينأى الحبيب. ولعل بعض طبائعك المخالِط لروحك أن يكون أعدى من كل عدوّ وأقطع من كل سيفٍ وأخوَف عليك من الأسد الضاري ومن السُمّ الساري .

---

(١) < على > ب. (٣- ٤) وقد تقدمت < إلى > التجربة لأن الحديد ب. (٤- ٥) [وإن المصطنع . . . حسوداً] ب. (٥) [القياس] ب.

(* ـ *) (٣ ـ ٦) وقد تقدمت . . . فرددتها : رواية ب ٢٢ .

ثم آعلم أنّ *الموثق بمودّته قليل . وقد صار اليوم المعتمَدُ عليه في صحة العُقدة وفي كرم الغيب والعشرة عنقاءَ مُغرب . ولا أعلم الكبريت الأحمر إلّا أوجد منه ، وإنّي لأظنّ القناعة أكثر منه ، وما أكثر مَن جعل انقطاعَ سببه وضعفَ طمعِه لانقطاع سببه قناعةً . وقيل ليحيى بن خالد : أيّ شيء أقلّ ؟ قال : قناعة ذي الهمّة البعيدة بالعيش الدون ، وصديقٌ قليل الآفات كثير الامتناع شكور النفس يصيب مواضع المَرَح . لا والله *لن تعرف على ظهرها موضعاً للسرّ ولا مكاناً للشكوى ولا رُوحاً تأنس بها ولا نفساً تسكن إليها . ولو أردت أن تُعرّفني من جميع العالمين رجلاً لما قدرتَ على أحدٍ يحتمل الغِنَى ، ومحتمل الفقر قليل ومحتمل الغِنَى عديم .

إنّ الخير ـ أبقاك الله ـ في أيّام كثرته كان قليلاً فما ظنّك به في أيّام قلّته ، وإنّ الشرّ في أيّام قلّته كان كثيراً فما ظنّك به في أيّام كثرته . وأنت غريب في المصطنعين وأنا غريب في الصنائع ، والغريب للغريب نسيبٌ ، ونَسَب المشاكلة وقرابة الطبيعة الموافقة أقرب من نسب الرَحِم ، لأنّ الأرحام مولعة بالتحاسُد لَهِجة بالتقاطُع ، وإن التحابَّ على طَبع المشاكلة والتلاقي على وفاقٍ من الطبيعة ، أبعدُ من التَفَاسُد وأبعدُ من التعادي ، وسَبَبُ التعادي عَرَضٌ في طبائع الغُرَباء وجوهرٌ في طبائع الأقرباء .

وآعلم أنك لا تزال في وحشةٍ إلى وحشةٍ وفي غربةٍ إلى غربة ، وفي تنكُّر العيش وتسخُّط الحال ، حتى تجد مَن تشكو إليه بَثَّك وتُفضِي إليه بذات نفسك . ومتى رأيتَ عجباً لم تُضحكك رُؤ يتك له بقدر ما يُضحك إخبارك إيّاه . فمَن أغلب عليك ممن كانت هذه حاله منك وموقعه من نفسك . ولو أنّ شيبتي التي بها استعطفتُك وكبرة سنّي التي بها

---

(١) لعل الصواب : المتوثق ـ (٦) أن تعرف د ـ

استرحمتُك ، اللتان لم يحدثا عليّ إلّا وأنا في ذَرَاك، ولم يحلّا بي إلّا وأنا في ظِلّك ، لكان في شفاعة الكبرة واسترحام الضعف والوَهنة ما يردعك عنّي أشدَّ الرَدع، ويؤثر في طباعك أبين الأثر ، فكيف وقد أكرمتَني جديداً ثم تريد أن تُهينني خَلَقاً ، وقوّيتَ عَظمي أغلظَ ما كان ثم تريد أن تُوهنه أرقَّ ما كان . وهل هرِمتُ إلّا في طاعتك، وهل أخلقني إلّا مُعاناة خِدمتك؟ .

قال عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه : رأيُ الشيخ الضعيف أحبّ إلينا من جَلَد الشابّ القويّ . وأنا أقول كما قال أخُو ثقيفٍ : مودّة الأخ التالد وإن أخلق خيرٌ من مَودّة الطارف وإن ظهرت بشاشته وراعتك جِدّته . وقال عبدالملك بن مروان : رأيُ الشيخ أحبُّ إلينا من مشهد الغلام . وقال بعضهم : ليس بغائبٍ مَن شهد رأيه، وليس بفانٍ مَن بقي أثره ، وما كمّل العقلَ *ولا وفّر التجربة شيءٌ كنقصان البدن وكأخذ الأيّام مِن قُوَى الأعضاء . وقال آخر : ما قبّح الرجالَ شيءٌ كالوِكال ، ولا أفسد الكريمَ شيءٌ كحبّ الاستطراف . وخير الناس مَن أتبع الغضب مواقع الذنوب ، وأتبع العِقاب مواقع الغضب ، ولم يتبع الغضب مواقع الهوى .

(*)ولقد منحتُك جَلَد شبابي كَمَلاً وغرب نشاطي مقتبلاً ، *وكان لك مهناه وثمرة *قواه ، واحتملتُ دونك غرامه *وعدمه وكان لك غُنمه وعلى غُرمه ، وأعطيتُك عند إدبار بدني قوةَ رأيي وعند تكامُل معرفتي نتيجة تجربتي ، واحتملتُ دونك وَهنَ الكِبَر وأسقام الهَرَم . وخير شركائك مَن أعطاك مَا صَفا وأخذ لنفسه ما كدُر ، وأفضل خُلطائك مَن كفاك مؤونته وأحضرك معونته ، وكان كلاله عليه ونشاطه لك . وأكرم دُخَلائك وأشكر

---

(١١) الا د - (١٥) فكان م - (١٦)

(*-*) (١٨ - ص ٩٥ ، ٧) ولقد ... المغنى : رواية م ٧ .

*مُؤمِّليك مَن لا يظنّ أنك تُسمِّي جزيلَ ما تحتمل في بَذلِك *ومؤاساتك مؤونةً ولا تَتابُعَ إحسانك إليه نِعمةً ، بل يَرى أنّ نعمة الشاكر فوق نعمة الواهب، ونعمة الوادّ المخلص فوق *نعمة الجواد المغني(*) ، وأنه لا يبلغ في إعطاء المجهود من نفسه في خلع جميع ماله إلى مؤمّليه والمتحرمين به ، حُسنَ نِيّة الشاكر الوامق وحقَّ تمنّي الوادّ العارف . ولو اقتضيتَ جميع حقوقك عليّ وأنكرتَ جميع حقوقي عليك ، أو جعلت حقّي عليك حقًّا لك ، ثم زعمتَ أنّ حقك لا يؤدي إلى شكره، وأنّ حقّي لا يلزم حكمه، وأنّ إحساني إساءة ، وأنّ الصغير من ذنوبي كبير ، وأنّ اللَمَمَ مِنّي إصرارٌ ، وأنّ خطأي عمَدٌ، وأنّ عمدي كلّه كفرٌ، وأنّ كفري يوجب الطمع ويمنع من النزوع ، لما كان عندك* ، وما اتّسع قولي لأكثر من هذا العقاب ولا أشدّ من هذا الغضب . وما ينبغي أن يكون هذا المقدار من النقم إلاّ لبارىء النِّسم ، في دار البقاء لا في دار الفناء ، *واللذي يجوز بين العباد إنما هو تعزيرٌ أو حدّ أو قَوَدٌ أو قِصاص أو حبسٌ أو تغريبٌ أو *إغراق أو إسقاطُ عدالة أو إلزامُ اسم العداوة أو عِقابٌ يجمع الألم والتقويم والتنكيل ، فيكون مضض الألم أجراً له ومُعدِّلاً أسبابه . ورُبما قصر الإيقاع على السُخط وجاوز حدّ الغضب ، ورُبما كان مقصوراً على مقدارهما ومحبوساً على نهاية حالهما . وليس كل عقابٍ نتيجة سُخط ، وقد لا يُسمَّى ذلك المُوقِع والمُعاقِب واجداً كما يسمّى ساخطاً ، ولا يسمى عاتباً كما يسمّى غضبان ، فيخرج كما ترى من أن يسمَّى سُخطاً أو موجدةً وغضباً ، كما خرج عقاب آدم عليه السلام من هاتين الصفتين ومن جميع القسمين ،

---

(١) مواليك م ـ وموانستك م ـ (٣) [نعمة] م ـ (١٠) يظهر أنه سقط بعد « عندك » عدة كلمات ـ (١٢) اللذي ۞ ـ (١٣) لعله : إغرام ـ

وعلى أنّه كان إخراجاً من دار الخُلد والكرامة إلى دار الابتلاء والمحنة . مع ما في ذلك من إعراء الجلد والتسمية بالظلم ، مع الوصف له بضعف العزم والاغترار بيمين الخصم .

والعجب أنك تضجر من طول مسألتنا لعفوك مع حاجتنا إلى عاجل عفوك ، ولا تضجر بطول تشاغُلك بظُلم صديقك مع استغنائك عن ظلم صديقك . فلو كنتَ إنما تفعل ذلك لأنك تلذّ ضرب السِياط ورَضّ العِظام ، فجَنبُ دَندَن أحمل ، والسوط في ظهر قاسمٍ أحسن ، وأبدانهما تحت السياط أثبت ، وإنّ أرواحهما أبقى وهي بأرواح الكلاب أشبه وإلى طبائع الضِبَاب أقرب وأرحامهم بالحَمير أمسّ ، ومن يشير فيهم بذلك أكثر والأجر في ضربهم أعظم . فاستدِم اللذةَ بطريق اللذة ، وضع الأمور في مواضعها يَطُلْ سرورك بها .

إنّ عِتاق الخيل وأحرار الطير أدقّ حسّا وأشدّ اكتراثاً ، والكوادن الغلاظ والمحامر الثقال أكلّ حِسًّا وأقلّ اكتراثاً . وليس الصبر بالصمت والسكوت ولا بقلّة الصِياح والضمور ، وقد يصيح تحت السوط مَن لا يُقرّ على صاحبه ولا يدلّ على عَورة نفسه . والكلب المضروب يجمع الصياح والهرب ، والفرس العتيق يَعدُو ولا يصيح ، والحافر كله كظومٌ *ضاغنٌ والمِخلب كله ضَجور صَيَّاح ، والضجر في الخُفّ عامّ والبخاتي أضجر ، فسمن الظِلف عامّ وهو في الضأن أخفى . وكل مضروب هارب صَيّاح ، ومنها ما يجمع الخصال كالكلب والبعير . والهرب من المكروه محمود والمُقام عليه مذموم ، كالذي يعتري *عين السقم ، وتجده في الفرس الكريم ، من قلة

---

(١٦) ضاغن ، صححنا : ضامن ـ (٢٠) قوله ﴿ ـ (١٧) وعزبه م ـ

الاكتراث وشدّته . وصبر البدن غير صبر النفس . وليس بقاء الأرواح المنعقدة تحت الضرب الشديد من اعتزام النفس ولا يدل على الكرم . وفي المثل : ما رُوح فلانٍ إلاَّ روح كلب . ويقول العرب : الضَبُّ أطول شيء ذماء ، والكلب لئيم والضبِ غير كريم . والبازي أكرم من الصقر واشدّ ، وأكثر ثَمَناً وأجمل جمالاً وأعفَى صيداً وأنبل نُبلاً ، إن قَبَض عليه قتله وإن لم يُنَح كَنْدَرته عن قربه *أوهق نفسه . ثم يبلغ من دقة طمع البازي وعتقه أنه ينقطع بَرده للبازيار له إلى مسقطه من يده ، والصقر يتعلّق بساقيه من رجل حمل *بذرع فيضرب منكساً إلى الصبح ثم يجده وكأنه لم يزل على كندَرته وعلى مسقطه الذي يؤتى له .

فليس بدني مِن أبدان الاحتمال فأُميعك بِطُول ثباته لك ، ولا أُثبُت لك ثباتَ العير الكليل الحسّ ، ولا أجعل الصياح دليلاً على الإقرار ، فيكون ذلك أحد ما تتمتّع به وتُدرك به حاجة نفسك . وقد دللتك على ناسٍ يجمعون لك الخصال التي فيها دوام لذّتك وتمام شهوتك . فإن زعمتَ أنّ الذي يُثبت روح دَندَن في بدنه وروح القاسم في جسمه ، سرورُهما بما قد احتجّنا مِن كنوز الخلافة وأموال الرعيّة ، وليس ذلك من رسوخ أرواحهما في أبدانهما ومن شدّة الاحتجان وقوة الاكتناز ، ففرّق بينهما وبين تلك الأموال التي تمسك أرواحهما بالحيل اللطيفة والتدبير النافذ ، وبأن تُمضي فيهما حُكم الكتاب والسُنّة . فإنه سيَحل عُقدة أرواحهما عَقداً عَقداً ، فيعظم أجرك ويطيب ذكرك وتطيع الخليفة وتتحبّب به الأُمّة ، فتكون قد أحسنت في صرف الضرب إلى أهله ، وأرحت منه غير أهله . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته* .

---

(٨) اوهق ، صححنا : ارهق ۞ – (١٠) كذا ۞ – (٢١) تمت الرسالة بعون الله ومنه وتوفيقه والله الموفق بالصواب برحمته . والحمد لله أولاً وآخراً وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه ۞ .

(٧)

رسالة المعاد والمعاش

تقدمة :

صدرنا بهذه الرسالة التي ذكرها ياقوت بهذا الاسم عن مخطوطة داماد . وقد وردت فيها مرتين ، بعنوانين مختلفين . مرة بعنوان (الأخلاق المحمودة والأخلاق المذمومة ، إلى محمد بن عبد الملك)، ومرة بعنوان (رسالة المعاد والمعاش ، إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد) . وقد رمزنا للرواية الأولى بالرمز وللرواية الثانية بالرمز د ، وعن ما جاء منها في مخطوطة المتحف البريطاني التي جعلنا لها الرمز (رقعة) م. وقد أفدنا في تصحيحها وتحقيق نصها بهذه المصادر الثلاثة، وبالقطعة التي جاءت في أولها بمخطوطة برلين التي اتخذنا لها الرمز ب.

أما الشخصية التي وجه إليها الجاحظ بهذه الرسالة ، فلم نتردد في أنها شخصية أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد ، كما جاء في ثاني روايتي مخطوطة داماد .

أما الرسالة نفسها فهي من آثار الجاحظ في الفترة الثانية من فترتي العهد البغدادي بعد مقتل ابن الزيات ، وتحول الخلافة إلى المتوكل سنة

٢٣٢ ، في المرحلة الأولى من مراحل هذه الفترة ، وهي المرحلة المتوسطة بين سيادة المعتزلة وسيادة رجال الحديث .

وفي أوائل هذه المرحلة فلج أحمد بن أبي دؤاد ، فقضت الحرمة التي كانت له عند الخليفة أن يسند ما كان يتولاه للدولة إلى ابنه أبي الوليد . فكانت له بعد أبيه ولاية المظالم وقضاء القضاة . وكان هذا مظهراً من مظاهر هذه المرحلة الانتقالية بين العهدين ، فلم يكن أبو الوليد من رجال ذلك العهد الذي كان رجال الحديث يستشرفونه ويستبشرون به ، وما كان ليليَ للدولة عملاً فيه، لولا مكانه أبيه. وبذلك تعرض لخصومة المحدثين وغيرهم من رجال القصر ، كالذي نراه في هجاء علي ابن الجهم ، شاعر أهل السنة ، كما كان يسمي نفسه ، وهجاء أبي العبر محمد بن أحمد الهاشمي ، له . ومع ذلك استطاع أن يظل في مكانه فترة غير قصيرة ، حتى بلغت جهود أصحاب ذلك العهد الجديد غايتها في صبغ الدولة بصبغتهم .

وفي هذه الفترة وجد الجاحظ في أبي الوليد الشخصية التي يتجه إليها بكتبه .

وأول هذه الكتب رسالة المعاد والمعاش هذه ، وهي التي تسمى أحياناً بكتاب الآداب . والتسميتان مأخوذتان فيما يبدو من الرسالة نفسها ، إذ يقول فيها : « . . فرأيت أن أجمع لك كتاباً في الأدب ، جامعاً لعلم كثير من المعاد والمعاش » .

والمعاد والمعاش وثيقا الصلة عند الجاحظ . فالآداب عنده ـ كما يقول ـ : « آلات تصلح أن تستعمل في الدين وتستعمل في الدنيا . وإنما وضعت الآداب على أصول الطبائع . وإنما أصل أمور التدبير في الدين

والدنيا واحد ، فما فسدت فيه المعاملة في الدين فسدت فيه المعاملة في الدنيا ، وكل أمر لم يصح في معاملات الدنيا لم يصح في الدين . وإنما الفرق بين الدين والدنيا اختلاف الدارين من الدنيا والآخرة فقط ، والحكم ها هنا هو الحكم هناك ، ولولا ذلك ما قامت مملكة ، ولا ثبتت دولة ، ولا استقامت سياسة . ولذلك قال الله عز وجل : ﴿ ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ﴾ . قال ابن عباس في تفسيرها : « من كان ليس له من العقل ما يعرف به كيف دبرت أمور الدنيا ، فكذلك هو إذا انتقل إلى الدين ؛ فإنما ينتقل بذلك العقل . فبقدر جهله بالدنيا يكون جهله بالآخرة أكثر ، لأن هذه شاهدة وتلك غيب . فإذا جهل بما شاهد فهو بما غاب عنه أجهل » .

وإذن فتسمية هذه الرسالة بالمعاد والمعاش ، كما جاء في ياقوت وفي بعض المخطوطات، لا تتعارض مع تسميتها بكتاب الآداب ، كما جاء في العقد لابن عبد ربه . إذ كانت الآداب عنده آلات تصلح أن تستعمل في الدين وتستعمل في الدنيا ، فهي وسائل لتحقيق الخير في المعاد والمعاش ، على ذلك الذي أورده في الربط بينهما .

فأما الآداب التي يعقد عليها القول ويدير الرسالة عليها فإنما يعني بها قواعد السلوك الاجتماعي ، أو مبادىء المعاملة بين الناس ، كما ينبغي أن تكون . وذلك هو المعنى الذي كانت تطلق عليه كلمة الأدب ، كما نراه في كتاب الأدب الكبير والأدب الصغير لابن المقفع ، ثم نراه في كتاب الآداب لابن المعتز . ولعلنا نستطيع بذلك أن نقدر معنى تقديم الكتاب إلى أبي الوليد بن أبي دؤاد ، وقد أصبح رجلاً من رجال الدولة . بعد أن ولي بعض وظائفها العامة ، وجعلت صلاته بالناس تأخذ صورة أخرى جديدة ، يحتاج معها إلى هذا التبصير الذي يقدمه الجاحظ إليه في هذه الرسالة ،

لتكون هادياً له فيما يستقبل من الأمر الذي لا تمده فيه تجربة سابقة ، ولا يكفي فيه ما قسم الله له من العقل والفهم والطبع الكريم ، كما يصفه الجاحظ ، إذ « أن العقل المطبوع والكرم الغريزي لا يبلغان غاية الكمال ، إلا بمعاونة العقل المكتسب » . وهذه هي إحدى الملابسات التي أوحت بهذه الرسالة .

ونحن نستطيع أن نتمثل الجاحظ ، من خلال المقدمة التي كتبها لهذه الرسالة ، رجلاً كان ما يزال قلق النفس ، وأن ذلك الانقلاب الذي قلب الموازين وغير قيم الرجال كان ما يزال يثير مشاعره ، وينشر حوله جواً من الريبة ، وأن تلك النكبة التي كانت توشك أن تمتد إليه وتطبق عليه كانت ما تزال تناوش خياله ؛ فكان لقاء ذلك كله يشعر شعوراً عميقاً بأشد الحاجة إلى أن يجد السكينة ، وبرد الطمأنينة ، وروح الرخاء ؛ فلما أتيح له ذلك في أبي الوليد ، وقد وصل ـ كما يقول ـ أخاءه بمودته ، وخلطه بنفسه ، وأسامه في مراعي ذوي الخاصة به ، ورأى أنه قد أمن الخطوب ، واعتلى على الزمان ، واتخذه للأحداث عدة ، ومن نوائب الدهر حصناً منيعاً ؛ أكبر هذا الفضل أيّما إكبار ، وذهب يبالغ في شكره وتقريظه ونشر محاسنه ؛ ثم كان من تمام ذلك عنده هذه الرسالة التي كتبها له ، فكانت ـ فيما يقول ـ من أعظم ما يبره به ، وأرجح ما يتقرب به إليه ؛ إذ كان أبو الوليد غير مستغن عما تضمنته من قواعد للسلوك ، ومذاهب في الحياة ؛ وإذ كانت المنفعة له فيه ـ كما يقرر الجاحظ ـ عظيمة عاجلة آجلة ، إن شاء الله .

والناظر في هذه الرسالة يلاحظ نوعاً من الشبه بينها وبين كتب ابن المقفع في الأدب . ويرجع هذا الشبه إلى اتحاد الموضوع أولاً ، ثم إلى تأثر كل من الرجلين فيما كتب بآثار المتقدمين ، وإن كانا يختلفان في مدى

هذا التأثر ، ولكنهما جميعاً يتفقان في تقرير ذلك الأصل . فابن المقفع يقول : « وقد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس حروفاً فيها عون على عمارة القلوب وصقالها وتجلية أبصارها » الخ ، والجاحظ يقول : « ولم أزل - أبقاك الله - بالموضع الذي قد علمت ، من جمع الكتب ودراستها والنظر فيها . ومعلوم أن طول دراستها إنما هو تصفح عقول العالمين ، والعلم بأخلاق النبيين ، وذوي الحكمة من الماضين والباقين ، من جميع الأمم ، وكتب أهل الملل ؛ فرأيت أن أجمع لك كتاباً من الأدب ، جامعاً لعلم كثير من المعاد والمعاش » الخ .

ثم يختلف الرجلان فيما وراء ذلك . فابن المقفع يرى أن عمله لا يعدو التنظيم والتنسيق لآثار المتقدمين ، ويقول في هذا : « فإذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل أصيل ، وأن يقولوا قولاً بديعاً ، فليعلم الواصفون المخبرون أن أحدهم - وإن أحسن وأبلغ - ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصوص ، وجد ياقوتاً وزبرجداً ومرجاناً ، فنظمه قلائد وسموطا وأكاليل ، ووضع كل فص موضعه ، وجمع إلى كل لون شبهه ، مما يزيده بذلك حسناً ، فسمي بذلك صانعاً رفيقاً » .

وأما الجاحظ فليس لديه هذا التقديس - الذي اقتضه طبيعة ابن المقفع ومنزلته الاجتماعية - لآثار المتقدمين . وهو بعد رجل متكلم علمه الكلام أن ينظر في الأشياء وينقدها ويتعرف عللها وأصولها . فلم تكن آثار الأولين لتنزل من عقله المكان الذي نزلته من عقل ابن المقفع ، ولذلك نراه يقول عنها في هذه الرسالة : « ورأيت كثيراً من واضعي الآداب قبلي قد عهدوا إلى الغابرين بعدهم في الآداب عهوداً قاربوا فيها الحق ، وأحسنوا فيها الدلالة . إلا أني رأيت أكبر ما رسموا من ذلك فروعاً لم يبينوا عللها ، وصفات حسنة لم يكشفوا أسبابها ، وأموراً محمودة لم يدلوا على

أصولها . فإن كان ما فعلوا من ذلك روايات رووها عن أسلافهم ، ووراثات ورثوها عن أكابرهم ، فقد قاموا بأداء الأمانة ، ولم يبلغوا فضيلة من يستنبط ؛ وإن كانوا تركوا الدلالة عن أعيان الأمور التي بمعرفة عللها يوصل إلى مباشرة اليقين فيها ، وينتهي إلى غاية الاستبصار منها ، فلم يعدوا في ذلك منزلة الضنّ بها . ولن تجد وصايا أنبياء الله أبداً إلا مبينة الأسباب ، مكشوفة العلل ، مضروبة معها الأمثال » .

فأسلوبا التأليف في هذا الموضوع مختلفان كما نرى ، حتى ليخيل إلينا ، ونحن نقرأ هذا النقد الذي يوجهه الجاحظ إلى كثير من واضعي الآداب قبله ، أنه يقصد ابن المقفع ويعرض به ، لما نرى من تقابل المنهجين : منهج ابن المقفع القائم على الرواية ، ومنهج الجاحظ القائم على النظر والاستقصاء والتجريد .

وقد رسم هذا المنهج بوضوح في قوله عقب ذلك النقد : « فألفت لك كتابي هذا إليك ، وأنا واصف لك فيه الطبائع التي ركب عليها الخلق ، وفطرت عليها البرايا كلهم ، فهم متساوون فيها ، وإلى وجودها في أنفسهم مضطرون ، وإلى المعرفة بما يتولد عنها متفقون . ثم مبين لك كيف تفترق بهم الحالات ، وتتفاوت بهم المنازل . وما العلل التي يوجب بعضها بعضاً . وما الشيء الذي يكون سبباً لغيره : متى كان الأول كان ما بعده ، وما السبب الذي لا يكون الثاني فيه إلا بالأول ، وربما كان الأول ولم يكن الثاني . وفرق ما بين الطبع الأول وبين الاكتساب والعادة التي تصير طبعاً ثانياً . ولم اختلف ذلك ، وكيف دواعي قلوب الناس، وما منها يمتنعون منه ، وما منها لا يمتنعون منه . وما أسباب نوازع شهواتهم . وما الشيء الذي يحتال لقلوبهم به حتى تستمال ، وحتى تؤنس بعد الوحشة ،

وتسكن بعد النفار . وكيف يتأتى لينقض ما فيهم من الطبائع المذمومة ، حتى تصرف إلى الشيم المحمودة . وراسم لك في ذلك أصولاً ، ومبين لك مع كل أصل علته وسببه » .

ومن الحق علينا أن نتساءل بعد ذلك : أيرجع الأمر كله في هذه الرسالة إلى آثار المتقدمين ، ودرس الجاحظ لها ، ثم إلى تربية الجاحظ العقلية ومنهجه الكلامي في تناول الأمور والنظر في المسائل ، أم أن هنالك شيئاً ثالثاً هو التجارب الخاصة التي أتيحت له في حياته الحافلة بالصور المختلفة ، على النحو الذي نراه في تتبعنا لسيرته ؟ لقد كان الجاحظ من أخبر الناس بالمجتمع وعلائقه ، والنفوس وحالاتها .

فلا جرم كان لذلك أثره في مثل هذه الرسالة ، وفي تحقيق ذلك المنهج الذي رسمه لها . ولعل ذلك يعتبر من أظهر الفروق بين الجاحظ هنا وابن المقفع في كتابي الأدب . فابن المقفع إنما ينقل الأقوال المأثورة والآراء المتداولة ، وأما الجاحظ فلتجربته الخاصة أثر غير قليل ، كما أن روح العصر وخلقه يبدوان في هذه الرسالة على نحو ما . وإن كان الجاحظ ينزع فيها ـ كما نرى في مجموعها ـ إلى المثالية في الخلق ومعاملة الناس نزوعاً ظاهراً . ولعل هذا النزوع نتيجة طبيعية للحالة النفسية الخاصة التي غلبت على الجاحظ في هذه الفترة ، ومظهر من مظاهر الميل إلى الانطواء ، والحيد عن الحياة وما تصطرع به .

وبعد ، فهذه هي الملابسات التي كانت تلابس الجاحظ في كتابته لرسالة المعاد والمعاش ، وذلك هو المنهج الذي رسمه . فكيف أتيح له أن يحققه ؟ وإلى أي حد بلغ من ذلك ؟

لسنا ننتظر ، بطبيعة الحال ، أن نجد كتاباً في الأخلاق منظماً مبوباً ،

ينتظم مسائلها المختلفة ، مرتبة ترتيباً علمياً ، كالذي نرى بعد في كتب الأخلاق السائرة على النهج اليوناني ، وإن كنا نلمح ، في رسالة الجاحظ ، من الآثار الارسططالية ما قد يدلنا على أن كتاب الأخلاق لأرسطو كان من الكتب التي عرفت ، على نحو ما ، في البيئات العلمية إذذاك ، وذلك كنظرية الأوساط ، وأن الفضيلة وسط بين رذيلتين ، فنجد صدى هذه النظرية حيث يقول عقب كلامه عن بعض الحالات الخلقية : « ولكل شيء من هذه إفراط وتقصير . وإنما تصح نتائجها إذا أقيمت على حدودها . وبقدر ما يدخل من الخلل فيها يدخل فيما يتولد منها ، لا بد منه ولا مزحل عنه . عليه عادة الخلق ، وبه جرت طبائعهم . وتمام المنفعة بها إصابة مواضعها . فالافراط في الجود يوجب التبذير ، والافراط في التواضع يورث المذلة ، والافراط في الكبر يدعو إلى مقت الخاصة . . . الخ » . والجاحظ يعرض لهذه النظرية في غير موضع ، من ذلك ما جاء في رسالة التربيع والتدوير .

ولكنا مع هذا نستطيع القول بأن الجاحظ حاول في رسالة المعاد والمعاش أن يقيم المسائل الخلقية التي عرض لها على أصل علمي ، حين حاول استنباط الأصول الكلية التي ترجع إليها الحالات الخلقية . ولعل هذه المحاولة تعتبر الأولى من نوعها في التأليف العربي . فمهما تقصر عن الغاية فلها فضل المحاولة الأولى في الدراسات الأخلاقية العربية .

ولم يبن الجاحظ على تقسيم النفس إلى قوى ثلاثة : الناطقة والشهوية والغضبية ، أو على اختلاف الأمزجة من حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة ، أو على مطالع البروج وتأثير الكواكب وما إلى ذلك من هذه الاعتبارات الباطنية . وإنما بني على حقيقة يسيرة قريبة ، لا تعمق فيها ،

ولا تكلف لها ، ولا اختلاف عليها ، وهي ـ كما يقول ـ : « إن الله جل ثناؤه خلق خلقه ، ثم طبعهم على حب اجترار المنافع ودفع المضار ، وبغض ما كان بخلاف ذلك . هذا فيهم طبع مركب وجبلة مفطورة ، لا خلاف بين الخلق فيه ، موجودة في الإنسان والحيوان . لم يدع غيره مدع من الأولين والآخرين » .

فالأصل الذي بنى عليه الجاحظ هذا هو الأصل في الحياة ، أو ما يعبر عنه بغريزة حب البقاء . وعن هذه الغريزة ينشأ الحب والبغض ، وهما يتضمنان الخلال المختلفة للنفس الإنسانية . وإذ كانت هذه الخلال صادرة عن ذلك الأصل الضروري ، فهي « غرائز في الفطر وكوامن في الطبع ، جبلة ثابتة وشيمة مخلوقة . على أنها في بعض أكثر منها في بعض . ولا يعلم قدر القلة فيه والكثرة إلا الذي دبّرهم » .

ومن هنا يأخذ الجاحظ في بيان ترتيب بعض الصفات على بعض ، وتولد المشاعر المختلفة في النفوس . ومن هنا أيضاً يجيء له القول أيضاً في الصداقة ، التي هي نتاج المحبة ، والعداوة التي هي وليدة البغض . وكيف ينبغي أن تكون معاملة الصديق ومعاملة العدو .

وعلى هذا الأصل بني القول في تدبير الناس بالرغبة والرهبة . فالرغبة تصدر عن حب المنفعة ، والرهبة عن خوف الضرر . وهما عنده « أصل كل تدبير ، ومدار كل سياسة ، عظمت أو صغرت » .

ولسنا بصدد تلخيص الرسالة ، فهي لا تلخص . وإنما نحن في بيان الخطوط الرئيسية فيها ، وكيف وضع تصميمها ، لنصل من ذلك إلى حقيقة القول فيما تساءلنا عنه : كيف أتيح له أن يحقق المنهج الذي رسمه ، وإلى أي حد بلغ من ذلك ؟*

(*) الجاحظ : حياته وآثاره . المرحلة الأولى من الفترة الثانية ، في العهد البغدادي .

النص :

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم

حَفِظَك الله وأبقاك وأمتعَ بك . (*)إنّ جماعاتِ أهلِ الحكمة قالوا : واجبٌ على كلّ حكيم أن يُحسِن الارتيادَ لِموضع البُغية *وأن يتبيّن أسبابَ الأمور ويمَهّد لعواقبها . فإنّما حُمدت العلماءُ بحُسن التثبُّت في أوائل الأمور *واستشفافِهم بعقولهم ما تجيء به العواقبُ ، فيَعلمون عند استقبالها ما تَؤول به الحالاتُ في استدبارها ، وبقدرِ تفاوُتهم في ذلك تَستبين فضائلُهم . فأمّا معرفةُ الأمور عند تكشُّفها وما يَظهر مِن خَفيّاتها ، *فذلك أمرٌ يَعتدل فيه الفضلُ والمفضول *والعالِمون والجاهلون .

(*)وإنّي عرفتُك ـ *أكرمك الله ـ في أيّام الحَداثة وحيث سلطانُ اللّهو *المُخلِق للأعراض أغلبُ على نُظَرائك، وسُكرُ الشباب والجِدّة المتحيِّفين للدِّين والمُروءةِ *مستولٍ على لِداتك ، فاختُبرتَ أنت وَهُم ببَسطة المقدُرة وحُمَيّا الحَداثة *وطولِ الجِدَة ، مع ما تقدّمتَهم فيه مِن الوَسامة في الصورة والجمالِ في الهيئة . وهذه *كلّها أسبابٌ *< تكاد > توجب الانقيادَ لِلهَوَى *ولُجَجٌ مِن المهالك لا يَسلَمُ منها إلاّ المنقطعُ القرينِ في صحّة الفِطرة وكمالِ العقل . فاستعبدَتهم الشهواتُ حتى أعطوها أزِمّةَ أديانهم وسلّطوها على مُروءاتهم وأباحوها أعراضهم ، *فآلت بأكثرِهم* الحالُ إلى

(٣) الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وعلى جميع المرسلين ، أما بعد فإن جماعات د ، أما بعد فإن جماعات م ـ (٤) وأن يبين د ـ (٦) واستشرافهم ء ـ (٨) فذاك د ـ (٩) والعالم والجاهل م ـ (١٠) [وإني] قد عرفتك ب ـ [أكرمك الله] ب ـ (١١) المحلّق للأعراض ء ـ (١٢) استولى ب ـ (١٣) وفضل الحدة م ـ (١٤) [كلها] م ـ < تكاد > م ب ـ (١٥) وتلجج في المهالك < و > لا يسلم م ، ولجج المهالك < التي > لا يسلم ب ـ (١٧) فآلت بهم ب ـ

(*) ابتداء رواية م (١) .

(*) ابتداء رواية ب .

ذُلّ العُدم وفَقدِ عزِّ الغِنَى في العاجل، مع النَدامةِ الطويلة *والحسرةِ في الآجل .

وخرجتَ نسيجَ وَحدِك *أوحـديّاً في عصرك ، حَكَّمتَ وكيلَ الله عندك ـ وهو عقلك ـ على هواك وألقيتَ إليه أزِمّةَ أمرك ، فسَلَكَ بك *طريقَ السّلامة وأسلمَك إلى العاقبة المحمودة ، وبلغ بك من نيل *اللذّات أكثرَ* ممّا بلغوا *ونال بك من الشهوات أكثر مما نالوا* وصرّفَك مِن *صنوف النِعَم في أكثَر مما *تصرّفوا ، ورَبَطَ عليك مِن نِعَم الله التي خوّلك ما أطلقَه مِن أيديهم *إيثارُ اللهوِ وتسليطُهم الهوى *على أنفسهم ، *فخاض بك تلك اللُجَج واستنقذَك من تلك المعاطب ، فأخرجك سليمَ الدِين وافرَ المروءة نقي العِرض *كثيرَ البِرِّ آمِنَ الجِدّة . وذلك سبيلُ مَن كان مَيلُه إلى الله أكثرَ مِن ميله إلى هواه .

*ولم أزَل في أحوالك تلك كلِّها بفضيلتك عارفاً ولك *بنِعَم الله عندك غابطاً ، أرى ظواهرَ أمورك *المحمودةِ *فتدعوني إلى الانقطاع إليك وأسأل عن بواطن أحوالك فتَزيدُني رغبةً في الاتّصال بك ، *آرتياداً مِنّي لموضع الخِيَرَة في الأُخوّة ، وآلتماساً لإصابةِ *الاصطفاء في المودّة وتخيُّراً لمستودَعِ الرجاءِ في النائبة . فلمّا مَحَضَتك الخِبْرةُ *وكَشَفَك الابتلاءُ عن

---

(١) [والحسرة] في الآجل ء ـ (٣) أو حديا في نفسك ق م ـ (٤) طريق م ب : طرق ، سبيل ء ـ اللذات < إلى أكرمها و > أكثر ب ـ (٥) [ونال . . . نالوا] ب ـ (٦) صنوف التنعم ق ، صنوف الشهوات ب ـ (٧) تصرفوا < فيه > ء ـ (٨) إيثار الهوى ء ، < من > إيثار اللهو م ـ [على أنفسهم] م ب ـ فخاض بهم < سبل > تلك ء ، فخاض بهم تلك ب ـ (١٠) كثير البر آمن الجدة ، صححنا : كثير البر من الجدة م ، كثير الثراء من الجدة ، كثير الثراء من الحال ب ، كثير الثراء ء ـ (١٢) فلم أزل م ، فلم أزل < أبقاك الله > ب ـ بنعمة ب ـ (١٣) المحمودة < فيك > ء ـ تدعوني ء م ـ (١٤) < و > ارتيادا ء ـ (١٥) الاصطفاء : المصطفى ب ـ (١٦) وكشف الابتلاء م ـ

المحمَدة *وقَضَت لك التجاربُ بالتقدِمة وشَهِدَت لك قلوبُ العامّة بالقبول والمحبّة وقَطَعَ الله عُذرَ *كلّ مَن كان يطلبُ الاتّصالَ بك ، *طلبتُ الوسيلةَ إليك والاتّصال بحَبلك ، فمَتَتُّ بحُرمة الأدب وذِمام كَرَمِك . *وكان مِن نِعمة الله عندي أن جعل *أبا عبدالله ـ *حَفِظه الله ـ وسيلتي إليك ، فوجدتُ المطلبَ سهلاً *والمَرادَ محموداً ، وأفضَيتُ إلى ما يجوز الأُمنيةَ *ويفوت الأملَ . فوصلتَ *إخائي بمودّتك وخلطتَني بنفسك وأسْمَتّني *في مَراعِي ذَوِي الخاصّة بك ، تفضُّلاً لا مجازاةً *وتطوُّلاً لا مكافأةً . فأمِنتُ الخطوبَ وأعتليتُ على الزّمان ، وآتّخذتُك للأحداث عُدّةً ، ومِن نوائب الدّهر حِصناً مَنيعاً . فلمّا حُزتُ المؤانسةَ ، وتقَلّبتُ مِن فضلك في صُنوف النِعمة ، *وزاد بَصَرِي مِن مواهبك *في السرور والحَبرة ، أردتُ خِبرة المشاهدة فبَلَوتُ *أخلاقَك ، وآمتحنتُ شِيَمَك ، وعجمتُ مذاهبَك على حين غَفَلاتك وفي الأوقات التي يَقِلّ فيها تحفُّظُك ، *أُراعِي حركاتِك وأُراقِب مخارجَ أمرك* ونهيك ، فأرى *< مِن > استصغارك لِعظيم *النِعمة التي تُنعِمُ بها وآستكثارِك لِقليل الشُكر مِن شاكريك ، *< ما > أعرِفُ < به > ـ *بما قد بَلَوتُ من غيرك وما قد شَهِدَت *لي به التجاربُ ـ أنّ ذلك *مِنك طَبعٌ غيرُ تكلُّفٍ . هَيهاتَ ما يكاد ذو التكلُّف أن يَخفَى *على الغُباة فكيف على مِثلي مِن المتصفحين(*) . فزادَتني المؤانسةُ فيك

---

(١) وقضب لنا ب ـ (٢) [كل] ب ـ طلبنا الوسيلة لك ب ـ (٣ ـ ٤) فكان ب ـ أبا فلان ب ـ (٤ ـ ٥) [حفظه الله] ء م ـ والمرام ب ـ (٦) بفوت الأمل ء ـ إخائي : رجائي ء ـ (٦ ـ ٧) في دواعي الخاصة بك ب ـ (٧ ـ ٨) وتكرما ء ـ (١٠) وزاد تصرفي في مواهبك م ـ في مذاهبك ب ـ (١١) [أخلاقك] ء ـ (١٢ ـ ١٣) أراقب حركاتك وأراعي مخارج أمرك ب ـ (١٣) < من > ب : [ ] ء م ـ النعم ـ (١٤ ـ ١٥) < ما > أعرف < به > ب : أعرف ء م ـ بما : ما ب ـ (١٥) [لي] ء ـ (١٦) منك عن غير تكليف ب ـ (١٦ ـ ١٧) على أهل الغباوة م ـ

(*) أهـ رواية م (١) .

رَغبةً وطُولُ العِشرة لك محبّةً ، وآمتِحاني أفاعيلَك لك تفضيلاً وبِطاعتك دَينونةً . *وكان تمام شُكري لرَبّي وليِّ كلّ نِعمةٍ والمبتدىء بكلّ إحسانٍ ، الشُكر لك* والقيام بمكافأتك بما أمكن من قولٍ *وفعل . لأنّ *الله تبارك وتعالى نَظَم الشكر له بالشكر *لِذِي النِعمة مِن خَلقه ، وأبَى أن يَقبَلهما إلاّ معاً ، لأنّ أحدهما دليلٌ على الآخَر *وموصولٌ به . فمَن ضيَّع شُكرَ ذِي نِعمةٍ مِن الخَلق فأمرَ الله ضيَّع *وبشهادته استخفّ . *ولقد جاء بذلك الخبرُ عن الطاهر *الصادق ﷺ *فقال : *مَنْ لم يَشكُر للناس لم يَشكُر لله . ولعَمري إنّ ذلك لَموجودٌ في الفِطرة قائم في العقل ، أنّ مَن كفر نِعَمَ الخَلق كان لنِعَم الله أكفر . لأنّ الخَلق يُعطِي بعضُهم بعضاً بالكُلفة والمشقّة وثِقَل العطيّة على القلوب ، والله يُعطِي *بلا كُلفة . ولهذه العِلّة جَمَع بين الشُكر له والشكر لِذَوِي النِعَم مِن خَلقه .

فلمّا وجبَت *عليّ الحُجّةُ *لِشُكرك *وقُطِعَ عُذري في مكافأتك ، اعترفتُ بالتقصير عن تقصّي ذلك . إلاّ أنّي بسطتُ لساني بِتقريظك ونَشرِ محاسنِك ، موصولٌ *ذلك عندي لِآذانِ السامعين بالاعتراف بالعَجز عن إحصائها . وقد رُوِي *عن رسول الله ﷺ أنه قال : « مَن أُودِعَ عُرفاً

(٢ - ٣) وكان < من > تمام لذتي < أن سألت الله > ولي كل نعمة والمبتدىء بكل إحسان < العون على > الشكر لك ء - (٣ - ٤) وعمل ء - الله سبحانه ب - (٤) للذوي النعم ب - (٥) [و] موصول ب - (٦) وبشاهده ء - [و] لقد ب - (٢ - ٣) الصادق عليه السلام ء - فقال < صلى الله عليه وسلم > ق ، [فقال] ب - من لم يشكر الناس لم يشكر الله ب - (١٠) بلا كلفة < ولا مشقة > ء - (١٢) [على] ب - لشكرك ب : بشكرك ، في شكرك ء - وقطع ذكرى ب - (١٤) ذلك عندي لآذان السامعين ب : ذلك عندي عند السامعين ق ، ذلك مني عند السامعين ء - (١٥) عن النبي ... وسلم ب -

---

(*) اهـ رواية ب . (**) ابتداء رواية م (٢) .

فليَشكُره ، فإن لم يمكنه فلينشُره ، فإذا نَشَرَه فقد شَكَرَه وإذا كَتَمَه فقد كَفَرَه »(*) .

*ثم قد رأيتُ أن قد بقي عليّ أمرٌ مِن الأمور يمكنني فيه بِرُّك *هو عندي عَتيدٌ وأنت عنه غير مستغنٍ والمنفعةُ لك فيه عظيمة عاجلةٌ وآجلةٌ ، *إن شاء الله .

(**)ولم أزل ـ أبقاك الله ـ بالموضع الذي قد علمتَ مِن جَمعِ الكُتُب ودِراستِها والنظرِ فيها ، ومعلومٌ أنّ طُول دراستها إنما هو تصفُّح عقولِ العالِمين والعلمُ بأخلاق *النبيّين وذَوِي الحكمة من الماضين والباقين ، مِن جميع الأُمَم وكُتُبِ أهل المِلَل . فرأيتُ أن أجمع لك كتاباً مِن الأدب جامعاً لِعلمِ كثيرٍ مِن *المعاد والمعاش ، أَصِفُ لك فيه عِلَلَ الأشياء وأُخبِرك بأسبابها وما آتّفقَتْ عليه محاسنُ الأمم . وعلمتُ أنّ ذلك مِن أعظمِ *ما أَبَرُّك به وأرجحِ ما أتقرّب به إليك . وكان الذي حداني على ذلك ما رأيتُ الله قَسَم لك مِن *العقل والفهم وركّب فيك مِن الطبع الكريم . وقد أجمعَت الحكماءُ *أنّ العقل المطبوع والكرم الغريزيّ لا يبلُغان غايةَ الكمال إلّا بمعاوَنة العقل المكتسَب ، ومثّلوا ذلك بالنار والحَطَب والمِصباح والدُّهن . وذلك أنّ العقل الغريزيّ آلة والمكتسبَ مادّة ، وإنما الأدبُ عقلُ غيرِك تَزيده في عقلك .

ورأيتُ كثيراً من واضعي الآداب قَبلي قد عهِدوا *إلى الغابرين

---

(٣) ثم [قد] رأيت ذ ـ < و > هو عندي ء ـ (٥) [إن شاء الله] ذ ـ (٧) النبيين < صلوات الله عليهم أجمعين > م ـ (١٠) من < أمر > المعاد م ـ (١١ ـ ١٢) ما أبرك به : ما أترك به م ، ما أسرك به ء ـ (١٣) من الفهم والعقل ذ ـ < على > أن العقل م ـ (١٨) إلى الغابر ء ـ

بعدَهم في الآداب عهوداً *قاربوا فيها الحقَّ وأحسَنوا فيها الدلالة . إلاّ أنّي رأيتُ أكثرَ ما رسموا مِن ذلك فروعاً لم يبيِّنوا عِلَلها وصفاتٍ حسنةً لم يكشِفوا أسبابَها وأموراً محمودةً لم يدُلّوا على أصولها . فإن كان *ما فعلوا من ذلك *رواياتٍ رَوَوها عن أسلافهم ووِراثاتٍ *وَرِثوها عن أكابرهم ، فقد قاموا بأداء الأمانة ، ولم يبلغوا فضيلةَ مَن *يَستنبط . وإن كانوا تركوا الدلاَلة* على أعيان الأمور *التي بمعرفة عِلّلها يُوصَل إلى مباشَرة اليقين فيها ويُنتهَى إلى غاية الاستبصار منها ، فلم يَعدُّوا في ذلك منزلةَ الضِنّ بها . *ولن تجد وصايا أنبياء الله *أبداً إلاّ مبيَّنةَ الأسباب مكشوفةَ العلل مضروبةً معها الأمثال(*) .

فألّفتُ لك كتابي هذا إليك ، وأنا واصفٌ لك فيه الطبائع *التي رُكّب عليها الخَلق وفُطرت عليها *البرايا كلهم ، فهم *متساوون فيها وإلى وجودها في أنفسهم مضطرّون وفي المعرفة بما يتولّد عنها متّفقون . ثم مُبيِّنٌ لك كيف *تفترق بهم الحالاتُ وتتفاوت بهم المنازلُ ، وما العللُ التي يوجب بعضُها بعضاً وما الشيءُ الذي يكون سبباً لغيره متى كان الأوّل كان ما بعده ، وما السببُ الذي لا يكون الثاني فيه إلاّ بالأوّل وربما كان الأوّل ولم يكن الثاني ، *وفَرقَ ما بين الطبع الأوّل وبين الاكتساب والعادة* التي تصير طبعاً ثانياً ، ولِمَ اختلف ذلك وكيف دواعي قلوبِ الناس وما منها يمتنعون منه وما منها لا يمتنعون منه وما أسبابُ نوازعِ شهواتِهم ، وما

(١) قاربوا [فيها] ء - (٣) ما فعلوه [من ذلك] ء - (٤) [روايات رووها عن أسلافهم و] وراثات ء - (٥ - ٦) استنبط ء - على علل الأمور ء م - التي بمعرفة م : التي في معرفة ، اللاتي على معرفة ء - (٧ - ٨) ولن تجدوا - (٨) [أبدا] - (١٠) اللاتي ركب ء - (١١) البرايا كلها ء - فيها مستوون ء - (١٣) تفرق ء - (١٦) وفرق ما بين الأول والثاني وما بين الاكتساب والعادة ء -

(*) اهـ رواية م (٢) .

الشيءُ الذي يُحتال *لقلوبهم به حتى تُستمال وحتى تُؤنِسَ بَعدَ الوَحشة وتَسكُنَ بعد النفار ، وكيف يُتأتّى لِيُنقَضَ ما فيهم من الطبائع المذمومة حتى تُصرَف إلى الشِيَم المحمودة . وراسِمٌ لك في ذاك أصولاً ومُبيِّنٌ لك مع كل أصل منها عِلّته وسَبَبَه .

وقد علمتَ أنّ في كثيرٍ *مِن الحقّ مُشتبهاتٍ لا تُستبان إلاّ بَعدَ *النظر والتأمُّل . وهناك *يَختِل الشيطانُ أهلَ الغَفلة ، *وذلك أنّه لا يجد سبيلاً إلى اختداعهم عن *الأمر الظاهر . (*) *فلم أَدَع من تلك المواضع الخفيّة موضعاً إلاّ أقمتُ *لك بإزاء *كل شُبهةٍ دليلاً ومع كلّ خفيٍّ مِن الحقّ حُجّةً ظاهرةً ، *تستنبط بها غوامض البرهان وتستبين بها *دفائن الصّواب *وتستشفّ بها سرائر القلوب ، فتأتي ما تأتي عن بيّنةٍ وتَدَع ما تَدَع عن خِبرة ، ولا يكونُ بك وَحشة إلى معرفة كثير مما يَغيبُ عنك إذا عرفتَ العِلَلَ والأسباب ، حتى كأنك مشاهدٌ لِضمير كلّ امرىء ، لِمعرفتك بطبعه وما رُكّب عليه(*) وعوارضِ الأمور *الداخلة عليه . ثم غيرُ رَاضٍ لك بالأصول حتى أتقصّى لك ما بلغه عِلمي من الفروع . ثم لا أرسِمَ لك من ذلك *< إلاّ > الأمرَ *المعقول في كلّ طبيعة والموجودَ في فِطرة البرايا كلّها . فإن أحسنتُ ذلك وأقمتُه على حدوده *ونزّلتُه منازلَه ، كان عُمرك

---

(١) لقلوبهم به ، صححنا : لقلوبهم له ، فيه لقلوبهم ء - (٥) من الخلق ء - (٥ - ٦) النظر [والتأمل] - (٦) يخيل الشيطان - وذاك - (٧) الأمور الظاهرة ء - ولن أدع م - (٨) لك < بها > بازاء م - كل شبهة < منها > ء ، كل شبهة < منه > م - (٩) تستنبط لها ، يستنبط به م - (٩ - ١٠) دقائق ء - وتستشف بها م : وتستشف لها ، ويستقي بها ء - (١٣) الداخلة فيه ء - (١٥) [إلا] ء - المعقول : لعلها المعقود - (١٦) وانزلته على منازله ء -

---

(* - *) (١ - ٦) رواية م (٣) .

ـ وإن قَصُرت أيّامُه ـ طويلاً وفارقتَ ما لا بُدّ لك *من فِراقه محموداً ، إن شاء الله .

وآعلم أنّ الآدابَ إنما هي آلاتٌ تَصلُح أن تُستعمل في الدين ونُستعمل في الدنيا ، وإنما وُضِعَت الآدابُ على أصول الطبائع ، وإنما أصول *أمور التدبير في الدين والدنيا واحدة . فما فسدت فيه المعاملةُ في الدين فسدت *فيه المعاملة في الدنيا ، وكل أمرٍ لم يَصِحّ في معاملات الدنيا لم يصحّ في الدين .

وإنما الفرق بين الدين والدنيا اختلافُ الدارين من الدنيا والآخرة فقط ، والحكمُ ها هنا الحكم هناك . ولولا ذلك ما قامت مملكةٌ ولا ثبتت دولة ولا استقامت سياسةٌ . ولذلك *قال ا لله عزّ وجلّ : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ . قال ابنُ عبّاسٍ في تفسيرها : مَن كان ليس له مِن العقل ما يَعرفُ به كيف دُبّرت أمورُ الدنيا ، فكذلك هو إذا انتقل إلى الدين ، فإنما ينتقلُ بذلك العقل ، فبقدرِ جَهلِه في الدنيا يكون جهلُه بالآخرة أكثرَ ، لأنّ هذه شاهدةٌ وتلك غَيبٌ ، *فإذا جَهِلَ ما شاهدَ فهو بما غاب عنه أجهل .

فأوّلُ ما أوصيك به ونفسي تَقوَى اللهِ ، فإنه جماع كلّ خير وسببُ كلّ نجاة ولِقاح كل رُشد ، هي أحرزُ حِرز وأقوى مُعين وأمنعُ جُنّة ، هي الجامعة *محبّةَ قلوب العباد *والمستقبلةُ بك محبّةَ من لا تجري عليهم

---

(١) من مفارقته ء ـ (٥) أمر التدبير ء ـ (٦) فيه [المعاملة] في الدنيا ـ (١٠) قال الله جل ذكره ء ـ (١٤ ـ ١٥) فإن جهل ء ـ (١٨) قلوب محبة ـ والمستقبلة بلك قلوب من -

---

(١ ـ ٢) سورة الإسراء : ٧٢ .

*نِعَمُك . فآجعلها *عُدَّتك وسِلاحك وآجعل أمرَ الله ونهيه نُصب عينيك .

وأُحذّرك ونفسي *اللَّهَ والاغترارَ به والإدهانَ في أمره والاستهانة *بعزائمه والأَمن لِمَكره . فقد رأيتَ *آثاره في أهل وَلايته وعداوته ، كيف جعلهم للماضين عِبرةً وللغابرين مثلاً .

وآعلم أنّ خَلْقه كلَّهم بَريّته ، ولا *وُصلةَ بينه وبين أحدٍ منهم إلاّ بالطاعة . فأولاهم به أكثرهم تزيُّداً في طاعته ، وما خالف هذا فإنّه أمانيُّ وغُرورٌ . *وقد مكّن الله لك مِن أسباب المقدرة ومهد لك *في تمكين الغِنَى والبَسطة ما لم *تُنحَلْهُ بحِيلةٍ *ولم تُلقَّنه بقوّة ، لولا فضلُه وطَولُه . ولكنّه مكّنك ليبلوَ خَبَرَكَ ويختبرَ شُكرَك ويُحصِيَ سعيك ويكتب أثَرَك ، ثم يُوفِّيَك أجرَك ويأخذَك بما اجترحَت *يدُك ، أو يعفوَ فأهلُ العَفوِ هُو . ولله آبتلاءان في خَلقه ـ والابتلاءُ هو الاختبار ـ آبتلاء بنعمة وآبتلاء بمصيبة . وبقدرِ عِظَمها يجب التكليف *من الله عليها . فبقدرِ ما خوَّلك مِن النعمة يَستأدِيك الشُكرَ . ولو تقصَّى اللَّهُ على خَلقِه لَعَذَّبهم . ولذلك *قال وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ آلنَّاسَ بما كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ . ولكنّه قَبِلَ التوبة وأقال العَثرَة وجَعَلَ بالحسَنَة أضعافَها .

وآعلم أنّ الحُكم في الآخرة هو الحكمُ في الدنيا ، ميزانٌ قِسط وحَكَمٌ عدلٌ . وقد قال اللَّهُ تعالى ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُه فَأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأولٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ . وهذا

---

(١) نعمتك ء ـ عونك ء ـ (٢) [والله و] الاغترار به ء ، [به] ـ (٣) بعزمته ء ـ أثره ء ـ (٥) وصيله ء ـ (٧) فقد ء ـ من ء ـ (٨) تنله ء ـ ولم يلقنه د ، ولا بلغة ء ـ (١٠) يداك ء ـ (١٢) [من الله] ء ـ (١٣) قال < جل ذكره > ء ـ

(٦ ـ ٧) سورة فاطر ٤٥ . (١٠ ـ ١١) سورة المؤمنون ١٠٣ .

مَثَلٌ ضربه الله لأنّ الناس يعلمون أن لو وُضع في إحدى كفّتَي الميزان شيءٌ ولم *يَكُ في الأخرى قليلٌ ولا كثير ، لم يكن للوزن معنىً يُعقل . وذلك أنّ أحداً مِن الخلق لا يخلو مِن هَفوة أو زَلّة أو غَفلة ، فأخبر أنّ مَن كانت حَسَناتُه الراجحة على سَيِّئاته ، مع النَدَم على السيّئات ، كان على سبيل النجاة وطريق الفوز بالإفلاح ، ومَن مالت سيئاتُه بحسَناتِه كان العَطَبُ والعذابُ أولى به . وكذلك حُكمهُ في الدنيا ، لأنه *قد تولّى أولياءَ مِن خلقِه وشَهِدَ لهم بالعَدالة . وقد عاتبهم في بعض الأمورِ لِغَلَبة الصلاح *في أفعالهم وإن هَفَوا وتبرّأ من آخرين وعاداهم لغلبة الجور* على *أفاعيلهم وإن أحسنوا في بعض الأمور . وكذلك جَرَت مُعامَلاتُ *الخلق بينهم ، يعدِّلون العادلَ *بالغالب مِن فعله وربما أساء، ويفسِّقون الفاسق وربما أحسن . وإنما الأمورُ بعواقبها وإنما يُقضى على كلّ امرىء* بما شاكل أحواله .

فهذه الأمورُ قائمةٌ في العقول جَرَت عليها المعاملة واستقامت بها السياسة لا آختلافَ بين الأمّة فيها . فلا *تَغبِنَنّ حَظَّك مِن دِينك . *وإن استطعتَ أن تَبلغ من الطاعة غاياتِها فَلِنَفسِك تمهد ، وإلاّ فآجهد أن يكون أغلبَ *أفعالك عليك الطاعة مع الندامة عند الإساءة ويكونَ ميلُك *عند الإساءة إلى الله أكثرَ ، والله يوفِّقك .

*إِعلم أنّ الله جلّ ثناؤه خَلَقَ خَلقَه ثم طبعهم على *حُبِّ اجترارِ

(٢) يكن ء - (٥ - ٦) [قد] ء - (٦ - ٧) [في أفعالهم ... لغلبة الجور] ۞ - (٧) أفعالهم ء - (٩) الناس ء - (١٠ - ١٢) [بالغالب ... كل امرى] ء - (١٤) تعتبر ۞ - فان ء - (١٦) أفاعيلك [عليك] ۞ - ميلك [عند الاساءة] ء - (١٨) <و> اعلم ء - [حب] اجترار ء -

المنافع ودَفعِ المضارّ *وبُغضِ ما كان *بخلاف ذلك . هذا فيهم طَبعٌ مركَّب وجِبِلّةٌ مفطورة ، لا خلاف بين الخلق فيه موجودٌ في الأنس والحيوان ، لم يَدّعِ غيرَه مدّعٍ مِن الأوّلين والآخِرين . وبقدر زيادة ذلك ونقصانه تزيد المحبّةُ والبَغضاء *< . . . . . > كزيادته تميل الطبيعة *معها كميل كَفّتَي الميزان *قلَّ ذلك أو كثر .

*وهاتان خَلّتان داخلٌ فيهما جميعُ محابِّ العباد ومكارِهِهم . والنفسُ في طَبعها حُبُّ الراحة والدَّعَة والازديادِ والعُلُوِّ والعِزِّ والغَلَبةِ والاستطرافِ *والتنوُّقِ وجميعِ ما تَستلِذّ الحواسُّ مِن المناظر الحسنة والروائح العَبِقة *والطعوم الطيّبة والأصواتِ المُونِقة والملامِسِ اللذيذة ومما *كراهتُه في طباعهم أضدادُ ما وصفتُ لك وخلافُهُ

فهذه الخلالُ التي يجمعها *خَلّتانِ غرائزُ في الفِطَر وكوامِنُ في الطبع ، جِبِلّة ثابتة وشِيمة مخلوقة . *على أنّها في بعضٍ أكثرُ منها في بعض ، ولا يعلمُ *قدرَ القلّة فيه والكثرة إلاّ الذي دبّرهم . فلما كانت هذه طبائعَهم أنشأ لهم مِن الأرض أرزاقَهم وجعلَ في ذلك ملاذَّ لجميع حواسّهم ، فتعلّقت* به قلوبُهم وتطلّعت إليه أنفُسهم . فلو تركهم وأصلَ الطبيعة ـ مع ما مكّن لهم من الأرزاق المشتهاة في طبائعهم ـ صاروا إلى طاعة الهوى وذهب التعاطُفُ والتبارُّ . وإذا ذهبا كان ذلك سبباً للفساد

(١) ونقض من كان د ـ خلاف ء ـ (٤) < . . . > : سقط في ء د كما يظهر ـ (٤ ـ ٥) معه ء ـ كثر ذلك أو قل ء ـ (٦) وهاتان جملتان د ـ (٨) التنوق ، صححنا : التلون د ء ـ (٩) والطعم ذو الطيبة د ـ (٩ ـ ١٠) كراهيته في طبائعها ء ـ (١١) فهذه الخلال التي < وصفت لك > تجمعها ء ـ (١٢) إلا أنها ء ـ (١٣) [قدر] القلة [فيه] والكثرة ء ـ (١٥) [به] د ـ

وانقطاع التناسُل وفَناءِ الدنيا وأهلِها . لأنّ طبع النفس لا يَسلسَ بعَطيّةٍ قليلٍ ولا كثير مما حوته ، حتى تُعوَّض أكثرَ مما تُعطِي إمّا عاجلاً وإمّا آجلاً مما تَستلذُّه حواسُّها .

فعَلِمَ اللّهُ أنهم لا يتعاطفون ولا يتواصَلون *ولا ينقادون إلاّ بالتأديب ، وأنّ التأديب ليس إلا بالأمر والنهي ، *وأن الأمرَ والنهي غيرُ ناجعَين *فيهم إلاّ بالترغيب والترهيب اللذين في *طباعِهم . فدعاهم بالترغيب إلى جنّته وجعلها عِوَضاً مما تركوا في جَنبِ *طاعته ، وزَجَرَهم بالترهيب بالنار على مَعصيته وخوَّفهم بعقابها على ترك أمره . ولو تركهم جلّ ثناؤه *والطبع الأوّل جَرَوا على سَنَن الفِطرة *وعادةِ الشيمة ، ثم أقام الرَغبة والرَهبة على حدود العَدل وموازين النَصَفة ، وعدَّلهم تعديلاً متفقاً فقال ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ .

ثم أخبر *الله تبارك وتعالى أنّه غيرُ داخلٍ في تدبيره الخَلَلُ ولا *جائز عنده المحاباة ، ليَعمل كلُّ عامل على ثِقَة مما وَعَده وأوعده . فتعلّقت قلوبُ العباد بالرَغبة والرَهبة ، فاطّرد التدبير واستقامت السياسة ، لموافَقتها ما في الفِطرة وأخذِهما بمجامع المصلحة .

ثم جعل أكثر طاعته فيما تَستثقِل النفوسُ، وأكثرَ معصيته فيما تَلَذّ . ولذلك قال النبيُّ صلّى الله عليه وآله وسلم : « حُفّت الجنّة بالمكاره والنّار بالشهوات » ، *يخبر أنّ الطريق إلى الجنة احتمالُ المكاره والطريقَ إلى النار اتّباعُ الشهوات* . *فإذ كانوا لم يَصلحوا لخالقهم ولم ينقادوا لأمره إلاّ

(٤) [ولا ينقادون] ء ـ (٥) [وأن الأمر والنهي] ﻫ ـ (٦) [فيهم] ء ـ طبائعهم ء ـ (٧) طاعتهم ﻫ ـ (٩) والطباع ﻫ ـ وعادات ء ـ (١٢) [الله] ء ـ جائزة ء ـ (١٨) [يخبر ... الشهوات] ﻫ ـ (١٩) فإذا ء ـ

(٢ ـ ٣) سورة الزلزال ٧ ـ ٨ .

بما وصفتُ *لك من الرغبة والرهبة ، فأعجزُ الناس رأياً وأخطأهم تدبيراً وأجهلُهم بموارد الأمور ومصادرها مَن أمّل أو ظنّ أو رجا أنّ أحداً مِن الخلق ـ فوقَه *أو دونَه ـ يَصلح له ضميرُه أو يصِحّ له بخلاف ما دبّرهم الله عليه فيما بينه وبينهم . فالرغبة والرَهبة *أصلا كل تدبير وعليهما مدارُ كلّ سياسة عَظمَت أو صَغُرَت . فآجعلهما مِثالك الذي يُحتذَى عليه ورُكنَك الذي يُستند إليه .

(*)*وآعلم أنك *إن أهملتَ ما وصفتُ لك ، عرّضتَ تدبيرك للاختلاط . وإن *آثرتَ الهوينا واتّكلت على الكُفاة في الأمر الذي لا يجوز فيه إلاّ نَظَرُك ، *وزجّيت أمورَك على رأي مدخول وأصل غير محكم ، رجع ذلك عليك بما لو *حُكِّم فيك عَدُوُّك كان ذلك غاية أمنيته وشِفاءَ غيظه .

وآعلم أنّ إجراءَك الأمورَ مجاريَها واستعمالك الأشياءَ على وُجوهها ، يجمعُ لك أُلفة القلوب ويُعاملك كلُّ مَن عاملك بمودّةٍ *أخذاً وإعطاءً ، وهو على ثِقَة مِن *بَصَرك *بمواضع الإنصاف وعلمِك بموارد الأمور(*) .

وآعلم أنّ أَثَرَتَك على غير النَصيحة والشَفَقَة والحُرمة والكِفاية *توجِب المباعَدة وقلةَ الثِقة ممن آثرتَه أو آثرتَ عليه . فآعرت لأهل البلاء ممن جَرَت بينك وبينه مودّةٌ أو حُرمة ـ ممن فوقك أو دونك أو نظراءك ـ

---

(١) [لك] ه ـ (٣) أو دونه < أو من يظن ان > يصلح ه ، أو دونه يصبح له ضميره بخلاف ء ـ (٤) أصل لكل ء ـ (٧) اعلم م ـ إذا أهملت م ـ (٨) آثرت الهوينا على الكفاية التي لا يجوز فيها ء ـ على الكفاية في الأمر م ـ (٩) وركبت أمورك ء ، ورجيت أمرك م ـ (١٠) حكم < به > فيك ء ـ (١٣) أخذا واعطاء ، صححنا : أو أخذ أو إعطاء ه ، وأخذ واعطاء م ، في أخذ أو إعطاء ء ـ (١٤) نصرك ه م ـ بمواقع ه ـ (١٦) توجب < لك > ء ـ لأهل البلد ـ

(*ـ*) (١ ـ٧) واعلم ... الأمور : رواية م (٤) .

أقدارَهم ومنازلَهم ، *ثم لِتَكُن أمورُك معهم على قدر البلاء والاستحقاق . *ولا تُؤثر في ذلك أحداً بهوى ، فإنّ الأَثَرَة على الهوى توجبُ السَخطة وتوجبُ استصغارَ عظيم النعمة *ويُمحق بها الإفضالُ *وتَفسُد بها الطائفتان مَن *آثرت ومَن آثرتَ عليه .

امّا مَن *آثرت فإنه يَعلم أنّك لم تُؤثره بآستحقاق بل لِهَوىً فهو مترقّب أن ينتقل هواك إلى غيره *فتحول أُثَرَتُك حيثُ مالَ هواك . فهو مدخول القلب في مودّتك غيرُ آمِن لِتغيُّرك .

وأمّا من آثرتَ عليه بعد الاستحقاق منه ، فقد جعلتَ له السبيلَ إلى الطعن عليك وأعطيتَه الحُجّة على نفسك . فكلُّ من يَعمل على غير ثِقةٍ *عاد ما أراد به النَفعَ ضَرَراً *والإصلاحَ فساداً . وربما آثرَ الرَجلُ المرءَ مِن إخوانه بالعطيّة السنيّة *على بلاء أبلاه ، فيعظُمُ *قدرُه عنده ، حتى لعلّه تطيب نفسُه ببذل *ماله ودمه دونَه . *فإن أعطى مَن أبلى كبلائه وكانت له مثلُ *دالّته أكثر مما أعطاه ، انتقل *كلُّ محمود مِن ذلك مذموماً وكلُّ مستحسن *قبيحاً . *وكذلك الأمرُ في العُقوبة يجريان مجرى واحداً . *فاجعل العدلَ والنَصَفة في الثواب والعقاب *حَكَماً بينك وبين إخوانك ، فمن قدّمتَ منهم فقدِّمه *بالاستحقاق وبصحة النيّة في مودّته وخلوص

(١) ثم لم تكن امورك معهم بقدر د ـ (٢) ولا تؤثر في ذلك أحدا بهوى ، صححنا : ولا تؤثر في ذلك أخذ الهوى د ، ولا تؤثر أحدا في ذلك بهوى ء ـ (٣) ويمحى ء ـ وتفسد عليها د ـ (٤) آثرته ء ـ (٥) آثرته ء ـ (٦) فتتحول ء ـ (١٠) حال ما أراد ء ـ والاصلاح < فيه > فسادا ء ـ (١١) بلا بلاء د ـ فيعظم قدرها د ـ (١٢) ماله ونفسه ء ـ فان < من > أعطى د ـ (١٣) دلالته د ـ كل مذموم من ذلك محمودا د ـ (١٤) مستقبحا د ـ وكذلك ذلك د ـ (١٥) واجعل د ـ حاكما د ـ (١٦) على الاستحقاق بصحة د ـ

*نصيحته،مما قد بلوتَ من أخلاقه وشِيَمه وعلمتَ بتجربتك له أنّه يعلمُ أن صلاحَه موصولٌ بصلاحك، وعطبَه كائنٌ مع عطبك . ففوّض الأمر إليه وأشرِكه في خواصّ *أمورك وخفيِّ أسرارك . ثم آعرف له قدرَه في مجلسك *ومُحاورتك *ومُعاملتك ، في كلّ حالاتك ومُزَاولاتك ، في خَلَواتك معه* وبحضرة جُلسائك . فإنّ ذلك *زيادةً في نيّته وداعيةً لمن دونَه إلى التّقرب إليك بمثل نصيحته . (*)فإن *ابتُليتَ في بعض الأوقات بِمَن *يتقرّب بحرمة ويمُتُّ بدالّة ، يطلبُ المكافأة بأكثرَ مما يَستوجب ، فدعاك الكرمُ *والحياءُ إلى تفضيله على من *هو أحقُّ منه ، إما *خَوفاً من لسانه أو مُداراةً لغيره ، فلا تدع الاعتذارَ إلى *من فوقَه من أهل البلاء والنصيحة، وإظهارَ ما أردتَ من ذلك لهم . فإنّ أهلَ خاصتك والمؤتمنين على أسرارك ، هم شركاؤك في العَيش ، *فلا تستهيننّ بشيء من أمورهم . فإنّ الرجل قد يترك الشيءَ من ذلك آتّكالاً على حُسن رأي أخيه ، فلا يزالُ *ذلك يجرحُ في القلب *وينمو ، حتى يولِد ضِغناً ويحولَ عداوة . فتحفّظ من هذا الباب واحمل إخوانَك عليه بجُهدك .

وستجدُ *فيمن يتصل بك مَن *يغلبه إفراطُ الحرص وحُمَيّا الشره ولينُ جانبك له ، على أن يَنقم العافية ويطلبَ *اللحوق بمنازل *مَن ليس مثلَه

---

(١) نصيحته < لك > ممن قد بلوت في أخلاقه د - (٣) أمرك ء - (٤) ومحادثتك ء - (٤ - ٥) [ومعاملتك . . . معه] ء - (٥) زائد في نيتك وداع ء - (٦) بليت ء - (٧) يضرب ء - (٨) [والحياء] ء - [هو] د - (٨ - ٩) تخوفا د - من < هو> فوقه م - (١١) فلا تستهن ء - لا تستهينن م - (١٣) كذلك م - وينمى ء - (١٥) ممن يتصل بك ممن د ، من يتصل بك ممن م - من يعطيه ء - (١٦) اللحاق ء - من ليس < هو> مثله د -

---

(*-*) (١ - ١٦) فان ابتليت . . . صلاحه : رواية م (٥) .

ولا له مثل دالّته ، فتلقاه لما *تصنع به مُستقلّاً ولمعروفِك مستصغراً . وصلاحُ مَن كانت هذه حالُهُ بخلاف ما فَسَد عليه أمره . فاعرف طرائقهم وشِيَمهم ، وداوِ كلَّ مَن لا بدّ لك مِن مُعاشرته بالدواء الذي هو أنجعُ فيه : إنْ ليناً فليناً ، وإن شدّة فشدّة . فقد قيل في المثل :

مَن لا يؤدّبُه الجميلُ ففي عُقوبته صلاحُه(*)

*وقال بعضُ الحكماء : ليس بحكيمٍ مَن لم يُعاشر *مَن لا يجدُ مِن مُعاشرته بدًّا* بالعدل والنَصَفة ، حتى يجعل الله *له من أمره فرجاً ومخرجاً .

*فآحفظ هذه الأبوابَ التي يوجِبُ بعضُها بعضاً . وقد ضَمِنَت *لك أوائلُها كونَ أواخرها ، *فاعرفها واقتبسها ، وآعلم أنّه متى كان الأوّلُ منها وَجَب ما بعده لا بُدّ منه . فآحذر المقدّمات التي يَعقُبها المكروه ، وإحرِص على توطيد الأمور التي على أثرها السلامة ، *وألقح في البديِّ أموراً* *نِتاجها العافية . فمِن الأمور التي يوجِبُ بعضُها بعضاً : المنفعةُ توجب المحبّة ، والمضرّةُ توجب البَغضاء ، والمُضادّةُ تُوجب العَداوة ، وخلافُ الهوَى يوجب الاستثقال *ومتابعتُه توجب الأُلفة ، والصدقُ يوجب الثقة والكذبُ يورث * التُهَمة والأمانةُ توجب الطُمأنينة ، والعدلُ يوجب اجتماعَ القلوب والجَورُ يوجب الفُرقة ، وحُسنُ الخُلُق يوجب المودّة ، وسُوءُ الخُلُق يوجب *المباعدة ، والانبساطُ يوجب المُؤانسة ، والانقباضُ يوجب الوَحشة ،

(١) تصنع [به] مستقلا ء - (٦) وقد قال ء - (٦ - ٧) من لا بد له من معاشرته ء - (٧) له [من أمره] فرجا [ومخرجا] ﮃ - (٩) واحفظ ء - [لك] ء - (١٠) [فاعرفها] واقتبسها - (١٢) والقمح في يدي الأمور التي ﮃ - (١٣) نتائجها ء - (١٥) والمتابعة ء - (١٦) النميمة ﮃ - (١٨) التباعد ء -

*والكِبرُ *يورث المقتَ، والتواضعُ يوجب المِقَة ، *والجودُ بالقَصْد يوجب الحمد والبخلُ يوجب المذمّة ، والتّواني يوجب التضييع والجِدُّ يوجب رخاء *الأعمال ، والهُوينا تورث الحَسرة والحزمُ يورث السُرور ، والتغريرُ *يوجب النَدامة والحَذَرُ يوجب العُذر *وإصابةُ التدبير توجب بقاءَ النعمة ، والاستهانةُ توجب التَباغي والتباغي *مقدّمة الشرّ وسببُ البوار .

ولكلّ شيء *من هذه إفراط وتقصير . وإنّما تصحُّ نتائجها إذا أقيمت على حدودها . وبقدر ما يَدخُل من الخلل فيها يَدخل فيما يتولّد منها ، لا بدّ منه ولا مَزحَلَ عنه ، عليه عادةُ الخَلق وبه جَرَت طبائعُهم ، وتمامُ *المنفعة بها إصابةُ *مواضِعها . فالإفراطُ في الجُود يوجب التبذير ، والإفراط في التواضُع *يورث المذلّة ، والإفراطُ في الكِبر *يدعو إلى مَقتِ الخاصّة ، والإفراطُ في المؤانَسة يدعو خُلَطاءَ السُوء ، *والإفراطُ في الانقباض يوحشُ *ذا النَصيحة ، وآفةُ *الأمانة ائتمانُ الخانة ، وآفةُ الصدق تصديق الكَذَبة ، والإفراط في الحَذَر *يدعو إلى أن لا يُوثَق بأحد، وذلك ما لا سبيل إليه ، *والإفراطُ في المضرّة مَبعثةٌ على حَرْبك* ، والإفراطُ في جَرّ المنفعةِ غِناً لمن أفرطتَ في نفعه عنك .

وآحذر كلَّ الحَذَر أن *يختدعك الشَيطان عن *الحزم ، فيُمثّلَ لك

---

(١) موضع أكلة في د وكانها « والتكبر » - يوجب ء - (١ - ٢) والجود والفضل يوجبان ء - (٣) [الأعمال] ء - (٤) يورث ء - [وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة] د - (٥) مقدمات د - (٦) من هذا د - (٩) النعمة - موضعها ء - (١٠) يوجب ء - يدعو العقب د - (١١) والإفراط في < الحذر يدعو إلى أن لا يثق بأحد و > الانقباض د - (١٢) ذوي النصيحة ء - الائتمان د - (١٣ - ١٤) يدعو [إلى] ألا يثق ء - (١٤) [والإفراط في المضرة . . . حربك] د - (١٧) يخدعك ء - الحرص د -

---

(١٤) سورة النساء ٧١ والبقرة ١٩٥ .

التّواني في صورة التوكّل ويسلبَك الحَذَر ويورثَك الهُوينا بإحالتك على الأقدار . *فإنّ الله إنّما أمَرَ بالتوكّل عند انقطاع الحِيَل والتسليم للقَضاء بعد الإعذار . بذلك أنزل كتابه وأمضى سُنّتَه ، فقال خُذُوا حِذْرَكُمْ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَة . وقولُ النبيّ صلّى الله عليه *وآلِه وسلّم « إعقِلها وتوكّل » . وسُئل ما الحزمُ ؟ قال : الحذر . فتحفّظ من هذا الباب وأحكِم معرفتَه إن شاء الله تعالى .

واْعلم أنّ أكثرَ الأمور إنّما *هو على العادة وما تُضَرّى عليه النُفوس ، ولذلك قالت الحكماء : العادةُ أملكُ بالأدب . فَرُضْ نفسَك على كل أمرٍ محمود العاقبة *وضَرِّها بكلّ مَا لاَ يُذَمُّ من *الأخلاق ، يَصِرْ ذلك *طِباعاً ويُنسبْ إليكَ منه أكثرُ مما أنت عليه .

واْعلم أنّ الّذي يُوجب لكَ اسمَ الجود القيامُ بواجب الحقوق عند النوائب مع بعض التفضّل على الراغبين ، وإذا وجب لك اسمُ الجود زالَ عنك اسمُ البُخل .

واْعلم أنّ تثميرَ المال آلةٌ للمكارم وعَونٌ على الدِين ومُتألَّف للإخوان ، *وأنّ مَن قد فقد المال قلّت الرغبةُ إليه والرهبةُ منه ، ومن لم يكنْ بموضع رَغبةٍ ولا رهبةٍ استهان الناسُ *به . فاْجهدْ الجَهدَ كلّه ألّا تزالَ القلوبُ معلّقة منك برغبةٍ *أو رهبةٍ في دينٍ أو دنيا .

---

(٢) فإن الله <عز وجل> ء- (٤-٥) [وآله] ء- (٧) هي ء- (٩) ورضها ء- الاخلاص يصير ۞ - طبعا ء- (١٥) و[أن] من [قد] فقد ء- (١٦) بقدره ء- ورهبة ء-

---

(١٣-١٤) سورة الإسراء ٢٩ .

« واعلم أن تثمير المال . . . في دين أودنيا » . العقد الفريد ، الإشارة إلى محاسن التجارة ص٦٦ .

وآعلم أنّ السَرَف لا بقاءَ معه لِكثير ولا تثميرَ معه لِقليل ولا تَصلُحُ عليه دُنيا ولا دين. وتأدَّب بما أدّب الله به نبيَّه* فقال ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ . وقالت الحكماء : القَصدُ أبْقى للجِمام . فداوِم حالَك وبقاءَ النعمة عليك بتقدير *أمورِك على قَدرِ الزمان *بقدر الإمكان . فقد قال الشاعر :

مَن سابق الدَهرَ كَبا كَبوةً لم يَسْتَقِلْها مِن خُطَى الدَهرِ
فآخطُ مَعَ الدَهر* إذا ما خَطَا وآجرِ مَعَ الدَهر كما يَجري

وآعلم أنّ الصَمت في موضعه ربَّما كان أنفعَ من الإبلاغ بالمنطق في *موضعه وعند إصابة فُرصته ، وذلك صمتُك عند مَن يعلم أنّك لم تصمتْ عنه عِيًّا ولا رَهبةً . فليَزِدْك في الصَمت رغبةً ما ترى من *كثرةِ فضائح المتكلّمين في غير الفُرَص، وهَذْرِ مَن أطلق لسانَه بغير *حاجة .

وآعلم أنّ الجبنَ جُبنان والشجاعةَ شجاعتان ، *وليس تكونُ الشجاعة والجبنُ إلاّ في كلّ أمر لا يُدرَى ما عاقبتُه، يُخاطَر فيه بالأنفسِ والأموال . فإذا أردتَ الحزمَ في ذلك فلا تَشجُعنَّ نفسُك على أمر أبداً إلاّ والذي ترجو من نفعه في العاقبة أعظمُ ممّا تَبذلُ فيه *في المُستقبَل ، ثمّ يكونُ *الرّجاء في ذلك أغلبَ عليكَ من الخوف . وها هنا موضعٌ يُحتاج فيه إلى النَظر : فإن كان ذلك أمراً واجباً في الدين، أو خوفاً لعارٍ تُسَبُّ به الأعقابُ، فأنت

(٢) وتاديب الله فيه ما ادب به نبيه صلى الله عليه وسلم ᗡ - (٥) أمرك ء - وبقدر ء - (٧) على ما خطا ء - (٩) في < غير > موضعه ᗡ - (١٠) [كثرة] ء - (١١) حاجته ء - (١٢) وليست الشجاعة ء - (١٥) من المستقبل ᗡ - (١٥-١٦) الرجاء اعظم ذلك ᗡ -

الشاعر هو أبو العتاهية ، كما روى البيتان عنه في البيان والتبيين ٤ : ٢١ وفي الأغاني (٤ : ٨٨) مع بيتين آخرين .

معذورٌ *بالمُخاطرة فيه بنفسِك ومالِك . وإن كان *أمراً تعظُمُ منفعتُه للدُّنيا إلاّ أنّك لا تنالهُ إلاّ بالخِطار بمُهجة نفسك أو بتعريضِ كلّ مالِك للتّلَف ، فالإقدامُ على مثل هذا ليس بشجاعةٍ ولكن حماقة بيِّنة عند جميع الحكماء . وقد قالت *علماءُ أوائل الناس : لا يُرسِل السّاقَ إلاّ *مُمسكاً ساقاً . وقالوا : لا تُخرج الأمرَ كلّه من يدك وخذ بأحد جانبيه . ثمّ الشجاعةُ والجبنُ في ذلك بقدر الحالات والأوقات .

وآعلم أنّ أصلَ ما أنت مُستظهِرٌ به على عدوِّك ثلاثُ خِلال : أشرفُها أن تأخذَ عليه بالفَضل وتبتدئَه بالحُسنى ، فتكونَ عليه رَحمةً ولنفسك ناظراً ، فإنّ كثرةَ الأعداء تنغيصٌ للسرور . وقد قال الله تباركَ وتعالى ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ . فإن كان عدوُّك ممّن لا يصلُح على ذلك ، فحصِّن عنهُ أسرارَك وعَمِّ عليه *آثارَ تدبيرك ولا يطَّلِعَنَّ على شيءٍ من *مَكايدِكَ له بقولٍ ولا فعل ، فيأخذَ حِذْرَه ويعرفَ مواضعَ عوارك . فإنّ تحصينَ الأسرار أخذٌ بأزِمّة التدبير *وإكثارُ الوعيد للأعداء فَشَلٌ ، ولكنْ داجِ عدوَّك ما دَاجاك وأحصِ معايبه *ما لاحاك . وقال الشاعر :

كلٌّ يُداجي على البَغضاء صاحبَه ... زَكِنتُ منهم على مِثل الذي زَكِنُوا*

وآعلم أنّ أعظمَ أعوانك عليه الحججُ *ثم الفُرصة . ثم لا تُظهرنّ

---

(١) في المخاطرة ء ـ أمر ء ـ (٤) علماء الأوائل ء ـ ممسك ﻫ ـ (١٢) [آثار] ء ـ مكايدتك ﻫ ـ (١٤) والاكثار من الوعيد للأعداء ء ـ (١٥ ـ ١٦) [ما لاحاك . . . زكنوا] ء ـ (١٧) [ثم الفرصة] ﻫ ـ

« لا يرسل الساق إلا ممسكاً ساقاً » هو عجز بيت لأبي دؤاد الايادي صدره « إني أتيح له حرباء تنضبة »(عيون الأخبار ٣ : ١٩٢) .

(٢ ـ ٣) سورة فصلت ٣٤ .

كل يداجي على البغضاء . . .

صدر هذا البيت في اللسان : « ولن يراجع قلبي ودهم أبداً .

وهو منسوب فيه إلى قعنب ابن أم صاحب ، من شعراء الحماسة ، في زمان الوليد بن عبدالملك .

عليه حُجَّةً، ولا تَهْتبلْ منه غِرّةً، ولا تطلبنّ له عَثرةً، ولا تهتكنّ له سِتراً، *إلّا عند الفُرصة في ذلك كلّه وفي المواضِع التي يجبُ لك فيها العذرُ ويعظمُ فيها ضَرَرُه. هذا إن كان العفوُ عنهُ شرًّا له. وإن كان ممّن يُظهر لك العَداوة ويكشفُ لك قِناعَ المحاربة وكان ممّن أعياك استصلاحُه بالحِلم والأناة، فلتكن في أمره بَينَ حالين: *استبطانِ الحَذَر منه والاستعدادِ له، وإظهارِ الاستهانةِ به. ولستَ مستظهراً عليه بمثل طَهَارتك من الأدناس وبراءَتِك من المعايب. فلتكن هذه سيرتُك في أعدائك.

وآعلم أنّ إشاعة الأسرار فسادٌ في كلّ وجهٍ من الوجوه *من العدوّ والصَديق. وقد رُويَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اسْتعينوا عَلَى الحَوائج بسَترها، فإنّ كلَّ ذي نِعمةٍ محسود».

وإذا أفشيتَ سرَّك فجاءت الأمورُ على غير ما تُقدِّر كان ذلك منكَ فضلاً من قولك على فعلك. وقد قيل *في الأمثال: مَن أفشى سرَّه كثُر *المتآمِرون عليه. *فلا تَضَعْ سرَّك إلّا عندَ من يضرُّه نَشرُه كما يضرّك، وينفعُه *سَترهُ بحسب ما ينفعُك.

وآعلم أنّك تَستصحِبُ من الناس *أجناساً متفرّقةً حالاتُهم متفاوتةً منازلُهم، *وكلُّهم بك إليه حاجة وكلُّ طائفةٍ تسدُّ عنك كثيراً من المنافِع لا تقومُ به مَن فَوقها، ولعلَّهم مجتمعون على نصيحتك والشَفَقةِ عليك. فمنهم من تريدُ منه الرأيَ والمشُورة *ومنهم مَن تريده للحفظِ والأمانة*

---

(١) [إلا] ↄ - (٥) استظهار ء - (٧) والعدو ↄ - (١١-١٢) [وإذا أفشيت ... على فعلك] ء - (١٢) في < مثل من > الأمثال ء - (١٣) المتمادون ء - ولا ء - [نشره] ء - (١٤) نشره ↄ - (١٥) أصنافا ء - (١٦) [و] كلهم ء - (١٨) [ومنهم ... والأمانة] ↄ -

ومنهم مَن تريدُه للشدّة والغلظة ومنهم مَن تريدُه للمِهنة ، وكلٌّ يسدّ مَسدَّه على حِياله . وقد قيل في الحكمة : إنّ الخلالَ تنفعُ حيثُ لا ينفعُ السيف . ولا تُخلينّ أحداً *منهم ـ عظُم قدرُه أو صغُرت منزلتُه ـ مِن عِنايتك وتعهُّدِك ، بالجزاءِ *على الحَسَنة والمعاتبةِ عند العَثْرة ، لِيَعلموا أنّهم منك بمرأى ومسمعٍ . ثم لا تجوزنّ بأحدٍ منهم حدَّه ولا تُدخلْه فيما لا يصلُح له ، يستقمْ لك حالُه *ويتّسق لك أمرُه .

واْعلم *أنْ سيمرُّ بك *في معاملاتِ الناس حالاتٌ تحتاجُ فيها إلى مُداراةِ *أصنافِ الناس وطبقاتِهم ، يبلغُ بك غايةَ الفضيلةِ فيها وكمالَ العقل والأدب منها ، أن تسالمَ أهلَها وتملكَ نفسَك عن هواها *وتكفَّ عن جِماحها ، *بأمرٍ لا يُحرجُك في دينك ولا عِرضك ولا بدنك ، بل يفيدك *عِزَّ الحِلم وهَيْبةَ الوقار . وهي أمورٌ مختلفة تجمعها حالٌ واحدة : منها أن تأتيَ مَحفِلاً فيه *جمعٌ من الناس ، فتجلسَ منهُ دونَ الموضع الذي تستحقّه ، حتّى يكونَ أهلُه *الذين يرفعونك فتظهرَ جلالتُك وعِظَمُ قدرِك . ومنها أن يُفيضَ القومُ في حديثٍ عندك منهُ مِثلُ ما عندهم أو أفضل ، فيَتَنافسون في إظهارِ ما عندهم . فإن نافستَهم كنتَ واحداً منهم ، وإن أمسكتَ اقتَضَوْكَ ذلك ، فصِرتَ كأنّك ممتنٌّ عليهم بحديثِك ، وأنصتوا لكَ ما لم يُنصِتوا لغيرك . ومنها أن *يَتَمارى جُلَساؤك ، والمِراءُ نتاج اللّجاجة وثمرةُ أصلها الحميّة ، فإن ضبطتَ نفسَك كان تحاكمُهم إليك ومعوَّلُهم عليك .

---

(٣) [منهم] ء ـ (٤) عند ء ـ (٦) يتفق ۞ ـ (٧) أنه ء ـ مع معاملات ۞ ـ (٨) اختلاف ۞ ـ (٩) لعل الصواب : وتكف من ـ (١٠) بالأمر الذي لا ء ـ (١١) عن ۞ ـ (١٢) جماعة ء ـ (١٣) [الذين] ۞ ـ (١٧) تمارى ء ـ

وآعلم أنّ طبعَ النُفوس ـ *إذ كان على حُبِّ العُلُوّ والغَلَبة ـ أنّ في تركيبها بُغضَ مَن استَطالَ عليها . فآستدْعِ محبّةَ العامّة بالتواضع، ومودّةَ الأخلّاء بالمؤانَسةِ والاستشارةِ والثقةِ والطُمأنينة .

وآعلم أنّ الذي تُعامِل به صديقَكَ هو ضدُّ ما تُعامِل به عدوَّك ، فالصديقُ وجه معاملتِه المسالمة، والعدوُّ وجه مُعاملته المُدَاراة *والمواربة ، *والمسالمة والمُدَاراةُ هما ضدّانِ يتنافيان *يُفسدُ هذا ما أصلَحَ هذا* ، *وكلما نقصتَ من أحد البابين* زادَ في صاحبه ، إنْ قليلٌ فقليل وإن كثيرٌ فكثير . فلا تسلمُ *بالموازبة صَداقة *ولا تظفرُ بالعدوّ مع الاستسلام إليه . فضع الثقةَ موضِعَها وأقِم الحذَرَ *مُقامه وأسرِعْ إلى التفهُّم بالثّقة *ولا تبادر إلى التَصديق ولاسيَّما بالمحال من الأمور .

وآعلم أنّ كلَّ علمٍ *بغائب ـ كائناً ما كان ـ إنّما يُصابُ مِن وُجوه ثلاثة لا رابعَ لها ، ولا سبيلَ لك ولا لِغيرك إلى *غايةِ الإحاطات لاستِئثار الله بها . ولن تَهنأ بعيشٍ مع شدّة التحرّز ولن يتّسق لك أمر مع التَضييع . فآعرف أقدار ذلك .

فما غاب عنك ممّا قد رآه غيرك *مما يُدرك بالعِيان ، فسبيلُ العلم به الأخبارُ المتواترة التي يحملُها الوليُّ والعدوُّ والصالح والطالح المُستفيضةُ في الناس ، فتلك لا كُلفَةَ على سامعها من العِلم بتَصديقها . فهذا الوجهُ يستوي فيه العالِم والجاهل .

---

(١) إذ كان ، صححنا : إن كان ‎ﻕ ، إذا كان ء ـ (٥ ـ ٦) [والموازبة] ء ـ [والمسالمة والمداراة] ـ (٦) صلاح هذا ما أفسد هذا ء ـ (٧) وكلما نقص من أحدهما ء ـ (٧ ـ ٨) بالمداراة ‎ﻕ ـ (٨) فلا ـ (٩) مكانه ء ـ ولا تبادرن ء ـ (١١) [بغائب] ء ـ (١٢) غايات ء ـ (١٥) [مما يدرك] ء ـ

وقد يجيءُ خبرٌ *أخصّ من هذا ، إلاّ أنّه لا يُعرَف إلاّ بالسُؤال عنه والمفاجأةِ لأهله . كقومٍ *نقلوا خبراً ، *ومثلُك يحيطُ علمُه أنّ مثلهم في تفاوتِ أحوالهم وتباعدِهم من التَعارف *لا يمكنُ في مِثله التواطؤ ، وإن جَهِلَ ذلك أكثرُ النَاس . وفي مثلِ هذا الخبر *يمتنعُ الكَذِب ولا يتهيّأ الاتّفاق فيه على الباطل .

وقد يجيء خبرٌ أخصُّ من هذا يحملُه الرَجلُ والرَجلان ممن *يجوز أن يَصدُقَ ويجوز أن يكذب . فصِدقُ هذا الخبر في قلبك إنما هو بحسنِ الظنّ بالمُخبِر والثِقة بعدالته . ولن يَقومَ هذا *الخبر من قلبك ولا قلبِ غيرك مَقامَ الخبرين *الأوّلين . ولو كان ذلك كذلك بَطَل التَصنُّع بالدِّين واستوى الظَاهرُ والباطنُ من العالمين .

ولمّا أن كان موجوداً في العُقول أنّه قد يُفتَّشُ بعضُ الأُمَناء عن خِيانة وبعضُ الصادقين عن كَذِب ، *وأنّ مثلَ الخبرين الأوّلين لم يتعقّب الناسُ في مِثلهما كذباً قط ، *عُلِمَ أنّ الخبرَ إذا جاء *من مِثلهما جاء *مجيءَ اليقين ، وأنّ ما عُلم من خبر الواحد فإنّما هو بحسن الظنّ والائتمان . *هذه الأخبارُ عن الأمور التي تُدركها الأبصارُ .

فأمّا العلمُ بما غابَ ممّا لا يُدركه أحدٌ بعيان ، مثلُ سرائرِ القلوب وما أشبهها ، فإنما يُدرَكُ علمُها بآثار أفاعيلها *وبالغالبِ من أمورها على غير إحاطة كإحاطة الله بها .

---

(١) أصح ڧ ـ (٢) فعلوا خيرا ڧ ـ وعلمك محيط ء ـ (٣) لا يكون ء ـ (٤) يشنع ء ـ
(٦) < لا > يجوز ء ـ (٨) [الخبر] ڧ ـ (٩) الأولين < أبدا > ء ـ (١٢) أو مثل ڧ ـ
(١٣) على ڧ ـ مجيء ء ـ على اليقين ء ـ (١٥) بهذه ڧ ـ (١٧) وبالغائب ڧ ـ

*وأوّل العلمِ بكلّ غائب الظُّنون . والظُّنونُ إنّما تقعُ في القلوب بالدلائل ، فكلّما زاد الدّليلُ قوِيَ الظّنُّ حتّى ينتهيَ إلى غايةٍ تزولُ معها الشُّكوكُ عن القلوب ، وذلك لِكثرة الدلائل *ولِترادُفها .

فهذا غايةُ علم العباد بالأمور الغائبة* . (*) فمن عَرَفَ ما طُبع عليه الخلقُ وجرت* به عاداتُهم وعَرَفَ أسبابَ اتصالهم واتّصالِه بهم وتقصَّى* عِلَلَ ذلك ، كان خليقاً ـ إن لَم يُحِطْ بعلمِ ما في قلوبِهم ـ أن يقعَ مِن الإحاطةِ * قريباً .

(**)واعلم أنّ المقاديرَ ربَّما جَرَت بخلافِ ما يُقدِّر الحكماء ، فنالَ *بها الجاهلُ في نفسه المختلِطُ في تدبيره ، ما لا ينالُ الحازمُ الأريبُ الحَذِر . فلا يدعُوَنّك ما ترى من ذلك إلى التّضييع والاتّكال على مثلِ تلك الحال ، فإنّ الحُكماء قد أجمعتْ أنّ مَن أَخذَ بالحزمِ وقدَّم الحَذَرَ ، فجاءتْ المقاديرُ *بخلاف ما قدَّر ، كان عندهم أحمدَ رأياً وأوجبَ عُذراً ممَّن عَمِل بالتفريط ، وإن اتّفقت له الأمور على ما أراد . *ولعمري ما يكاد *ذلك يجيءُ إلاّ في أقلّ الأمور . *وما كثُر مَجيءُ السّلاماتِ إلاّ لِمَن أتى الأمورَ* مِن وجوهِها . وإنّما الأشياءُ بعوامِّها* .

فلا تكونَنّ بشيءٍ ممّا في *يَدِك أشدَّ ضِنًّا ولا عليه أشدَّ حَدَباً منك

---

(١) وأوائل ء ـ (٣) [ولترادفها . . . الغائبة] د ـ (٥) عليه ء ـ على ذاك د ـ (٦) قريباً من الإحاطة ء ـ (٨) [بها] د ـ (١١) خلاف م ـ (١٢) [ولعمري . . . بعوامها] م ـ (١٣) يجيء ذلك ء ـ [وما كثر . . . الأمور] د ـ (١٥) يديك د ـ

(*) ص ٢٦ ، ١ ـ ٢٧ ، ١١ [فمن عرف . . . والله يوفقك] : انتقل في د إلى ما يلي « والمواظبة عليه » ٣٦ ، ٢ .

(**) واعلم . . . المهذب (ص ٢٧ س ٧) رواية م ٦ .

بالأخِ الذي قد بلوْتَه *في السَرّاء والضَرّاء ، *فعَرَفتَ مذاهبه *وخبرتَ شِيَمه وصحَّ لك غَيبُه وسَلِمَت لك ناحيتُه . فإنّما هو *شقيقُ رُوحك وباب الرَوْح إلى حياتك ومُسْتَمَدُّ رأيك *وتوأَمُ عقلك . ولستَ منتفعاً بعَيشٍ مع الوحدة ولا بدّ من *مؤانسةٍ . وكثرةُ الاستبدالِ تهجُم بصاحبه على المكروه . *فإذا صفا لك أخٌ فكُنْ به أشدّ ضِنًّا مِنكَ بنفائس أموالك ، ثمّ لا يُزْهِدنّك فيه أن ترى منه خُلُقاً أو خُلُقين تَكرَهُهما ، فإنّ نفسَك التي هي أخصُّ النُفوسِ بكَ لا تُعطِيك المَقادَة في كلِّ ما تُريد ، فكيف بنفسِ غيرِك . ويَحسبِك أن يكون لك من أخيك أكثرُه ، وقد قالت الحُكماء : مَن لكَ بأخيك كلّه ، وأيُّ الرّجال المهذَّب . ثمّ *لا يمنعْك ذلك من الاستِكثار مِن *الأصدقاء ، فإنّهم جُنْدٌ مُعَدُّون لك ينشرون محاسنَك ويُحاجُّون عنك . ولا يحملنّك استطرافُ *صديقٍ ثانٍ على *مَلالة الصديق الأوّل ، فإنّ ذلك سبيلُ أهل الجَهالة ، مَع ما فيها من الدَناءَة *وسُوء *التَدبير وزُهدِ *الأصدقاء جميعاً في إخائك ، والله *يوفّقك .

وستجدُ في الناس مَن قد جرَّبته الرجالُ قَبلَك ومَحَضَه اختبارُهم لك . فمن كان مَعروفاً بالوفاءِ في أوقاتِ الشِدّة وحالات الضَرورة فنافِس فيه وآسبِقْ إليه ، فإنّ اعتقادَه أنفسُ *العُقدة . ومَن بلاهُ غيرُك فكُشِف عن كُفر النعمة والغَدر عند الشِدّة ، فقد حَذّرك نفسَه وإن آنسَك ، وكما غَدَر بغيرك يغدر بك . فإنّ مَن شِيمتُه الوفاءُ يَفِي للصَديق والعدوّ ، ومَن طبيعتُه الغَدر *لا

(١) بالسراء م ـ [فعرفت مذاهبه] د ـ واختبرت ء ـ (٢) شق ء ـ (٣) يوم غفلتك ء ـ (٤) المؤانسة م ـ فان م ـ (٩) لا يمنعنك ء ـ الصديق ء ـ (١١) الصديق على د ـ (١٢) سوء ء : تفنن د ـ النذير ء ـ الصديقين د ـ (١٣) موفقك ء ـ (١٦) العقد ء ـ (١٨) لا يفي لأحد

يَدوم ، وإنّما يميلُ مع الرُجحان ، *يَذِلُّ عند الحاجة ويَشمَخُ مع الاستغناء . فآحذَر ذلك أشدَّ الحَذَر .

وآعلم أنّ الحكماء لم تَذُمَّ شيئاً *ذَمَّها أربعَ خِلال : الكَذبَ ، فإنه جِماعُ كلّ شرّ . وقد قالوا : لم يكذبْ أحدٌ قطُّ إلّا لصِغَرِ قَدرِ نفسِه عندَه . والغضبَ ، فإنّه لُؤمٌ وسُوءُ مَقدُرة . وذلك أنّ الغضب ثمرةٌ لخلافِ ما تهوى النَفس ، فإن جاء الإنسانَ خلافُ ما يهوَى مِمّن فوقه أغضى وسمّى ذلك حُزْناً ، وإن جاءه ذلك مِمّن دونه حمله لؤمُ النَفس وسوءُ الطِباع على الاستطالة بالغضب والمقدرة *بالبَسطة . والجَزَعَ عند المُصيبة التي لا ارتجاعَ لها ، فإنّهم لم يجعلوا لصاحبِ الجزعِ في *مِثل هذا عُذراً ، لما يتعجّل من غمِّ الجزع ، مع عِلمِه بفَوتِ المجزُوعِ عليه . وزعموا أنّ ذلك من إفراطِ الشرَه ، وأنّ أصلَ *الشرَه والحَسَد واحد وإن افترق فرعاهما . وذَمُّوا الحسَدَ كذَمِّهم الجزَع ، لِما يتعجّل صاحبُه من *ثِقَل الاغتمام وكُلفة مُقاساة الاهتمام ، من غير أن يكون عليه في ذاك شيء . فالحسدُ آغْتِمامٌ والغَدْرُ لؤمٌ . وقال بعضُ الحكماء : الحسدُ خُلقٌ دَنِيء ، ومِن دَناءته أنه يبدأُ بالأقربِ فالأقرب . وزعموا أنه لم يَغدر غادِرٌ قَطّ إلّا لِصغَر همّته عن الوَفاء وخمولِ قَدرِه عن احتمالِ المكاره في جنب نَيل المكارم .

وبقدرِ ما ذمّت الحكماءُ *هذه الأخلاق الأربعة* فكذلك حَمِدتْ أضدادَها من الأخلاق ، فأكثرتْ في تفضيلِها *الأقاويل وضرَبَت فيها الأمثالَ ، وزعمتْ أنّها أصلٌ لكلّ كَرَم وجِماعٌ لكلّ خَير ، وأنّ بها تُنالُ جِسام الأمور *في الدُنيا والدين* . فآجعل هذه الأخلاق إمَاماً لك ومَثَلاً بين

(١) [يذل] في وقت الحاجة ء - (٣) < قط> ء - (٨) بالبطش ء ، العبارة غير مستقيمة ولعل صوابها : « والمقدرة والبسطة على البطش » - (٩) [مثل] ء - (١١) الشر ء - (١٢) [ثقل] ء - (١٧) من هذه الأخلاق الثلاثة ۞ - (١٨) الأوائل ء - (٢٠) في الدين والدنيا ء -

عينيك وَرُض عليها نفسَك وحَكِّمها في أمرك ، تَفُزْ بالرَّاحة في *العاجل والكرامة في الآجل .

والصَّبرُ صَبران ، فأعلاهما أن تَصبِرَ *على ما ترجُو فيه الغُنْمَ في العاقبة . والحِلمُ حِلمان ، فأشرفُهما حِلمُك عمَّن هُوَ دونَك . والصِدقُ صِدقان ، *أعظمُهما صِدقُك فيما يَضرُّك . والوفاءُ وفاءان ، *أَسناهُما وفاؤُك لِمَن لا ترجوه ولا تخافه . فإنّ مَن عُرِفَ بالصِدق صار الناسُ له أتباعاً ، ومن نُسِب إلى الحِلم أُلبس ثَوبَ الوقار والهيبةِ وأُبَّهَةِ الجلالة ، ومن عُرِف بالوفاء *استنامت إلى الثقة به الجماعاتُ* ، ومَن *استعزَّ بالصَبر نال جسيماتِ الأمور . ولَعَمري ما *غَلِطَت الحكماءُ حينَ سَمَّتْها أركانَ الدِّين والدُّنيا . فالصِدقُ والوفاءُ *توأمان والصبرُ والحلمُ *توأمان ، *فبهنّ تمامُ كلّ دين وصلاحُ كلّ دنيا ، وأضدادُهنّ سَبَبُ كلّ فُرقةٍ وأصلُ كلّ فسادٍ .

وآحذرْ خَصلةً رأيتُ الناسَ قد استهانوا بها وضيَّعوا النظرَ فيها ، مع اشتمالها على الفساد وقدحِها البغضاءَ في القُلوب والعداوةَ بين الأوِدَّاءِ : المُفاخرةَ بالأنساب . فإنّه لم يَغلط فيها عاقلٌ قطُّ ، مع اجتماعِ *الإنسِ جميعاً على الصُورة وإقرارِهم جميعاً بتفرُّق الأمور المحمودة *< والمذمومة > ، من الجمالِ والدّمامة واللؤمِ والكَرَم والجُبنِ والشجاعةِ في كلّ حين ، وانتقالِها من أُمّة إلى أُمّة ، ووجودِ كلّ محمودٍ ومذموم في أهل كلٍّ جنس من الآدميّين . وهذا غيرُ مدفوعٍ عند الجميع .

---

(١) العاجل < والآجل > ۞ - (٣) في كل ما ترجو ء - (٥) فاعظمهما ء - أشناهما - (٨) استقامت بالثقة به الجماعة ۞ - استعان ء - (٩) غلطت < فيها > ء - (١٠) توأم (مرتين) - منهن ء - (١٤) الألسن ء - (١٦) < والمذمومة > ، أضفنا : [ ] ۞ ء -

فلا *تجعلنّ لهُ من عَقلِك نصيباً ولا من لسانك حَظًّا ، *تَسْلَمْ بذلك على الناس أجمعين مع السَلامة في الدين .

(*)وآعلم أنّك موسومٌ بسيما مَن قارنتَ ومنسوبٌ إليك أفاعيلُ مَن صاحبتَ ، فتحرَّز من دُخلاء *السُّوء ومجالسةِ* أهلِ الرِيَب . وقد جَرَتْ لك في ذلك الأمثال وسُطِّرت *لك فيه الأقاويل ، فقالوا : المرءُ حيثُ يَجعلُ نفسَه . وقالوا : يُظَنُّ بالمرء *ما يُظَنُّ بقرينه . وقالوا : المرءُ *بِشكله والمرءُ بأليفه . ولن تقدرَ على التحرُّز من *جماعة الناس ، ولكنْ أقِلَّ المؤانسةَ إلّا بأهل البَراءة من كلّ دَنَسٍ .

وآعلم أنّ المرءَ بقدرِ ما يَسبِقُ إليه يُعرَف وبالمستفيض مِن أفعالِه يوصف ، وإن كان بينَ ذلك كثيرٌ من *خلافِه ألغاةُ الناس وحكموا عليه بالغالب من أمره . فآجهدْ أن يكونَ أغلبُ الأشياء *على أفاعيلك ما* تَحمَدُه العوامُّ ولا تَذُمُّه الجماعاتُ ، فإنّ ذلك يُعَفّي على كلّ خَلَلٍ إنْ كان . فبادِرْ ألسنَةَ النَاس فاشغلها بمحاسِنك فإنّهم إلى كلّ *شيء سِراعٌ . وآستظهِرْ على مَن دُونك بالتفضُّل *وعلى نُظَرائك بالإنصاف وعلى *مَن فوقَك بالإجلال ، تأخذْ بوثائقِ الأمور وأزمّةِ التّدبير.

وآعلم أنّ كثرةَ العِتاب سَبَبٌ للقطيعة واطّراحَه كلَّه دليلٌ على قلّةِ

(١) تجعل ء ـ فتسلم ء ـ (٤) السوء < واظهر > مجانبة ء ـ (٥) [لك] م ـ (٦) ما ظن ـ بشكيله ء ـ (٧) جماعات ء ، [جماعة] م ـ (١٠) افعاله ء ـ (١١) عليك أفاعيلك كلما ، على أفعالك ما م ـ (١٣) شر م ـ (١٤) [وعلى نظرائك] ق ـ < كل > من م ـ

(*) (٣ـ١٥) واعلم . . . التدبير : رواية م (٧) .

الاكتراث *بأمرِ الصديق ، فكُنْ فيه بينَ أمرين : عاتِبْه فيما تشترِكان في نفعِه وضُرِّه وذلك في *الهَنات ، وتَجافَ له عن بعضِ غَفَلاتِه تَسْلمْ لك ناحيتُه . وبحسَبِ ذلك فكُنْ في زيارته ، فإنَّ الإلحاحَ في الزيارة يَذهبُ بالبهاء وربّما أورثَ *الملالة ، وطولُ الهِجرانِ يُعقِبُ الجَفوةَ ويَحُلُّ عقدةَ الإخاء ويجعلُه صاحبُه *مَدرجةً لِلقطيعة . وقد قال الشاعر :

إذا ما شئتَ أن تَسلَى حبيباً   فـأكثِرْ دونَـه عَـدَدَ اللّيـالي
فما يُسلِي حبيبَك مثلُ نأيٍ   ولا يُبلِي جـديدَك كـآبتـذالِ

*وآقتصِدْ في مِزاحك ، فإنّ الإفراطَ فيه يَذهبُ بالبهاء ويُجَرِّىءُ عليك أهلَ الدّناءة ، وإنّ التقصير *فيه يقبضُ عنك المؤانسين . فإن مزحتَ فلا تمزح *بالذي يسوءُ مُعاشريك .

وأنا أوصيك بخُلُقٍ قلّ مَن رأيتُه يتخلّقُ به ، وذاك أنّ مَحمِلَه شديد ومُرتقاه صَعب ، وبحسَبِ ذلك يورِث الشرفَ وحميدَ الذِكر : ألاّ يُحدِثَ لك انحطاطُ مَن حطّت الدنيا من إخوانك استهانةً *به ولا لحقِّه إضاعةً ولِما كنتَ *تعلمُ من قَدْره استصغاراً ، بل إنْ زدتَه *قليلاً كان أشرفَ *لك وأعطفَ للقُلوب عليك . ولا يُحدِث لك ارتفاعُ من رَفَعَت الدنيا منهم تَذَلُّلاً وإيثاراً له على نُظَرائه في الحفظ والإكرام ، بل لو انقبضتَ عنهُ كان مادحُك أكثرَ مِن ذامِّك وكانَ هُو أولَى بالتعطُّف عليك . إلاّ أن يكونَ مُسلَّطاً تَخافُ *شذَاتَه ومَعَرَّته وترجو عندَه جَرَّ منفعةٍ لصديق أو دَفْعَ مضرَّةٍ عنه أو كَبتاً لعدوٍّ

(١) إلا من ق - (٢) الهينات ق - (٤) الملال ء - (٥) درجة - (٧) فما يسلى . . . كابتذال :

وزر غبـا إذا أحببـت خـلا   فتحظى بالوداد مـع اتصـال ء

(٨) واقصد ء - (٩) عنه ء - (١٠) إلا بالذي يسر ء - (١٣) [به] ء - (١٤) تعرف ء - [قليلاً] - [لك] ء - (١٨) شذاه -

« إذا ما شئت أن تسلي . . . . » .
البيتان مرويان في الحماسة غير منسوبين (شرح المرزوقي ، القسم الثالث ص ١٣٠٠) .

وإنزالَ هوانٍ به . فإنّ السُلطانَ وخُيَلاءَه وزهوَه يُحتملُ فيه ما لا يجوزُ في غيره ويُعذَرُ فيه ما لا يُعذَرُ في سِواه .

*وآعلم أنّ نشرَ محاسنِك لا يليقُ بك ولا يُقبَلُ فيك ، إلّا إذا كان القولُ لها على ألسُنِ أهلِ المُروءاتِ وذَوي الصِدق والوفاء ، ومَن ينجعُ قولُه في القُلوب ، ممّن يُستنامُ إلى قوله ويُصدَّقُ خبرُه ، وممّن إن قال صَدَق أو مَدَح اقتصد ، يثنى بقدر البلاء ، فإنّ إسرافَ الثَناء على قدر النِعمة يولّد في القلوب التكذيب ويَدُلُّ على طلب *التزايُد . *فأمّا ثَناءُ المادحين لك في وجهك ، فإنّما تلك أسواقٌ أقاموها للأرباح وساهَلوك في المُبايعة ، ولم يكنْ في الثَناء عليهم كُلفة ، لكسادِ أقاويلهم عند الناس . أولئك الصادّون عن طُرُق المكارم والمثبِّطون عن ابتناء المعالي . فارْتَدْ لِنِعَمِك مَغْرِساً تنمو فيه فروعُها وتزكو ثمرتُها ، لا تَذهبْ نفقتُك ضَياعاً ، إمّا لعاجلٍ تُقَدِّمُه أو لآجِلِ ثناءٍ تَنتفعُ به* .

ولن تَعْدَمَ أن يَفجأك في بعض أحوالِك حقوقٌ تبهظك *وأحوال تَفدحُك وأمورٌ كلُّها تَتَقسّمُ *عِنايتَك وفي التثبُّت في مثلها تُعرَفُ فضيلتُك . *فلا تستقبلها بالتضجُّع *وتَغبين الرأي ، *وآبدأ منها بأَعظمِها مَنفعةً وأشدِّها خوفَ ضَرَرٍ ، وَكِلْ ما أعجزَك إلى الكُفاة وآعتذِر مِن تقصيرٍ إن كان ، *فإنّ الاعتذار يكسِرُ حُمَّى* اللائمة ويردَع شَذاةَ الشِرّة . ثمّ تَلافَ بعدَ *انكسار ذلك *عنك ما فاتك* .

وآجهد الجهدَ كله أن تكون مخارجُ الحقوق اللازمة لك من عندك سهلةً

(٤ ـ ١٢) [واعلم ... تنتفع به] ء ـ (٧) التزايد ، صححنا : المزايد د ـ فأثناء د ـ (١٣) وأشغال ء ـ (١٤) عليك ء ـ (١٥) ولا د ـ وتغير د ـ فابد ء ـ (١٦ ـ ١٧) فإن العذر يكسر حميا ء ـ (١٧ ـ ١٨) الانكساف د ـ [عنك ما فاتك] ء ـ

موصولة *لأصحابها ببِشرك وطلاقةِ وَجهك ، فقد زعمت الحكماءُ أنّ القليلَ مع طلاقة الوجه أوقعُ بقلوب ذوي المروءات مِن الكثير مع العبوس والانقباض . *وقد قال بعضُ الحكماء غايةُ الأحرار أن يَلقَوا ما يحبُّون ويُحرَموا أحبُّ إليهم مِن أن يَلقَوا ما يَكرهون ويُعطَوا* . *وما أبعدُوا من الحقّ .

ولا يَدعُونّك كُفرُ كافرٍ لبَعض نِعَمِك ممّن آثرَ هواهُ على دينه ومروءَتِه *أو غَدر غادرٍ تصنّع لك وخَتَلَك عن مالِك ، أن تَزهد في الإنعام وتُسيء بثقاتِك الظُّنونَ . فإنّ هذا موضعٌ يجدُ الشيطانُ في مثلهِ الذَّريعة إلى استفساد *الطبائع وتعطيل المكارم .

وٱعلمْ أنّ استصغارَك نعمَك *يُكبّرها عند ذوي العُقول وسَترك لها نَشرٌ لها عِندَهم . فٱنشرْها بسَترها *وكبرّها باسْتِصغارها .

وٱعلم أنّ من *الفعل أفاعيل وإنْ عَظُمت منافعُها ومنافعُ أضدادها *فلإيثارها فضيلةٌ على كلّ حال . فٱجعَل صمتَكَ أكثرَ مِن كلامِك ، فإنّه أدلُّ على حكمتك. وٱجعلْ عفوك أكثر من عُقوبتك، فإنّ ذلك أدلُّ على كرمِك . ولا تُفْرِطنَّ فيه كلَّ الإفراط حتى تطرحَ الكلام في موضعه والتأديبَ في أوانه .

وٱعلمْ أنّ لكلّ امرىءٍ سيداً من عمله سَاهَلَتْه فيه نفسُه وسَلِس له فيه هواه . فتحفّظ ذلك من نفسك وتقاضَها الزِّيادة فيه ورُضها على تَثْميره والمواظبة عليه(*) .

---

(١) لاصحابك ء ـ (٣ ـ ٤) [وقد قال . . . ويعطوا] ء ـ (٤) [وما أبعدوا من الحق] ב ـ (٧) او عذره ב ـ (٩) الصنائع ء ـ (١٠) يكثرها ב ـ (١١) وكثرها ב ـ (١٢) الافاعيل افاعيل ء ـ فالايثار لها ء ـ

(*) يتلو في ב الفصل المشار إليه في تعليقة ص ٢٦ .

وآحذَر الحذَرَ كلَّه الاغترارَ بأمُور ثلاثة ، فإنَّ مَن عَطِب بها كثير وتَلَافيها صعبٌ شَديد : أحدُها أن *لا تُوَلِّيَ جسائمَ تصرُّفك *وتُقلِّدَ مُهِمَّ أمورك وَوَثائقَ تدبيرك *إلا امرءًا صلاحُه موصولٌ بصلاحك *وبقاءُ النعمة عليك هو بقاءُ النعمة عليه . *وأن لا تأنس أو تغترّ بمنْ تعلمُ أنَّ بصلاحِك فساده، وبارتفاعك انحطاطه، وبسلامتك عطبه، فان من كان هكذا فانت مَلَكُ مَوْته ، فَبِحَسَبِ ذلك فليكنْ عِندَك . *وأنْ تجعلَ مالَك كله في عُقدةٍ واحدة أو حيّزٍ واحدٍ *أو وجهٍ منفردٍ إن اجتاحتْهُ جائحةٌ أو نابتهُ نائبة بقيت حَسيراً . وقد قال بعضُ الحكماء : فَرِّقوا المنية وآطلبوا الأرباح بكل شِعب .

*وآعلم أنّه ليسَ من الأخلاق التي ذَمَّتها الحُكماء خلقٌ إلاّ وقد يَنفعُ في بعض الحالات *ويُرَدُّ به شكلهُ *ويقامُ بإزاء مثله ويدافَع به نظيره . *إنّك ستُمنَى بصُحبة السُّلطان الحازم العادل وبصحبة السُّلطان الأخرق الجَهول الغَشوم ، فالحازمُ العادل يَسوسه لك الأدبُ والنُّصح والأخرقُ يسوسهُ لك الحيلةُ والرِفق . العادلُ يَعضُدُك منه ثلاث وتصبرُ نفسُه لكَ على ثلاث ، فاللواتي يعضُدنك : تسليطُ العدل وإنفاذُ الحكومة ـ وفي ذلك صلاحُ الرعيَّة ـ وإثابة المحسنين الذين إثابتهم تحصينُ البَيضة والسُّبُل ، والعفوُ ما بُلغَ به الاستصلاحُ واكتُفِيَ به من *البسط . واللواتي تصبِرُ نفسه لك عليهنّ الهوى *< . . . . > إلى ما وافق الرأي وأمضى الرأي إلاّ بعد التثبُّت حتى تعاونه عليه النُّصحاء .

---

(٢) [لا] ب ـ تقليدهم ـ (٣) إلى من ء ـ (٣ ـ ٤) وبقاء النعمة عليه هو بقاء النعمة عليك ء ـ (٤) وان تأنس ء ـ (٥) وان تجعل ، صححنا : أو أن تجعل ب ء ـ (٦) أو [وجه منفرد] <و> ان ب ـ (٩) واعلموا ب ـ (١٠) ويرديه شكله ويقاوم ب ـ (١١ ـ ص ٣٥ ، ٢) [إنك ستمنى ... النصحاء] ء ـ (١٦) لعل الصواب : البطش ؟ ـ (١٧) < . . . . > : سقط في الأصل.

*ولكني أُوصيك برياضةِ نفسك حتى تُذَلِّلها على الأمور المحمودة ، فإنّ *كلّ أمر ممدوح *هو مما تَستثقلُ النُفوسُ ، *ومما تسرُّ به وتنقلبُ إليه الأخلاق المذمومة . فإن أهملتها وإياها غلبت *عليك لأنّها فيها طبيعة مركبة* وجبلّة مفطورة . فلتكُن المساهَلةُ في أخلاقك أغلبَ عليك من المعاسرة، والحلمُ أولى بك من العجلة، والصبرُ الحاكمَ عليك دون الجَزَع، والعفو أسبقَ إليك من المجازاةِ بالذُنوب والمكافأةِ بالسوء ، *وكذلك سائر الأخلاق المحمودة والمذمومة فلتكن محموداتها غالبةً على أفعالك مُحكمةً في أمورك* . فإنّك إن ضبطتَ *ذلك وقوّمتَ عليك نفسَك عشتَ رَخِيَّ البال قليلَ *الهم كثيرَ الصديق قليلَ العدوّ *سليمَ الدين نقيَّ العِرض محمود الفِعال*،جميلَ الأحدُوثة في حياتك وبعد وفاتك ، وكنتَ بموضع *الرجاءِ أن يصلَ الله لك *السلامة الآجلة بالنِّعمة *العاجلة .

أسألُ الله المبتدِىءَ بكلّ نعمة والمولّيَ لكل إحسان أن يُصليَ على محمدٍ خيرته من خَلقه وصَفْوته من بَريته ، وأن *يتمِّم عليك نعمته ويَشفَعَ لك ما خوّلك من *نعمته بالنعمة التي يؤمَنُ معها الزوالُ في جِواره ومُرافقة أنبيائه ، *والسلام عليك ورحمةُ الله(*) .

---

(١) ولكن ء ـ (٢) كان امر ة ـ هو ما ة ـ [ومما تسر . . . المذمومة] ة ـ (٣ ـ ٤) عليك لا فيها طبيعة [مركبة] ة ـ (٦ ـ ٨) [وكذلك سائر . . . في أمورك] ة ـ (٨) [ذلك . . . عليك] ة ـ (٩) الهموم ة ـ (٩ ـ ١٠) [سليم . . . الفعال] ة ـ (١٠) ترجو ء ـ (١١) الكرامة ء ـ العاجلة < إن شاء الله عز وجل > ء ـ (١٣) يتم ء ـ (١٤) نعمه ء ـ (١٥) صلى الله عليهم أجمعين ء .

(*) تمت الرسالة في الأخلاق المحمودة والمذمومة بعون الله ومنه والله الموفق للصواب والحمد لله أولاً وآخراً وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامه يتلو هذه الرسالة إن شاء الله تعالى « كتاب كتمان السر وحفظ اللسان » من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أيضاً والله سبحانه المستعان على ذلك برحمته ة ، تمت الرسالة في كتمان السر وحفظ اللسان (!) من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله والله المحمود على ذلك كثيراً برحمته .

(٨)

رسالة فصل ما بين العداوة والحسد

تقدمة :

تنتمي هذه الرسالة ، التي صدرنا بها عن مخطوطة داماد إبراهيم باشا ، إلى المرحلة الثانية من مراحل الفترة الثانية من مراحل العهد البغدادي ، أي المرحلة التي جاءت ، وقد خلص المتوكل من سلطان رجال الاعتزال ، كما كان يتمثل في أحمد بن أبي دؤاد وابنه أبي الوليد ، وأصبح الأمر خالصاً لرجال الحديث . ومن هذا اتخذت هذا الموضع في ترتيب الرسائل الأربعة التي بدأنا بها هذا المجموع .

وقد جاء في هذه الرسالة ما يدلنا على أنها من آثار هذه المرحلة ، وذلك في هذين البيتين اللذين أنشأهما الجاحظ في صاحبه الذي قدمها إليه :

إن ابن يحيى ، عبيدالله ، أمنني ... من الحوادث بعد الخوف في زمني
فلست أحذر حسادي وإن كثروا ... ما دمت ممسك حبل من أبي الحسن

فلا ريب أنه يعني عبيدالله بن يحيى بن خاقان الذي ولي للتموكل

سنة ٢٣٦ ، دون أن يكون له من الأمر شيء قبل هذه المرحلة . وبذلك يتعين أن تكون هذه الرسالة من آثارها ، كما قلنا .

أما موضوعها فظاهر في عنوانها ، وهو بيان الفروق التي تفصل بين وجهين من وجوه البغض والكراهية بين الناس ، يسلك أحدهما مسلك المجاهرة والمواجهة ، ويصطنع الآخر التسلل والمواربة . والأول هو ما يسمى بالعداوة ، والثاني يسمى بالحسد .

وقد تناول الجاحظ موضوع الحسد في رسالة أخرى تناولاً يدل على دقته وثقوب بصيرته وقوة ملاحظته ، درس فيه مظاهره وعلله ، وما ينتج منه ويتولد عنه . كما تناوله في موضع آخر من ناحية أخرى مختلفة عما هنا وهناك تمام الاختلاف ، على طريقة المتكلمين في تعليل أثره المادي في المحسود .

أما كلامه عن الحسد هنا ، وفي رسالة الحاسد والمحسود ، فمظهر من مظاهر النزعة الأدبية الناظرة في حركات النفوس ، المتتبعة لخلجات الضمائر ، المتفهمة لحقائق الأخلاق . إلا أن الذاتية في هذه الرسالة ، فصل ما بين العداوة والحسد ، أظهر وأصرح منها في الرسالة الأخرى ، الحاسد والمحسود ، التي حاول أن يكون فيها موضوعياً خالصاً ، لا يقحم نفسه ، ولا يتحدث عنها ، وإن كان ظاهراً أنه ، فيما يقرر ، إنما كان يصدر عن تجربة شخصية عميقة .

فأما هنا ، في حديثه عن الحسد والعداوة ، فلم يختف وراء التقرير الموضوعي ، وإنما جعل يتحدث عن نفسه ، وعن تعرض الحساد له ، ونيلهم منه ، وغضبهم من منزلته ، حديثاً صريحاً لا مواربة فيه ولا تكلف . وهو بهذا يصور لنا في هذه الرسالة صورة جديدة حية من حياته في هذه

المرحلة ، وما أتيح له فيها من أمن بعد خوف ، ومن طمأنينة بعد اضطراب . على الرغم مما كان يساوره فيها من المضايقات التي يثيرها عليه هؤلاء الذين كرهوا مكانه في القصر ، ومنزلته من كبار رجال الدولة .

وقد كان ما امتحن به من ذلك طبيعياً مسايراً لمنطق الأشياء . فها هو ذا رجل من المعتزلة ، من كبارهم وأصحاب الرأي والنفوذ الأدبي البعيد فيهم ، ومن رجال العهد السابق الذين شاركوا فيه مشاركة قوية ، ومن أصحاب ابن الزيات وخاصته . فإذا قضي على ابن الزيات فقد انصرف إلى آل أبي دؤاد يشايعهم ويستظهر بهم ، ويتخذهم ـ كما يقول عن احدهم ـ للأحداث عدة ، ومن نوائب الدهر حصناً منيعاً . فهو وثيق الصلة برجال ذلك العهد ، شديد الإيثار لهم . مستغرق في هواهم . فإذا انقضى ذلك العهد بذيوله وتبعاته ، واطمأن أهل السنة ومن إليهم من خصومه والمزورين عنه ـ ممن لقوا فيه العنت أو استشعروا فيه الضيعة ـ أن الأمر قد أديل لهم ، وأنه قد صار إليهم دون غيرهم ، إذا بهم يرون هذا الرجل من رجال ذلك العهد المنكر يشاركهم وينافسهم ، بل يستأثر مع ذلك دونهم بكثير من مظاهر التقدير والتقديم . لا جرم كان ذلك جديراً أن يثير في نفوسهم الضغينة والموجدة ، ويملأها بالحفيظة عليه والحسد له ، ويدفعهم إلى الوقوع فيه ، والنيل منه ، والتماس الأساليب المختلفة في الغض من قدره ، ولاسيما في هذه الكتب التي لا يزال يواترها ، ويصيب بها الحياة الرغيدة والمنزلة المجيدة جميعاً .

وهكذا كتب الجاحظ هذه الرسالة بين شعور الاشفاق من هؤلاء الذين يكيدون له ، وشعور المراغمة لهم . وقد وصفهم فيها وصفاً دقيقاً بارعاً بقوله : « قد وسموا أنفسهم بسمات العلماء بالباطل ، وتسموا بأسماء

العلم على المجاز ، من غير حقيقة ، ولبسوا لباس الزور ، متزخرفين متشبعين بما لا محصول له . يحتذون أمثلة المحقّين في زيهم وهديهم ، ويقتفون آثارهم في ألفاظهم وألحاظهم وحركاتهم وإشاراتهم ؛ لينسبوا إليهم ، وليحلوا محلّهم . فاستمالوا بهذه الحياة قلوب ضعفاء العامة وجهلاء الملوك ؛ واتخذهم المعادون للعلماء المحقّين عدة يستظهرون بهم عند العامة . وحمل المدعية للعلم المزور الحسدُ على بهت العلماء المحقّين وعضههم والطعن عليهم ؛ وجرأهم على ذلك ما رأوا من ضغو ضعفة القلوب ، وأذلة الناس ، إليهم ، وميل جهلاء الملوك معهم عليهم ؛ وأملوا أن ينالوا بذلك بشاشة العامة ، وتستوي لهم الرياسة على طغام الناس ورعاعهم » .

وهذه عبارات تبدو هادئة في ظاهرها . ولكنها ـ فيما يخيل إلينا ـ تخفي حسرة عميقة على ما آلت إليه حال العلماء المحقين ـ كما يسميهم الجاحظ ـ لقاء هذه الطبقة من المدّعين ، المتسمين بسمات العلماء ، المقلدين لهم في حركاتهم وإشاراتهم وألحاظهم وألفاظهم . وقد استطاعوا بذلك أن يظفروا برضا العامة عنهم ، وتقريب جهلاء الملوك لهم . وقد اصطنعهم خصوم أولئك العلماء ، ليكونوا عدة لهم في تجريحهم ، وأداة يتوسلون بها إلى الغض منهم والحط من شأنهم . وبذلك مهدت السبيل أمامهم لشفاء صدورهم منهم ، وإرضاء نزعة الحسد فيها ؛ فلا يفتأون يتناولونهم بالطعن ، ويقصدون إلى كتبهم بالنقد والتخطئة .

وهؤلاء الحاسدون عند الجاحظ طبقات ، على قدر حظهم من المهارة والحذق . وبقدر ذلك يتفاوت خطرهم ويختلف مقدار نكايتهم . فهناك الحاسد الجاهل ، « يبتدر إلى الطعن على الكتاب في أول وهلة يقرأ

عليه ، من قبل استتمام قراءة ورقة واحدة ، ثم لا يرضى بأيسر الطعن وأخفه ، حتى يبلغ منه إلى أشده وأغلظه ، من قبل أن يقف على فصوله وحروفه . وليس يثلبه مفصلاً مفسراً ، ولكنه يجمل ذلك ويقول : هذا خطأ من أوله إلى آخره ، وباطل من ابتدائه إلى انقضائه ؛ ويحسب أنه ، كلما ازداد اغراقاً وطعناً وإطناباً في الحمل على وضع الكتاب ، كان ذلك أقرب إلى القبول منه » .

ومثل هذا الناقد أو الحاسد هين الخطر عند الجاحظ ، ذليل الشأن . فهو يحمل في نفسه وفي أسلوبه هذا أسباب الرد عليه والاهدار له . وذلك أن « المستمع له ، إذا ظهر منه على هذه المنزلة ، استخف به ، وبكته بالجهل ، وعلم أنه قد حكم من غير استبراء ، وقضى بغير روية ، فسقط عنده وبطل » .

وهناك الحاسد العارف ؛ إذا أراد أن يغتال الكتاب « تصفح أوراقه ، ووقف على حدوده ومفاصله ، وردد فيه بصره ، ورجع فكره ، وأظهر عند السيد الذي هو بحضرته ، وجلسائه ، من التثبت والتأني ، حبالة يقتنص بها قلوبهم ، وسبباً يستدعي به ألبابهم ، وسلماً يرتقي به إلى مراده منهم ، وبساطاً يفرش عليه مصارع الخدع ؛ فيوهم به القصد إلى الحق ، والاختيار له » . ومثل هذا ـ كما يقول الجاحظ ـ « من أعظم البلايا وأكبر المصائب على مؤلفي الكتب » .

وهذا الصنف من الحساد الناقدين للكتب طبقات . ما من منزلة إلا وفوقها منزلة أدق مدخلاً ، وأخفى مكراً ، وأشد نكاية ، « وربما بلغ من الحاسد جهد الحسد ، إذا لم يعمل بشهوته ولم تنفذ سهام لطائفه ، أن يقر على نفسه بالخطأ ، ويعترف أن الطعن الذي كان منه في الكتاب عن سهو

وغفلة ؛ وأنه لم يكن بلغ منه في الاستقصاء ما أراد ؛ وكان مشغول الفكر مقسم الذهن ؛ فلما فرغ له ذهنه راجع قوله ، وكأنه بدر منه عن وهم وخطأ ، لتظن به الرعـة ، ويقال إنه لم يرجع عن قوله واعترف بالخطأ إلا من عقل وازع ودين خالص . وإنما ذلك حيلة منه ، ودهاء قدمه أمام ما يريد أن يؤكد لنفسه ، ويوطد لها ، من قبول القول في سائر ما يرد عليه من الكتب » .

وهذا الحديث الذي يتحدث به الجاحظ عن الحساد وموقفهم من العلماء وأصحاب الكتب ـ وما أوردنا ليس إلا صورة مقتضبة مما كتب في ذلك ـ يمكن اعتباره في الوقت نفسه حديثاً عن النقاد في ذلك الوقت ، من وجهة نظره ؛ أو هو ـ بعبارة أخرى ـ صورة من رأي المؤلفين في النقاد ، أو صورة من مسلك النقاد تجاه الكتاب والمؤلفين ، كما يراه هؤلاء الأخيرون ، في عبارة الجاحظ عنهم .

فالناقد عنده ليس إلا شخصاً قليل العلم ، أقحم نفسه في العلماء ، فلبس لبوسهم ، واتسم بسماتهم ؛ ولكنه حين أحس العجز في نفسه عن أن يبلغ مبلغهم ، امتلأت نفسه حقداً عليهم ، ووحسداً لهم ، ثم أخذ هذا الحسد مظهره الخارجي في صورة النقد لهم ، والانتقاص منهم . وقد رأى أن ذلك يقفه معهم ، ويضعه في مصافهم . وها هو ذا نص عبارة الجاحظ في هذا المعنى ، إلى جانب ما يردده من ذلك في تضاعيف كلامه :

« وكأن من ناله التقصير في صناعة العلم عن غايته القصوى قد استشعر حسد كل ما يرد عليه من طريف أدب ، أو أنيق كلام ، أو بديع معنى . بل قد وقع بخلده لضعفه ، وقرّ في روعه لخساسته ، أنه لا ينال

أحد منهم رياسة في صناعة ، ولا يتهيأ له سيادة أهلها ، إلا بالطعن على نواصيهم ، والعيب لجلّتهم ، والتحيّف لحقوقهم » .

بل إن الأمر لا يقف ـ فيما يذكر الجاحظ ـ عند حد الرغبة في الرياسة ، واتخاذ النقد وسيلة إلى نيل المنزلة ، بل يمضي وراء ذلك إلى أن يكون أداة سطو واغتصاب واقتناص للمال من المؤلفين ، بتهديدهم وشهر سلاح النقد في وجوههم ، وتعريض كتبهم بذلك للكساد ، عند هذا الأمير أو ذاك ، ممن « ترجى لديهم أثمانها ، وعندهم تنفق بضائع أهلها » ، كما يقول . وقد قص في ذلك قصة صنعها واختتم بها رسالته ، يقصد بها مراغمة هؤلاء النقاد ، فيما يبدو : أن عشرة أنفر من الكتاب دخلوا عليه ، فما زالوا يفيضون في حديث الحسد . وإذا برقعة تدفع إليه « فيها سهام الوعيد ، ومقدمات التهديد والتحذير والتخويف للطعن على ما يؤلف من الكتب ، إن هو لم يضمن لهم الشركة فيما يجري عليه » ، فدفعها إلى من بجواره . وما زالت الرقعة تنتقل من واحد إلى آخر ، وقد أجري على لسان كل منهم فقرات مسجوعة يقولها ، وقطعة من الشعر يستشهد بها ، في إيئاس هذه النقاد وكبت مطامعهم .

وبعد ، فهذه بعض مظاهر الذاتية في هذه الرسالة . أما الناحية الموضوعية فيها فمجالها الموضوع الذي أراد الجاحظ أن يعقد الكلام فيها عليه ، حين قال في صدرها : « هذا الكتاب ـ أطال الله بقاءك ـ نبيل بارع ، فصل فيه بين الحسد والعداوة » . ولم يقصر الجاحظ في بيان الفروق التي تفصل بين هذين المظهرين من مظاهر البغضاء ، سواء في ذلك ما يتعلق بطبيعتهما أو أسبابهما . وهو في بيان هذه الفروق يضع الحسد بإزاء العداوة ، ويصفه باللؤم والنذالة والضعة ، ويرفع من شأن

العداوة ، ويصفها بالفحولة والعزة . ثم مضى يذكر سبلها المختلفة ووجوه العمل بها ، ومذاهب الناس في معاملة العدو ، مستشهداً لهذا بالآثار المختلفة عند سادة العرب وشعرائهم ، كبشر بن مروان ، ومصعب بن الزبير ، وشبيب بن شيبة ، وطوق بن مالك ، والنابغة الجعدي ، والفند الزماني ، ومسلم بن الوليد .

فهذا هو كتاب فصل ما بين العداوة والحسد ، نرجو أن يكون فيما قدمنا ما يوضح خطوطه ، ويبين ملابساته وصلته بهذه المرحلة من حياة الجاحظ* .

(*) كتاب الجاحظ : حياته وآثاره ، المرحلة الثانية من مراحل الفترة الثانية من العهد البغدادي .

النص :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم

أَصْحَبَ اللَّهُ مُدّتك السعادةَ والسلامةَ وقَرَنها بالعافية والسُرور وَوَصَلها بالنِعمة التي لا تزول والكرامة التي لا تحُول .

هذا كتابٌ ـ أطال اللَّهُ بقاءك ـ نبيلٌ بارِعٌ ، فُصِلَ فيه بين الحسد والعداوة ، لم يسبِقني إليه أحد ، ولا إلى كتابِ فضل الوعد الذي تقدّم هذا الكتاب ، ولا إلى كتاب أخلاقِ الوزراء الذي تقدّم كتابَ فضل الوعد . وإنّما نَبُلَت هذه الكتبُ وحَسُنت وبَرَعت وبذّت غيرّها ، لمشاكلتها شَرَفَ الأشراف ، بما فيها من الأخبار الأنيقة الغريبة والآثار الحسنة اللطيفة والأحاديثِ الباعثة على الأخلاق المحمودة والمكارم الباقية المأثورة ، مع *ما تضمَّنته من سِيَر الملوك والخلفاء ووزرائهم وأتباعهم وما جَرَت عليه احوالهم . فأنا *أسألك بساطع كرمك وناصِع فَضلك ، لمَّا امتَنَنْت عليَّ بصَرْف عنايتك إلى قراءتها ، فإن لم يمكنك تبحُّرها والتقصّي لجميعها ، للأشغال التي تعروك ، *فبحسبك أن تقف على حدودها وتتعرّف معانيَ أبوابها ، بتصفُّح أوائلها . فإنّ معك قلباً به من اليقظة والذكاء والتوقد والحِفظ ما يكفي مَعَه نظرُ الخاطف .

إنّه لم يخلُ زمنٌ من الأزمان فيما مَضَى من القُرون الذاهبة إلاّ وفيه علماء مُحِقّون ، قد قرأوا كُتُب مَن تقدَّمهم ودارسوا أهلها ومارسوا . . . .

(١١) ما تضمنته ، صححنا : ما نضمنها ﻫ ـ (١٢) أسلك ﻫ ـ (١٤) فبحسبك ، صححنا : وبنفسك ﻫ ـ (١٨) بياض كلمتين في ﻫ ، ولعلهما : اقوالهم واحوالهم.

(*) أول الرسالة في ﻫ : الحمد لله رب العالمين كما هو أهله وصلى الله على محمد خاتم النبيين كما أمر به وعلى آل محمد كما سنه محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم كثيراً .

لهم وعابوا المخالفين عليهم ، فمخَضُوا الحكمة وعَجَموا عيدانها ، ووقفوا على حدود العلوم ، فحفِظوا الأُمَّهات والأصول وعَرّفوا الشرائع والفروع ، فقرَنوا ما بَين الأشباهِ والنظائر ، وصاقبوا بين الأشكال والأجناس ، ووَصَلوا بين *المتجاور والمتوازي ، واستنبطوا الغامِضَ الباطن بالظاهرِ البيّن ، واسْتظهروا على الخفيِّ المشكل بالمكشوف المعروف ، وعرفوا بالفَهم الثاقِب والعلم الناصع ، وقضَت لهم المحنةُ بالذكاء والفِطنة . فوضعوا الكتبَ في ضُروب العلوم وفُنون الآداب ، لأهل زمانهم والأخلاف مِن بَعدهم ، يزدَلِفون بذلك إلى الممتنِّ عليهم بفضلِ المعرفة التي ركَّبها الله فيهم *وأبانَهم من غيرهم وفضّلهم عليهم ، ويُباهُون به الأممَ المخالفةَ لهم ، ويتبارَون فيما بينهم .

ولهم حُسّادٌ معارضون من أهل زمانهم في تلك العلوم والكتب منتحلةٌ يدَّعون مثل دَعاويهم ، قد وَسَموا أنفسهم بسِمات *الباطلَ *وتسمَّوا بأسماء العلم على المجاز من غير حقيقة ولبِسُوا لِباسَ الزور متزخرفين متشبِّعين بما لا محصولَ له ، يحتذون أمثلة المحقِّين في زيِّهم وهَدِيهم ويقتفون آثارهم في ألفاظهم وألحاظهم وحَرَكاتِهم وإشاراتهم ، ليُنسَبوا إليهم ويَحلّوا مَحَلَّهم . فاستمالوا بهذه الحيلة قلوبَ ضُعَفاء العامّة وجُهلاءِ الملوك ، *واتّخذهم المُعادون للعُلَماء المحقِّين عُدّةً يستظهرون بهم عند العامّة . وحَمَلَ المدّعيةَ للعلم المزوَّر الحسدُ على بَهتِ العلماء المحقِّين وعَضهِهم والطعن عليهم ، وجرَّأهم على ذلك *ما رأوا مِن صَغوِ ضَعَفة القلوب وأذِلَّة

(٤) المتجاوز والمتواري د - (٩) لعل الأشبه: فأبانهم - لعله: بسمات < العلماء > بالباطل ؟ - وسموا د - (١٧) وابحدهم د - (١٩) ما، صححنا: من د -.

« حب الرياسة داء . . . » محاضرات الراغب الأصبهاني ١ : ٨٤ ، مختصر جامع بيان العلم لابن عبدالبر ص ٧٥ .

الناس إليهم ومَيْل جُهلاء الملوك معهم عليهم . وأمّلوا أن ينالوا بذلك بَشاشةَ العامّة ، وتستويَ لهم الرياسة على طَغَام الناس ورَعَاعِهم ، ويَستخولوا *زَعاعهم وقومهم . فهمزوا وهددوا ، .*وتوردوا على أهل العلم بغَباوتهم وكشفوا أغطية الجهل عن أنفسهم وهتكوا سِتراً كان مُسدَلاً عليهم بالصمت ـ فقدْ قيل الصمتُ زَينُ العالم وسِتر الجاهل ـ طمعاً في الرياسة وحبًا لها . وقد قيل :

حُبُّ الرياسة داءٌ لا دواءَ له وقَلّ ما تجد الراضين بالقسَمِ

ولم يخلُ زمنٌ من الأزمنة من هذه الطبقة ، ولا يخلو . وهلاكُ مَن هلك من الأمم فيما سَلَف بحبِّ الرياسة ، وكذلك مَنْ يهلِك ، إلى انقضاء الدهر ، فبحبِّ الرياسة :

هَلاكُ النـاس مُـذ كـانـوا إلـى أن تـأتي الـسـاعـة
بـحُـبِّ الأمـر والـنَـهـي وحُـبِّ الـسـمـع والـطاعـة

فأشْكلَ على العامّة أمر العالم الحقيقيّ والمدَّعي *المجادل والمنتحلِ للزُور والباطل . ثم تَرَادَفَ عليهم مِن هذه العِلَل التي يَعمى لها السبيلُ الواضِح والطريقُ *المنشأ على الجاهِل المستَضعف وذِي الغنا المستَرهف .

ولستُ آمَنُ ـ جعلني اللّهُ فِداك ـ أن تكونَ هذه الكتب التي أُعنَى بتأليفها وأتأنّق في ترصيفها ، يتولى عَرضها عليك مَن قد لبِس لِباس الزور في أنتحال وضع ِ مِثلها ، ونَسَب نفسه إلى القوّة على نظائرها والمعرفة بما يُقاربها إن لم يكن أخاها فابنَ عمِّها ، ويشبَعُ بما لم يُطعمه اللّهُ منها .

(٣) كذا في ظ ولعلها : رعاياهم أو ما يشبهها ؟ ـ وتوددوا ظ ـ

« هلاك الناس . . . » محاضرات الراغب ١ : ٨٤ .

(١٣) صححنا : المحادي ظ ـ (١٥) المشا ظ ـ

ولعلّ بعضَ *من حوله أو بعض مَن يهزِل به ويرتع في عقله ويلهو بلُبِّه ويضعُه على *طَبطابَةِ اللعب وفي أرجوحة العبث *يوهمة الحسدُ له على ما يدّعي من ذلك ، ويتقدَّم إلى آخرين في إيهامهم إيّاه ذلك ، فيزيدُه فِعلهم ضراوة بادّعاء ما ليس معه وهو منه عارٍ ، فإذا رجَع إلى الحقائق علم أن مثله كما قد قيل :

ومَن يسكنِ آلبَحرين يعظُمْ طِحالُه ويُغبَطْ بما في البطنِ والبطنُ جائعُ

وقد قيل *الذِئب يغبط وهو جائع ، فيلتوِي في قراءتها، ويقبضُ لسانَه عن بسط ما يحتاج أن ينشره منها، ويقصّر في تفخيم حروفها ولا يملأ فمه منها .

بل لا آمَنُ أن يتجاوزَ ذلك إلى الطعن عليها بقولٍ أو إشارة ، فيُوهِم فسادَ معانيها ويُومِىء إلى سقوط ألفاظها ، من غير أن يظهرَ *المعاداةَ لها والحسدَ لمؤلِّفها ، والحملَ عليها بقولٍ يكونُ دليلاً على ما يُضمر ، وهو أبلغُ ما يكونُ من قلب المستمع *وأنجعه فيه ، فيقعُ ذلك بخَلَده . وقد قيل : من يسمع يَخَلْ . وليس يقابله أحدٌ *برد ولا يوازيه بنزاع ، فيزدادُ نشاطاً عند ما يَرَى من خلاء الأمر . وقد قيل: كلُّ مُجرٍ في الخلاء يسبق، وكل مناظرٍ متفردٍ بالنظر مسرور . وإنما يعرف جَريُ الخيل عند المسابقة وبراعةُ النظر عند المخاصمة .

وقال لي بشرٌ المريسيّ : عُرِض كتابي على المأمون في تحليل

---

(١) من، صححنا : ما د - (٢) طبطاب د - فيوهمه د - (٧) الذنب د - (١١) المغادلة - (١٣) وافجعه د - (١٤) بود د -.

بشر المريسي ، ففيه من تلاميذ القاضي أبي يوسف ، نسب في بعض الأقوال إلى درب المريس في بغداد . عاش إلى سنة ٢١٨ . انظر تاريخ بغداد ٧ : ٥٦ .

« يا لك من قنبرة . . . » أورد الجاحظ في الحيوان البيتين الأولين مقدماً لهما بقوله : وقال طرفة وهو صبي صغير (٣ : ٦٦) .

النبيذ ، وبحضرته محمدُ بنُ أبي العباس الطوسيّ . فانبرى محمدٌ للطعن عليه والمعارضة للحُجَج التي فيه ، وأسهَب في ذلك وخَطَب وأكثر وأطنب ، *فغَلِقَ المأمونُ واحتدم وهاج واضطرم ، *لاسحنفار الطوسيّ وخلاء المجلس له . وكان يحبُّ أن يَزَعَه وازع يكفّهُ بحجةٍ تسكتُه ، فلمّا لم ير أحداً بحضرته يذبُّ عن كتابي قال متمثّلاً :

يــا لــكِ من قنبــرة بمَعْمَـر *خلا لك الجو فبيضي وأصفري
ونقّري ما شئتِ أن تنقّري

فما كان إلّا رَيْثَ فراغهِ من التمثُّل بهذه الأبيات ، حتى إستُؤذِنَ لي ، فدخلتُ عليه . فقال : يا أبا عبدالرحمن ما تقولُ في النبيذ ؟ فقلت : حِلٌ طَلْق يا أمير المؤمنين ، فقال : فما تقول فيما أسكر كثيره ، قلت : لَعَن الله قليله إذا لم يُسكر كثيرُه . ثم قال : إنّ محمداً يخالفك . فأقبلتُ على آبن أبي العبّاس ، فقلت له : مـا تقول فيما قال أميرُ المؤمنين ؟ قال : لا خلافَ بيني وبينك ، كلاما يُوهِم به أهلَ المجلس ، حُبًّا للتّسلم منّي والتخلصِ من مناظرتي ، لا على حقيقة التحليل له . فاستغنمتُ ذلك منه ، وقلتُ له : فمالي لا أرى *أثرَ قواه في عقلك ؟ فضحك المأمون ، فلما رأيتُ ضحكه أطنبتُ في معاني تحليل النبيذ ، وابنُ أبي العباس ساكتٌ لا ينطق ، وكان قبل دخولي ناطقاً لا يسكت . فلمّا رأى المأمون سكوتَه عند حضوري ، مع كثرة كلامه في ثَلب كتابي وعيبه ـ كان ـ قبلَ دخولي ، قال متمثّلاً :

---

(٣) فغلق، صححنا: فقلق ‍ ـ لاسحنفار، صححنا: لاستحفار ‍ ـ (٦) جلا ‍ ـ (١٥) أشر ‍ ـ.

ما لَكَ لا تنبحُ يا كلبَ الدَومْ   قد كنتَ نباحاً فما لك اليَومْ

ثم نظر إليّ فقال : إنّ الكتب عقول قوم وراءها عنده م حُجَجٌ لها ، فما ينبغي أن يُقضى على كتاب إلاّ إذا كان له *مدافع عنه وخَصم يبيِّن عمّا فيه فإن أبناء النِعَم وأولاد *الأسد محسودون . ثم قال: يا أبا عبدالرحمن بإزاء كل حاسد *راهن ، وقد قيل في مَثَلٍ من الأمثال : *الحسن محسود ، وفي مثل آخر : لن تَعدَمَ الحسناءُ ذامًّا ، وقال الأحنفُ بنُ قيس :

ولن تُصادفَ مرعًى مُمرِعاً أبداً   إلا وجدتَ به آثارَ مأكولِ

*ويقال يعاب في كلّ حسن . ويؤكل منه فيعيبُه ذلك . وقال عمرُ بنُ الخطّاب رضي الله عنه : ما أحدَثَ اللّهُ لعبدٍ نعمةً إلاّ وجدتَ له عليها حاسداً ، ولو أنّ امرءاً كان أقوَمَ من القِدح لوجدتَ له غامِزاً . وقال عمرُ بن عبدالعزيز رضي الله عنه : الحاسدُ لا يملكُ عِنان حَسَده ، لأنه مغلوبٌ على نفسه . وقال الخطابُ بن نُمَير السعديّ : الحاسدُ مجنون يحسُد الحسَن والقبيح . وقال المهلّب بنُ أبي صُفرة : الحسدُ شِهابٌ ، لا يُبالي مَن أصاب وعلى مَن وَقَع .

والعداوةُ لها عقلٌ تسوسُ به نفسها ، فينجُمُ قَرنها وتُبدِي صَفحتها ، في أوقات الهتر ، وإلاّ فإنها كامنةٌ تنتظر أزمِنة الفرص ، والحسدُ مسلوبُ

---

(٣) دافع - (٤) كذا في - (٥) كذا في ۞ ولعل في العبارة سقطا تأويله: بإزاء كل < حسن > حاسد راهن - الحسن، صححنا: الحسد ۞ - (٨) كذا، وفي الجملة تحريف، ولعل يعاب صحتها: العاب.

مجمع الأمثال ٢ : ٢٤٣ .

« مالك لا تنبح . . . » في الحيوان غير منسوب (٢ : ٧٥) .

« ولن تصادف . . . » في عيون الأخبار (٤ : ٩) ، كما هنا ، وإن غيرت كلمة مأكول بمنتجع عن نهاية الأرب .

المعقول بإزاء الضمير في كلّ حينٍ وزمانٍ ووقت . ومن لؤم الحسد أنّه موكّل بالأدنى فالأدنى والأخصّ فالأخصّ ، والعداوةُ وإن كانت تقبّح الحسَن فهي دون الحسَد ، لأنّ العدوّ المباينَ قد يحول وليًّا منافقاً ، كما يحول الوليُّ المنافق عدواً *مبايناً ، والحاسدُ لا يزولُ عن طريقته إلاّ بزوال المحسود عليه عندَه . والعداوةُ تَحدُث *لعلّةٍ ، فإذا زالت العلّةُ زالت معها ، والحسد تركيب لعله *يحسد عليه ، فهو لا يزول إلاّ بزواله .

ومن هذا قال مُعاويةُ رحمه الله : يمكنني أن أرضيَ الناسَ كلهم إلاّ حاسدَ نِعمةٍ ، فإنّه لا يُرضيه منها إلاّ زوالُها . وأعداء النعمة إذا شُوركوا فيها ونالوا منها ، تَزَحزحوا عن عداوتها وكانوا من أهلها المحامِين عنها والدافِعين عن حماها .

ومن هذا قال المغيرة بن شُعبة : النعمةُ التي يُعاش فيها نِعمة محروسة ، ليس عليها ثائرٌ يغتالها ولا ذو حَسَد يحتال في غيرها .

وقال قُتيبة بن مُسلم : خيرُ الخير وأحصَنُه خير عيش فيه . وكلُّ خير *كان يوضح بدلاً ؛ كان من المتالف ممنوعاً ومن الغِيَر آمناً .

وحُسّاد النعمة إن أعطوا منها *وتبحبحوا فيها ، ازدادوا عليها غيظاً وبها إغراء . والعداوةُ تخلُق وتَمَلّ والحسد غضٌ جديد *حرام إذا عطى* لا يبيد . فكلّ حاسدٍ عدوٌّ وليس كل عدوّ بحاسد . وإنما حملَ اليهودَ على الكفر بمحمّد ﷺ ـ وهم يعرفونه كما يعرِفون أبناءهم ، أنه نبيّ صادق ورسول محقّ يقرّون بعثه في توراتهم ويتدارَسونه في بيتِ *مدراسهم ـ

(٣ ـ ٤) كذا ، ولعلها المبارزة ، مبارزا ـ (٥ ـ ٦) لعلة ، صححنا : العلة D ـ كذا ولعله ، لعلة ما يحسد عليه ـ (١٤) كذا ، ولعله : يرضخ بذلا ـ (١٥) وبحبحو D ـ (١٦) كذا ، ولعلها : حرم أو اعطى ـ (١٩) مدارستهم D ـ

الحسدُ ، وحَجَزَ بينَ علمائهم والإيمان به ، ثم نتج لهم الحسدُ عداوته .

ومن الدليل على أنّ الحسد آلمُ وآذى وأوجعُ وأوضعُ من العداوة ، أنه مُغرىً بفعل الله عزّ وجلّ ، والعداوةُ عارية من ذلك لا تتصلُ إذا اتصلت إلّا بأفعال العباد ، ولا يُعادى على فعل الله تباركت أسماؤه . ألا ترى أنك لم تسمع بأحدٍ عادَى أحداً لأنّه حسنُ الصورة جميلُ المحاسن فصيحُ اللسان حسنُ البيان ، وقد رأيتَ حاسدَ هذه الطبقة وسمعتَ به ، وهم كثيرٌ تعرفهم بالخَبَر والمشاهدة . فهذا دليلٌ على أن الحسَد لا يكونُ إلا عن فساد الطبع وآعوِجاج التركيب واضطراب السُوس .

والحسد أخو الكذب يَجريان في مضمارٍ واحد ، فهما أليفان لا يفترقان وضجيعانِ لا يتباينان . والعداوةُ قد تَخلو من الكذِب ، ألا ترى أنّ أولياءَ الله قد عادَوا أعداءَ الله ، إذ لم يستحلّوا أن يكذِبوا عليهم . والحسَدُ لا يبرأ من البهت ، وكيف يبرأ منه وهو عَموده الذي عليه يعتمد وأساسه الذي به البناءُ يعقَد . وأنشد :

كضرائر الحسناء قُلن لوجهها كَـذِبـاً وزوراً إنّـه لـدَمـيم

والحسَدُ نارٌ وَقوده الروح لا يبوخ أبداً ، ويفنى الوقود والحسدُ لا يبلى إلّا ببلي المحسود أو الحاسد . والعداوة جمر يوقِدُه الغضب ويطفئه الرضا ، فهو مؤمَّل الرُجوع مرجوٌّ *الإنابة . والحسَدُ جوهرٌ والعداوة اكتساب . وقال بعضُهم الحسدُ أنثى لأنّه ذليل والعداوةُ ذكرٌ فَحلٌ لأنها عزيزة،والحسدُ وإنْ كان موكلاً بالأدنى فالأدنى ، فإنّه لم *يعر منه الأبعد فالأبعد .

فقد رأينا وشاهدنا مَن كان يسكنُ العِراق وينتحلُ العلم والأدب ،

(١٧) الابانة – (١٩) لم يعز منه إلا بعد ما لا بعد

انتهى إليه خبر مشارِكٍ له في الصناعة ، من أهل خراسان *وجنة بلخ ، من اتّساق الرياسة له في بلده وجميل حالِه ونُبل محلّه عند أهل مصره وطاعة العامّة له *وترادف النّاسِ عليه ، فطار قلبُه فَرَقاً، وأخذته الأُرَباء وتنفّس الصُعداء، وانتفض انتفاض المعلَّس الممطور ، فقال لِي رجل من إخواني كان عن يميني حين رأى ما رأى منه : بحقٍّ قال مَن قال : لم يُر ظالمٌ أشبهُ بمظلومٍ من حاسدِ نعمة ، فإن نَفَسه متصلٌ وكربَه دائم وفكرتَه لا تنام .

وهو في أهل العلم أكثر، وعليهم أغلب، وبهم أشدُّ لصُوقاً منه بغيرهم من الملوك والسوقة . وكأنَّ مَن ناله التقصيرُ في صِناعة العلم عن *غايته القُصوى ، قد استشعَر حَسَدَ كلّ ما يردُ عليه ، من طريف أدب أو أنيق كلام أو بديع معنًى ، بل قد وقَع بخلَده لضعفه وقرّ في رُوعه *لِخساسته ، أنّه لا ينالُ أحدٌ منهم رياسة في صناعة ولا يتهيّأ له سياسةُ أهلها ، إلاّ بالطعن على نواصيهم والعيب لجلّتهم والتحيُّف لحقوقهم .

قال لي مسلمُ بنُ الوليد الأنصاري الشاعِر الذي يُعرف بصِريع الغواني : خُيِّل إلى نَوْكي الشعراء أنّهم لا يقضي لهم بجودة الشعر ، إلاّ بهجائي والطعنِ في شعري ولسان يهجي به عرضي ، لا أنفكُّ *متّهماً من غير جُرم ، إلاّ ما سَبَق إلى قُلوبهم من وَساوس الظُنون والخواطر التي

(١) كذا، ولعله : وقصبة - (١) فترادف - (٨) غاية D - (١٠) لخاسته D - (١٥) في الأصل : منهما -

قد يثير حديث مسلم إلى الجاحظ أنه كان من أول من اتصل بهم في بغداد ، فقد كانت وفاته في سنة ٢٠٨ . ومما يلفت النظر في كوفية مسلم أن يكون أخوه سليمان الأعمى من مريدي بشار البصري ، وأنه كان يختلف إلى مجلسه وهو صبي فتأثر به في شعره ، كما يقول الجاحظ .

النضر بن شميل ، مروزي المولد ، بصري النشأة ، من أبرز علماء العربية في القرن الثاني . ولي قضاء مرو ، واتصل بالمأمون فيها فكان من جلسائه وتوفي سنة ٢٠٣ .

أوهمتهم أنّه لا يسجل لهم بجودة الشعر ، إلّا إذا استعملوا فيّ ما خُيِّل إليهم .

وأخْبرني أشياخُنا من أهل خراسان أنَّ أبا الصلت الهروي كان عند الفضل بن سهل ذي الرياستين بمَرو ، فقرأ عليه كتاباً ألّفه النضرُ بن شميل ، فطعن أبو الصلت فيه . وكان الفضلُ عارفاً بالنَضر الشُميْلي واثقاً بعلمه مائلاً إليه . فأقبل على أبي الصلت وقال له : إنّ يحيى بنَ خالد قال يوماً : إنّ كتبي لتُعرض على من يغلُظ فهمُه عن معرفتها ويجسو ذهنه عنها ولا يبلغُ أقصى علمه أمانيها ـ *يعرّض باسماعيل بن صبيح ـ *فيطعن فيها ولا يدري ما يُقرأ عليه منها ، إلّا أنّ نار الحسد تلهبه ، فيهذي هذيان المريض ويهمِز همزان *المعزي ثم لا يرضَى أن يقِف عند أوّل الطعن ويُمسك عنه ، حتى يستقصي على نفسه إظهارَ جهله عند أهل المعرفة باستيعابه الطعنَ على ما لم يبلغْ درايَتَه ولم يحط به علمُه ، ثم ينسيه جهلُه الطعنَ الذي تقدَّم فيها ، ويحملُه نَوكُه على استعمال معانيها وألفاظها ، في كتبه إلى إخوانه وأعوانه الذين شَهِدوه في أوان طعنه عليها وحين ثلبِهِ لها .

فقد عرفتُ حقيقةَ ما قال يحيى بنُ خالدٍ بالتجربة والابتلاء ، وإني ربُّما ألّفتُ الكتابَ المحكم المتقنَ ، في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخُطَب والخراج والأحكام وسائر فنون الحِكمة ، وأنسبُه إلى نفسي ، فيتواطأ على الطعنِ فيه جماعةٌ من أهْل العلم ، بالحسَدِ المركَّب فيهم ، وهم يعرفون براعَتَه ونصاعَتَه . وأكثرُ ما يكون هذا منهم إذا كان الكتابُ مؤلَّفاً لملكٍ معه المقدرةُ على التقديم والتأخير والحطّ والرفع *والترهيب ،

---

(٨) يعرض، صححنا: فعرض د ـ فيطعن، صححنا: فطن د ـ (١٠) المعزيي ، صححنا: العنزي د ـ (٢٠) لعلها، كما يشير السياق < والترغيب > والترهيب ـ

فإنّهم يهتاجُون عندَ ذلك اهتِياج الإبلِ المغتلمة . فإن أمكنتهم حيلةٌ في إسقاطِ ذلك الكتابِ عند السيّد الذي أُلِّف له ، فهو الذي قصدُوه وأرادوه . فإن كان السيِّدُ المؤلَّف فيه الكتابُ نِحريراً نقاباً ونقريساً بليغاً وحاذقاً فَطِناً ، وأعْجَزَتهم الحيلة ، سَرَقوا معانيَ ذلك الكتاب ، وألّفوا من أعراضه وحَواشيه كتاباً ، وأهدوه إلى مَلِكٍ آخر ، ومتّوا إليه به . وهم قد ذمّوهُ وثَلَبوه ، لمّا رأَوه منسُوباً إليّ وموسوماً بي .

وربّما ألّفتُ الكتابَ الذي هو دُونَه في معانيه وألفاظه ، فأترجمهُ باسم غيري ، وأحيله على من تقدّمني عصرُه ، مثل ابنِ المقفّع والخليلِ وسَلمٍ صاحبِ بيت الحكمة ويحيى بن خالد والعتّابي ومَن أشبه هؤلاء ، من مُؤلّفي الكتب . فيأتيني أولئك القومُ بأعيانِهم،الطاعنونَ على الكتاب الذي كان أحكَمَ من هذا الكتاب ، لاستنساخ هذا الكتابِ وقراءته عليّ ، ويكتبونه بخطوطهم ويصيّرونه إماماً *يقتدون به ، ويتدارَسونه بينهم ويتأدَّبون به ، ويستعملون ألفاظه ومعانيه في كتبهم وخِطاباتهم ، ويَرْوُونه عنّي لغيرهم من طلّاب ذلك الجنس . فيثبت لهم به رياسة ، يأتمّ بهم قوم فيه لأنّه لم يترجم باسمي، ولم ينسب إلى تأليفي .

ولربما خرج الكتابُ من تحتِ يدي مُحصَفاً كأنّه متنُ حجرٍ أملس ، بمعانٍ لطيفة محكمة وألفاظٍ شريفة فصيحة ، فأخافُ عليه طعن الحاسدين إن أنا نسبتُه إلى نفسي ، وأحسُد عليه مَن أهمّ بنسبته إليه ، لجوْدةِ نِظامه وحسن كلامه ، فأظهرهُ مُبْهماً غُفلاً ، في أعراض أصولِ الكتب التي لا يعرف وُضّاعها، فينهالون *عليه انهيال الرمل، ويستبقون إلى قراءته استباق الخيلِ يوم الحَلْبَة إلى غايتها .

---

(١٢) يعتدون ¤ – (٢٠) عليها ¤ –

وحسد الجاهل أهونُ شَوْكةً *وأذلُّ مِحَناً ، من حَسَد العارف الفطِن . لأنّ الحاسدَ الجاهل يبتدرُ إلى الطعن على الكتاب في أوّل وَهلةٍ يُقرأ عليه ؛ من قبل استِتْمام قراءته وَرَقةً واحدة . ثمّ لا يرضَى بأيسر الطعن وأخفّه حتى يبلغَ منه إلى أشَدّه وأغلظه ؛ من قبل أن يقفَ على فصوله وحروفِه . وليس يثلُبه مفسَّراً مفصَّلاً ؛ ولكنّه يُجملُ ذلك ويقول : هذا خطأٌ من أوّله إلى آخره وباطلٌ من ابتدائه إلى انقضائه . *ويحسب أنّه كلما ازداد *إغراقاً وطعناً وإطناباً في الحمل على وضع الكتاب ؛ كانَ ذلك أقربَ إلى القبول منه . وهو لا يعلم أنّ المستمعَ إليه إذا ظَهَر منه على هذه المنزلة استخفّ به وبكّته بالجهل ، وعلم أنّه قد حكم من غير استبراء ، وقضى بغير رَوِيّة ؛ فسقط عنه فبطل . والحاسد العارف الذي فيه تقيّة ومعه مُسكة وبه *طعم أو حياد ، إذا أراد أن يغتال الكتاب ويحتال في استعماله ، تصفّح أوراقه ، ووقف على حدوده ومفاصله ، وردّد فيه بصرَه وراجع فكرَه ، وأظهر عند السيّد الذي هو بحضرته وجلسائه من التثبُّت والتأنّي ، حُبالةً يقتنص بها قلوبهم ، وسبباً يستدعي به ألبابهم ، وسُلّماً يرتقي به إلى مُراده منهم ، وبساطاً يفرشُ عليه مَصارع الخُدَع ، فيُوهِمُ به القَصدَ إلى الحقّ والاجتباءَ له . فربَّما استدعَى بهذه المخاتل والخُدع قلبَ السيِّد الحازم .

فمن أعظم البلايا وأكبر المصائِب على مُؤلِّفي الكتب ، إذا كان العارضُ لها على السيِّد الذي منه تُرجى أثمانها وعندَه تَنفُقُ بضائع أهلها ، على هذه الصفة التي وصفتُها ، من الحسَد والحِذق بأسبابه والمعرفةِ بالوجوهِ التي تثلم المحسود وتهدّه وتضعُ منه ومِن كتبه ، لاسيما إن كان مَعَ استبطان الحسَد وآستعمالِ الدهاء والذكاء ، جليساً لازماً وتابعاً لا يفارق

(١) كذا ع ، ولعلها: وأقل ـ (٦ ـ ٧) ويحسب، صححنا: وبحسبه ع ـ اغراقا ، صححنا: غرقا ع ـ (١١) كذا، ولعل حياد صوابها حياء ـ

ومُحدِّثاً لا يَريم ، وليست له رِعَةٌ تحجزه عن الباطل، ولا مَعه حذرٌ يبعثُه على الفِكر في العواقب . فإنّ هذا ربَّما وافق فَترة السيِّد ، بطول تَرداد الكلام وكثرةِ تكراره عليه ، من تأكيد خِطابه ونصرته قوله وذِيَادِه *عنه واحتجاجه *له فيؤثر في قلبه ويضجّع رأيه . فليس للسيِّد الذي يحبُّ أن تصيرَ إليه الأمور على حقائقها وتصوَّر له الأشياءُ على هيآتها ، حيلةٌ في ذلك إلاّ حسم مادّة هذا من أهل الحسَد ، بالإعراض عنهم والاحتجازِ دونَهم .

وربَّما بلغ من الحاسد جَهدُ الحسد ، إذا لم يُعمَل بشهوته ولم تَنفذ سهام لطائفه ، أن يُقِرُّ على نفسِه بالخطأ ويعترف أن الطعن الذي كان منه في الكتاب عن سهوٍ وغفلةٍ ، وأنّه لم يكن بلغ منه في الاستقصاء ما أراد ، وكان مشغول الفكر مقسّم الذهن ، فلما فرغ له ذهنه وانفرد له همّه ، *راجع وكان بدر منه عن وهمٍ وخطإٍ ، لتُظَنّ به الرِعَة ، ويقالَ إنه لم يرجعْ عن قوله واعترف بالخطأ ، إلاّ من عقلٍ وازع ودين خالصٍ . وإنما ذلك حيلة مِنه ودهاءٌ قدّمه أمام ما يريد أن يؤكد لنفسه ويوطِّد لها ، من قبول القول في سائر ما يَرِد عليه من الكتب ، عن غير موافقة على مواضع . ويجعل ما قد تقدّم له من الرجوع عن قوله عند التبيُّن له خلاف ما قال ، أوثق أسباب عدالته وأحكم عُرى نَصَفته .

وكان يقال : من لطيف ما يُستدعى به الصدق إظهار الشكّ في الخبر الذي يشك فيه . وكان يقال : من غامض الرياء أن تُرى بأنك لا ترائى . ومن أبلغ الطعن على ما تريد الطعن عليه ، أن تطعنَ ثم تستغفرَ الله ، ثم تمهل *فترةً ، ثم تعود *لطعن هو أعظم منه وأطم من الأول ، ليوثق بك فيه ، ويقال : إنّ هذا لو كان عن حسدٍ ما رجع عن الطعن الأوّل . وقد

---

(٣) عفه ב - فيه ב - (١١) لعله: راجع < قوله > - (٢٠) فترد ב - الطعن ב -

قيل : ذو الغِيبة المشهورُ بها المنسوبُ إليها ، يقل ضرره ويضعف كيده ، لما ساغ به في الناس وانتشر منه . فكان عندهم ظنيناً متهماً ومطبوعاً عليها ، يستمعون منه على قضاء ذمام المجالسة والتلذذ به ، من غير *قبول ولا اصطفاء له . وإنما البلية في غيبة حذّاق المغتابين الذين يسمعون فيضحكون ولا يتكلمون . وأحذق منهم الذين يستمعون ويُسكتون القائل ، ويدعون *إليه بالصلاح للمقول فيه . فهم قد أسكتوا القائل المغتاب ، ودعوا للمقول فيه ، وأوكدوا قول القائل ، لأنه لو حلّ عندهم محلّ البراءة مما قيل له ، لجُبه القائل ورُدِع عن قوله .

ومُظهِر التوقّي قليلهُ عند العامّة كثير ، والمتورِّد المقتحم لا تكاد العامة تقبل منه . وقد قال بعض العلماء : إنّ *عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود كان من نبلاء المغتابين وحذّاقهم حيث يقول :

مسّا تراب الأرض منه خلقتما   وفيها المعاد والمصير إلى الحشر
ولا تعجبا أن تؤتيا وتُعظما   فما حُشي الإنسان شراً من الكبر
فلو شئت *أدلي فيكما غير واحد   علانيةً أو قال ذلك في سرّ
فإن أنا لم آمر ولم أنه عنكما   ضحكت له حتى يلج فيستشري

ومن هذا سرق العتّابي المعنى حيث يقول :

إن كنتَ لا تحذرُ شتمي لما   تعرف من صفحي عن الجاهل

---

(٣) قول ق - (٦) لعلها مقحمة - (١٠) عبد (١٤) أدلى ، صححنا : أذى ف -

---

أبيات عبدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود في الحيوان (١ : ١٤)، وقد سمي صاحبها المسعودي . وكذلك الأبيات التي قالها أن العتابي سرق معناها من أبيات المسعودي أوردها في الحيوان (١ : ١٥ - ١٦) ضمن قطعة من ثمانية أبيات.

القاسم بن معن : من علماء الكوفة بالعربية والفقه والشعر والأخبار والنسب . تولى قضاءها ، ومات سنة ١٧٥ . انظر ترجمته في معجم الأدباء لياقوت ١٧ : ٥ - ٩ .

فاخش سكوتي سامِعاً ضاحكا　　فيك لمشنوع من القائل
مقالة السوء إلى أهلها　　أسرعُ من منحدَر السائل
ومَن دعا الناس إلى ذمِّه　　ذموه بالحق وبالباطل

وقال القاسم بن معن : كان أبو حنيفة رحمه الله يبلغ *بالتبسّم من الثوري ما لا يبلغ الثوري بالتصريح منه .

وسُئل القاسم بن معن عن ابن أبي ليلى ، فقلب كفه وقال :

من الناس مَن يَخفى أبوه وجدُّه　　وجدُّ أبي ليلى لكالبدرِ ظاهرُ

فلم تثبت عليه به حجة في ذم له ولا مدح ، وقد بلغ ما أراد .

وسئل يوماً عن علمه فقال : أوعوه وطباً ، فإن كان محضاً أو مشوباً اظهره الوطب *وما خضوه .

فإن قَدَحَ ـ جعلني الله فداك ـ بالحسد قادحٌ ، فيما أؤلِّفه من كتابي لك وسبق إلى وهمك شكٌّ فيه ، أعلمتني النكتة التي قدح فيها ، ثم قابله بجوابي ، فإنّي أرجو ألاّ يُحتاج إلى حاكم عند تجاثي القولين بين يديك ، لعلوّ الحق على الباطل ودموغه إيّاه .

والحسد أذلّ نفساً من أن يُجاثي أحداً ، والعداوة إنما قُدِّمت عليه لأنها عزيزة منيعة . ويقال : الحسد لا يبدو إلاّ في العين وعلى اللسان المقصور عند المؤتلفين على* . . . . ، والعداوة تبدو وتنجم قرونها وينبسط لسانها ، عند الموافقين له والمخالفين عليه .

---

(٤) بالتبسم ، صححنا : من التبسم ق ،(١٠) زما خضوه ت ـ (١٧) بياض في الأصل بقدر كلمة .

صفة خالد بن صفوان لشبيب بن شيبة : البيان والتبيين ١ : ٤٧ .

وسئل خالد بن صفوان عن شبيب بن شيبة فقال : ذاك امرؤٌ سيط بالحسد وجُبل عليه ، فليس له أخٌ في السرّ ولا عدوّ في العلانية .

وسئل العتّابي عن أهل بغداد فقال : حُسَّاد ، إخوان العلانية وأعداء السريرة ، يعطونك الكلّ ويمنعونك القُلّ .

ومما يدلّك على أنّ الحسد أخسّ وأغبن من العداوة أنّ الملل كلها ذمّته وعابته . ولا نعلم أن شاذًّا من الشواذّ وشارداً من الشُرَّاد ، فضلاً عن جيلٍ من الأجيال ، أمر بالحسد ، كما قد قيل : عادِ مَن عاداك ، وقارع بالعداوة أهلها .

ثم عظُم شأن العداوة عندهم وجلّ قدرها لديهم ، حتى اختلفوا في سُبُلها ووجوه العمل فيها ، فمنهم مَن أمر بها على الحزم والعقل . وقال الشعبي لبشر بن مروان : لو وجهت إلى عمرو بن محمد بن عقيل مولى آل الزبير ، وكان شتمه ، مَن يأتيك به سَحباً وجَرّاً . فقال بشر : إنّي مستعمل في عدوّي قول القائل :

وعادِ إذا عاديتَ بالحزم والنُهى   تَنَلْ ظَفراً مِمَّن تريد وتغلب

فكان هذا ممن يرى المعاداة بالحزم *ويغتالها بالعقل والتأنّي .

وكان عروة بن المغيرة يقول : شرُّ العداوة ما سُتر بالمداراة وأشفاها للأنفس ما قُرِع بمثلها بادياً . وكان ينشد :

لا أتّقي حَسَك الضغائن بالرُقى   فعلَ الذليل ولو بقيتُ وحيدا
لكن أعدُّ لها ضغائنَ مثلَها   حتّى أداويَ بالحُقود حقُودا
كالخمر خيرُ دوائها منها بها   تشفي السقيم وتبرىء المنجودا

---

(١٥) كذا د .

فانتهى قوله إلى ابن شُبرمة فقال : لله درّ عروةَ هذه أنفسُ العَرَب . فهؤلاء رأوا كشفَ المعاداة ولم يروا التأنّي .

ومنهم مَن رأى المعاداة بعد الفِرار منها والإعذار فيها ، فإن هي أبت إلاّ المقارنة قارنوها بمثلها . قال شبيب بن شيبة : إذا رأيت الشرَّ قد أقبل إليك فتطامن له حتى يتخطاك ، ولا تهجه ولا تبحث عنه ، فإن أبى إلاّ ان ينزل عليك فكن من الأرض ناراً *ساطعةً تتلقى . وأنشد :

إذا عـاداك مُـحتَـنِـكٌ لبيب   فعادِ النومَ واحترس البياتا
ولا تثر الرَّبُوض وخلِّ عنها   وإن ثارت فكن شبحاً مواتا
*تحول إلى سواك ونح *عنها   فخير الشرِّ أسرعه فواتا
وإن مالت عليك وخفت منها   فواجهها مجاهرةً صِلاتا

ومنهم مَن أمر بقبول الإنصاف وترك المحاسبة . قال عُبيدالله بن عبدالله بن مسعود : إن الملامات والمذمّات كلها قبيحة ، وأقبح الملامة والمذمّة ما كانتا في ترك نصفةٍ أو شدّة منافسةٍ في تعداد الذنوب . وأنشأ يقول :

منافسة العدوّ أو الصديق   تجرُّ إلى المذمّة والملامه
إذا أعطاك نصفاً ذو ودادٍ   وبعض النصف فانتهز السلامه

ومنهم من قال : لا ترض من عدوّك إلاّ بالظلم ، ولا تقبل إنصافه ونافسه . من ذلك قال العباس بن عبدالمطلب :

أبا طالب لا تقبل النصف منهم   ولو أنصفوا حتى تعق وتظلما

ومنهم من أمر بمعونة الدهر على العدوّ إذا حمل عليه . قال :

---

(٦) ساطعا ق - (٩) تحول . صححنا : تجزل ' ن - عنها ، صححنا : عليها ق

حدثني إبراهيم بن شعبة المخزومي ، قال : سمعت مَن حكى لي عن مصعب بن الزبير قال : إذا رأيت يد الدهر قد لطمت عدوّك فبادره برجلك ، فإن سلم من الدهر لم يسلم منك . وأنشد :

إذا برك الزمان على عدوّ بنكبته أعنتُ له الزمانا

قال العتابي : قلت *لطوق بن مالك : إن من شرط الدهر ومن صناعة الزمان السلب ، فإذا حملت الأيّام على عدوّك ثقلاً وأمكنتك منه ، فزِدْهُ ثِقلاً إلى ثِقله . قال : فقال لي طوق : من لم ينتهز من عدوّه انتهز منه ، وحالت الأيام التي كانت بيضاً عليه سوداً . وأنشد :

لله درُّك ما ظننتَ بثائرٍ حرّانَ ليس على التراب براقد
أحقدتَه ثم اضطجعت ولم ينم أسفاً عليك وكيف نوم الحاقد
إن تمكنِ الأيامُ منك وعلّها يوماً توفك بالصُّواع الزائد
ولئن سلمتَ لأتركنّك عارضاً بعدي لكلّ مسالمٍ ومعاند

ومنهم من كان يرى جبرَ كسرِ العدوّ وإقالةَ عثرته ونصرتَه عند وثوب الدهر عليه . قال: حدثني ابنُ عبدالحميد ، قال ابن شبرمة : كانت الحربُ يومَ صفّين بين العرب محضةً لا شَوْبَ فيها ، فكانت محاربتُهم *كرًّا واعتناقاً ، وكانوا إذا مرُّوا برجل جريح كانوا يقولون : خذله قومه فانصروه، وألقاه دهره بمضِيعة فردُّوه إلى أهله .

وقال ابن شبرمة : ما زلنا نسمع أنّ المصيباتِ تنزع السجيات . قال : وأنشدني بعض أهل العلم في هذا المعنى :

فلو بي بدأْتُم قبلَ من قد دعوتُم لفرَّجتُها وحدي ولو بلغت جهدي

---

(٥) على الهامش ، وفي المتن : لمالك بن طوق ـ(١٦) كرا ، صححنا : كراما ؟

إذا المرءُ ذو القربى وذو الجند أجحفتْ به سَنةٌ سلّت مصيبته جعدي

ومنهم مَن رأى الإفضال على عدوّه وتركَ مجازاته ، وهذا كثير لا يحتاج فيه إلى استقصاء شواهده .

قال غيلان بن خرشنة الضبي ، وقال بعضهم بل الأحنف بن قيس : لا يزالُ العربُ بخير ما لبست العمائم وتقلّدت السيوف وركبت الخيل ولم تأخذها حميّة الأوغاد . قيل : وما حميّةُ الأوغاد؟ قال : أن يرَوا الحلمَ ذلاً والتواهب ضيما .

وقال الشعبي لرجل قال له : ألا تنتقم من فلان؟ فقد عاداك ونَصَب لك . فقال :

ليست الأحلامُ في حال الرضا إنما الأحلام في حال الغضب

وأنشدني بعض العلماء بيتين ، وقال : إن الزهري كان كثيراً ما يتمثل بهما :

وإني لأعدائي على المقت والقلى بني العم منهم كاشح *وحسود
أذُبُّ وأرمي بالحصا من ورائهم وأبدأ بالحُسنى لهم وأعود

وكان عبدالله بن مَرْوان إذا أنشد :

إني وإن كان ابنُ عمي كاشحاً لمراجمٌ من دونه ووراءه
ومُعيرُه نصري وإن كان امرءًا متزحزحا في أرضه وسمائه
وإن اكتسى ثوباً قشيباً لم أقل يا ليت أنّ عليّ حسنَ ردائه

---

(١٣) كذا على الهامش ، وفي المتن : وصديق .

« إني وإن كان ابن عمي كاشحاً . . . » ديوان الحماسة بشرح المرزوقي ، القسم الرابع ص ١٦٨٠ مع بعض الخلاف والزيادة والنقص .

وإذا تخرَّق في غناه وفرته　　وإذا تصعلك كنت من قرنائه

قال : هذا والله من شعر الأشراف . نفى عن نفسه الحسد واللؤم والانتقام عند الإمكان والمسألة عند الحاجة .

ومنهم من أمر بالسفه في العداوة ، واستعمال الخرق فيها . حدثني نوح بن أحمد ، عن أبيه ، عن جدّه ، عن ابن عباس ، قال : جاء النابغة الجعدي إلى رسول الله ﷺ ، فقال : هل معك من الشعر ما عفى الله عنه ؟ قال : نعم ، قال : أنشدني منه ، فأنشده :

وإنّا لقوم ما نعوِّد خيلنا　　إذا ما التقينا أن تحيدَ وتنفرا
وتنكر يوم الروع ألوان خيلنا　　من الطعن حتى يحسب الجون أشقرا
وليس بمعروفٍ لنا أن نردها　　صِحاحا ولا مستنكراً أن نُعقّرا
بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا　　وإنّا لنبغي فوق ذلك مظهرا

فقال له رسول الله ﷺ : إلى أين يا أبا ليلى ؟ فقال : إلى الجنة ، فقال رسول الله ﷺ : إلى الجنة إن شاء الله . ثم رجع في قصيدته فقال :

ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له　　حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا
ولا خير في حلمٍ إذا لم يكن له　　بوادر تحمي صفوه أن يُكدَرَا

فقال رسول الله ﷺ : لا فضّ الله فاك . فأتت عليه عشرون ومائة سنة ، كلما سقطت له سن أثغرت أخرى مكانها ، لدعوة رسول الله ﷺ . فهذا أحسن ما روي في البادرة التي يُصان بها الحلم .

وقال الشاعر الجاهليّ :

صفحنا عن بني ذهل　　وقلنا القوم إخوان

« وقال الشاعر الجاهلي . . » هو الفند الزماني ، شهل بن شيبان . ديوان الحماسة بشرح المرزوقي ، القسم الأول ، ص ٣٢ .

عسى الأيام أن يرجعـ ـن حياً كالذي كانوا
فلما صرّح الشرُّ وأمسى وهو عريان
مشينا مشية الليث غدا والليث غضبان
بضرب فيه توهين وتضجيع وإذعان
وطعنٍ كفم الزِقّ وها والزق ملآن
وفي الشرِّ نجاة حيـ ـن لا ينجيك إحسان

حدثنا أبو مسهر ، عن أبيه ، عن خالد بن عمرو الكلبي ، قال : كنا مع أبي برزة الأسلمي في غزاة ، فكان منّا رجل يمتار لنا المِيرة ويقوم بحوائجنا ، فإذا أقبل قلنا : جزاك الله خيراً ، فغضب لدعائنا ، فشكونا ذلك إلى أبي برزة ، فقال أبو برزة : كنا نسمع أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر ، فاقلبوا له . فكنا نقول له إذا أتانا بالحوائج : جزاك الله شراً وعسراً ، فيضحك لذلك .

وأنشدني رجل عن بعض الأعراب :

أرى الحلم في بعض المواطن ذلّة وفي بعضها عزاً يشرِّف فاعله
إذا أنت لم تدفع بحلمك جاهلا سفيهاً ولم تَقرن به من يجاهله
لبستَ له ثوب المذلة صاغراً فأصبح قد أودى بحقك باطله
فابق على جهال قومك إنه لكل حكيم موطن هو جاهله

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : استوصوا بالغوغاء خيراً ، فإنهم يطفئون الحريق ويسدّون البثوق .

وقال أبو سلمى في الجاهلية :

لا بد للسؤدد من رماح ومن عداءٍ يُتّقى بالراح
ومن كلابٍ جمة النباح

وقال مسلم بن الوليد :

حلفت لئن لم تكفني سفهاءها خزاعة والحيَّان عوف وأسلم
٣ لأرتجعن الوُدَّ بيني وبينها بقافية تفري العروق فتحسم
من اللاءِ لا يرجعن إلاّ شوارداً لهنّ بأفواه الرجال تهمهم
أصابوا حليماً فاستعَدوا بجاهل إذا الحلم لم يمنعك فالجهل أحزم

٦ ولم نستقص الأبواب كلها المعارضة في هذا الكتاب ، ولو استقصينا
لطالت بنا الأيام وتراخت الليالي ، إلى بلوغ الغاية في تمام الكتاب . وإنما
ذكرنا من كل باب عرضَ ما دل على معناه الذي إليه قصد .
٩ ولم نر الحسد أمرَ به أحد من العرب والعجم في حالٍ من الأحوال ،
ولا ندب إليه ونبَّه عليه . وقد نُبِّه على العداوة ، وفُصل بين أحوالها بما قد
بيّناه ، فظهر فضلها على الحسد بذلك .

١٢ وكنتُ امرءاً قليل الحُسّاد ، حتى اعتصمت بعروتك واستمسكت
بحبلك واستذرأت في ظلّك ، فتراكم عليَّ الحُسَّاد وازدحموا ، ورموني
بسهامهم من كل أوْبٍ وأفقٍ ، وتتابعوا عليَّ تتابُع الدَّبْر على مشتار العسَل .
١٥ ولئن كثروا لقد كثر بهبوب ريحك إخواني ، وبنَضرة أيامك وزهرة دولتك
خُلاّني . وأنا كما قلت :

فأكثرتَ حُسّادي وأكثرتَ خُلّتي وكنتُ وحُسّادي قليلٌ وخُلاّني

١٨ فلما بلغت هذا الفصل من تأليف هذا الكتاب ، دخل عليَّ عشرة نفَرٍ
من الكتّاب ، قد شملهم معروفك ورفع مراتبَهم جميل نظرك ، فهم من
طاعتك والمحبة لك على حسب ما أوليتهم من إحسانك وجزيل فوائدك .
٢١ فأفاضوا في حديث من أحاديث الحسد ، فشعَّب لهم ذلك الحديث شعوباً
افتنّوا فيها ، والحديث ذو شجون . فما برحوا حتى أتتني رُقعة أناسيَّة من

الحُسَّاد ، فيها سهام الوعيد ومقدِّمات التهديد والتحذير والتخويف للطعن على ما *أؤلِّف من الكتب ، إن أنا لم أضمن لهم الشركة فيما يجري عليَّ . فدفعت رقعتهم إلى مَن قرب إليَّ منهم ، فقرأها ثم قال : قاتلهم الله ! أبظُلمٍ يرومون النيْل ويلتمسون الشركة في المعروف؟ لَنَزْعُ الروح بالكلاليب أهون من بذل معروفٍ بترهيبٍ . وأنشأ يقول :

أبقى الحوادث من خليـ ـلك مثل جندلة المراجم
قد رامني الأعداء قبـ ـلك فامتنعت من المظالم

ودفعها إلى مَن قرب منه فقرأها ، وقال الثاني : صكة جلمود لكل مُرعِد حسود ، يستمطر العُرف بالتهديد ، خَلٍّ الوعيد يذهب في البيد . وأنشأ يقول :

أبرق وأرعد يا يزيـ ـد فما وعيدك لي بضائر

ودفعها إلى الثالث فقرأها وقال : سألوا ظلماً وخوّفوا هضماً ، لقوا حرباً ولقيت سلماً . وأنشأ يقول :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع

ودفعها إلى الرابع فقرأها وقال : قول الذليل ويوله سِيّانِ . وأنشأ يقول :

ما ضَرَّ تغلب وائل أهجوتها أم بُلت حيث تناطح البحران

---

(٢) الف ـ

« أبقى الحوادث . . . » عيون الأخبار ٣ : ٥٠ ؛ الأمالي ٢ : ٣١١ .

« أبرق وأرعد . . . » اللسان ، مادة رعد . يقول إن أبا عبيدة كان يحتج لجواز أرعد وأبرق ببيت الكميت هذا . وهو شاعر أموي ، أكثر شعره في بني هاشم .

« زعم الفرزدق . . . » ديوان جرير ص ٣٤٨ من قصيدة : « بان الخليط برامتين فودعوا » .

« ما ضر تغلب وائل . . . » ديوان الفرزدق ص ٨٨٢ .

ودفعها إلى الخامس فقرأها وقال : نهيق الحمار ودم الأعيار ، جُبّار جُبار . وأنشأ يقول :

ما أبالي أنبَّ بالحزن تيس ... أم لحاني بظهر غيب لئيم

ودفعها إلى السادس فقرأها وقال : إذا علقتك الأمجاد فليّهن عليك الحُسّاد . وأنشأ يقول :

إذا أهل الكرامة أكرموني ... فلا أخشى الهوان من اللئام

ودفعها إلى السابع فقرأها وقال : كيف يخاف الصرعة مَن هو في ذي المنعة . وأنشأ يقول :

كم تنبحون وما يغني نباحكم ... ما يملك الكلبُ غير النبح من ضرر

ودفعها إلى العاشر فقرأها وقال : نَوكى هَلكى ، لم يعرفوا خبرك ولا دروا أمرك . وأنشأ يقول :

فلو علم الكلاب بنو الكلاب ... بحالك عند سيّدنا لذلّوا

وعندي صديق لي من السوقة له أدب ، فقال لي بعقب فراغهم مُسِرًّا : إنّ هؤلاء الكتاب قد أظهروا الاستخفاف بقول الحُسّاد ، وضربوا الأمثال في هوانهم عليك ، وعرفوا أنك في منعةٍ من عِزِّ أبي الحسن ـ أطال الله بقاءه ـ ومعقل لا يُسامَى ولا ينال ، وأنا أقول بالشفقة :

تَوَقَّ قوماً من الحُسّاد قد قصدوا ... لحظّ قدرك في سِرٍّ وفي عَلَنِ

فقلت له : إني أقول بيتين هما جوابك وجواب الحُسّاد :

إنّ ابن يحيى عبيدالله أمّنني ... من الحوادث بعد الخوف من زمني

« ما أبالي أنب بالحزن . . . » ديوان حسان بن ثابت .

فلست أحذر حُسّادي وإن كثروا ما دُمتُ مُمسكَ حبل من أبي الحسن

فلما رأى صديقي اقتفائي آثار الكُتّاب ، باستهانتي *بالحسّاد عند اعتلاقي حبائلك ـ أعزك الله ـ أنشأ متمثلاً* يقول بشعر نصر بن سيّار :

إنّي نشأت وحُسّادي ذوو عددٍ يا ذا المعارج لا تنقص لهم عددا
إن يحسدوني على ما قد بنيت لهم فمثل حسن بلائي جرَّ لي الحسدا

وليس العجب أن يكثروا ، وأنا أنعق بمحاسنك وأهتف بشكرك ، ولكن العجب كيف لا تتفتت أكبادهم كمداً . وكان بعضهم يقول : اللهم كثِّر حُسّاد ولدي ، فإنهم لا يكثرون إلاّ بكثرة النعمة . فإن كان والدي سبق منه هذا الدعاء ، فإنّ الإجابة كانت مخبوءة إلى زمان عزك ، فقد رأينا تباشيرها وبدت لنا عند عنايتك غايتها .

وكان بعض الصالحين يقول : اللهم اجعل ولدي محسودين ولا تجعلهم مرحومين ، فإنّ يوم المحسود يوم عزّه ويوم *الحاسد يوم ذلّه .

ويقال إنه لما مات الحجاج سمعوا جاريةً خلف جنازته وهي تقول :

اليوم يرحمنا مَن كان يحسدنا واليوم نتبع مَن كانوا لنا تبعا

ويقال إن زياد بن أبيه قال لحُرقة ابنة النعمان : أخبريني بحالكم ، قالت : إن شئتَ أجملتُ وإن شئتَ فسرت ، فقال لها : أجملي ، فقالت : بتنا نُحسَد وأصبحنا نُرحم . فخطبها زياد ـ وكانت في دير لها . فكشفت عن رأسها ، فإذا رأس محلوق ، فقالت : أرأس عروس كما ترى يا زياد ؟ وأعطاها دنانير فأخذتها وقالت : جزتك يد افتقرت بعد غنًى ، ولا جزتك يد استغنت بعد فقر .

---

(٢) للحساد ه ـ (٣) كذا في ه ، ولعلها مقحمة ـ (١٢) كذا في ه ، ولعلها : المرحوم ـ

ولا نعلم الحسد جاء فيه شيء أكثر من حديثٍ رُوي عن النبي ﷺ : لا حسد إلاّ في اثنين ، رجل أتاه الله حفظ القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناءَ النهار ، ورجل أتاه الله مالاً فهو ينفقه في وجوه البر آناء الليل وآناء النهار . فهذا الحسد إنما هو في طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله ﷺ .

وقال بعض الأشراف :

أحسُد على نيل المكارم والعُلاَ ... إذ لم تكن في حالة المحسود
حسد الفتى في المكرمات لغيره ... كـرم ولكن ليس بـالمعـدود

فهذا ما انتهى إلينا من أخبار الحسد . وزادك الله شرفاً وفضلاً وعلماً ومعرفة، ولا زلت بالمكان الذي يُهدى إليك <فيه> الكتب، ويُتحف بنوادر العلوم وفرائد الآداب. إنه قريب مجيب*.

---

(١٠) تم الكتاب ولله المنة وبيده الحول والقوة

(٩)
رسالة كتمان السر وحفظ اللسان

تقدمة :

هذه الرسالة التي صدرنا بها عن مجموعة داماد إبراهيم باشا ، والتي لم نجد منها في غيرها غير قطعة صغيرة في كتاب المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ ، هي التي ذكرها ياقوت بالشطر من عنوانها هذا : (كتاب رسالته في كتمان السر) . ولم يذكر معها ولا في أثنائها ما يدل على المرحلة التي يمكن أن تنتمي إليها . ولذلك أثبتناها بعد الرسائل الثلاث لتكون رابعة لها .

وإذا كان لنا أن نتحسس فيها بعض ما يمكن أن يشير لنا إلى خلال الشخص الذي وجه الجاحظ بها إليه ، استطعنا أن نزعم ، في غير كبير تحرج ، أنه ليس من طبقة هؤلاء الذين بلغوا أسمى المنازل ، كما كان ابن الزيات مثلاً ، وإنما هو من طبقة دون ذلك ، تأذن للجاحظ أن يقف منه موقف المرشد له ، فيما هو آخذ فيه ، وأنه فضلاً عن هذا لم يكن من هؤلاء الذين توثقت من قبل بهم صلته ، فارتفع حجاب التكلف بينهم وبينه . يشعرنا بهذا قوله في صدرها :

« أما بعد ، فإني تصفحت أخلاقك ، وتدبرت أعراقك ، وتأملت شيمك ، ووزنتك فعرفت مقدارك ، وقومتك فعلمت قيمتك ، فوجدتك قد ناهزت الكمال ، وأوفيت على التمام ، وتوقلت في درج الفضائل ، وكدت تكون منقطع القرين ، وقاربت أن تلفى عديم النظير ، لا يطمع فاضل أن يفوتك ، ولا يأنف شريف أن يقصر دونك ، ولا يخشع عالم أن يأخذ عنك » .

وكأنه يقدم إلينا بهذه الصفات رجلاً يستشرف أعلى المنازل في الدولة ، بما يؤهله لبلوغها ، وأنه يوشك أن يصل إليها ويقبض على أزمتها ، حتى ليسبق إلى الخاطر أنه ربما كان يعني بها رجلاً من خاصة الخليفة المتوكل ، مثل عبيدالله بن يحيى بن خاقان ، قبل أن يستكتبه المتوكل ويوليه وزارته ، أو في إبان ذلك .

ولا بأس ، في مثل هذه التقدمة ، أن نمضي مع هذا الفرض الذي لا نراه بعيداً ، فنتمثل عبيدالله شاباً غضاً ، وقد تمرس بشيء من أعمال الدولة بنشأته إلى جوار أبيه الذي كان يتولى للمتوكل ديوان الخراج . وأنه كان بمثل هذه النشأة ، وبشبابه المتفتح ، وما يؤثر عنه من وداعة ورقة ، يقع من المتوكل في موضع الحاجة التي جعل يستشعرها ، منذ أحس الضجر بوزيره محمد بن الفضل الجرجرائي يداخل نفسه ، فجعل يتطلع إلى أن يستبدل به وزيراً شاباً ، فكان عبيدالله هو الذي رشح لهذا المنصب .

وإذا استقام هذا الفرض فإنه يؤدي بنا إلى أن نرى الجاحظ ، الذي وضعته الأقدار في هذا الوسط ، يتمثل هذا الشاب الذي تغلبه ، بطبيعة حداثته ، الغرارة وقلة التجربة وعدم القدرة على التبصر ورؤية العواقب ،

بحاجة ، في مثل هذا الذي هو مقبل عليه من شؤون الدولة وملابسة السلطان ، إلى من يبصره بما ينبغي أن يأخذ نفسه به ، ليعتصم به مما عسى أن يتربص به في هذه الغمرة التي يخوضها .

وطبيعي أن يكون أول ما يتعرض له شاب مثل عبيدالله ، في مثل هذا المنصب الذي أسند إليه، هو ما تؤديه إليه غرارته وضعف بصيرته، وأن أول ما يجب على الناصحين له أن يوجهوه إليه ، هو توقي ما تجره إليه هذه الغرارة ، من ضعف السيطرة على لسانه ، والتحفظ في أسراره ، بتكتمها ، وأن لا يدعها تسترسل بين جلسائه .

وكذلك كان هذا أول ما لفت نظر الجاحظ فيه ، على الرغم من صفاته تلك التي استفتح رسالته إليه بالاشادة بها ، وذلك إذ يقول في عقبها : « ووجدتك في خلال ذلك على سبيل تضييع وإهمال لأمرين ، هما القطب الذي عليه مدار الفضائل ، فكنت أحق بالعذل ، وأقمن بالتأنيب ، ممن لم يسبق شأوك ، ولم يتسنم رتبتك » . فإذا فرغ من تشقيق القول في تبرير هذا العذل ، وتفسير هذا التأنيب ، والاستشهاد لما ينزع إليه من ذلك،صرح بهما قائلاً : «والأمران اللذان نقمتهما عليك ، وضع القول في غير موضعه ، وإضاعة السر بإذاعته » .

فها هي ذي ملابسات هذه الرسالة ، ودوافع الجاحظ إلى كتابتها : رأى شاباً اقتضى الطابع العام للعهد المتوكلي أن يتولى الوزارة ، وعلم بثاقب بصيرته أنه بطبيعة حداثة سنه غير مقدر لتبعاتها ، وأولها أن يحفظ لسانه ويصون أسراره ، فعزّ عليه أن يدعه وشأنه . فلم يجد إلا أن يوجه إليه بهذه الرسالة ، ويؤدي بذلك واجب النصح له ، قياماً بحقه عليه ، وهو

الذي آمن خوفه وسكن جوارحه ، وبحق الدولة التي أفسحت له من جانبها ، ورعت له حرمته .

ولكن الجاحظ كاتب أديب مفكر . وبهذه الصفات التي هي جزء من شخصيته لا ينفصل عنه يعالج موضوعه ، ويعكس في هذه المعالجة ملامح هذه الشخصية . ولسنا بحاجة هنا إلى أن نعرض لما سبق القول فيه ، فنبين خصائص أسلوبه الكتابي الذي جعل من النثر فنا يشارك الشعر في بعض مفاهيمه . ولكنا نحاول أن نتبين مظاهر فكره ، في مثل موضوع هذه الرسالة ، وليس من موضوعات الكلام ، أو مسائل الاعتزال ، ولا يصله بها إلا الطابع العام للمعتزلة ، إذ يريدون ـ كما يقول ـ أن يعلموا كل شيء ، وإلاالمنهج الذي التزموه فن المناظرة في كل شيء ، فتفتحت بذلك أمامهم جميع الآفاق . واستطاع الجاحظ بما كان يتمتع به من موهبة أدبية مكنت له من التغلغل في بواطن الأمور ، ورؤ ية دقائقها ، والقدرة على التعبير عنها ، بأسلوب رشيق وعبارة ممتعة ، أن يجول في هذه الآفاق ويعرض شتى صورها ، بعيداً عما كان العهد الجديد يضيق به ، وينكر الخوض فيه .

ومن هنا نرى أن ما جعل يبدو ـ بادىء الرأي ـ أنه إنما أراد أن يؤدي بهذه الرسالة حق النصيحة إلى وزير شاب لم يتمرس بأسباب الحياة ، ليجنبه ما تورطه فيه غرارة الشباب من مزالق ، وليأخذه بأول ما يجب عليه من ضبط لسانه وحياطة أسراره ، ليس في حقيقة الأمر إلا الغاية البعيدة ، أما الغاية القريبة والمباشرة التي تعبر عن شخصية الجاحظ المفكر والأديب فهي معالجة قضية (حفظ اللسان وكتمان السر) معالجة تعتمد على الحقائق الإنسانية الثابتة، ملتمساً لها شواهدها من ذخائر التراث الأدبي الذي يعيه صدره . كأن تولية هذا الشاب الوزارة أثار في نفسه عناصر هذه

القضية ، وهاج في قلبه الرغبة في معالجتها . وهو يعلم أنها ليست من اليسر بحيث يكفي ما هو آخذ فيه ليحول بين هذا الشاب وبين ما هو متعرض له .

ومن ذلك ما يقوله : « وليس الخطر فيما أسومك وأحاول حملك عليه بسهل ولا يسير . وكيف ؟ وأنا لا أعرف في دهري ـ على كثير عدد أهله ـ رجلاً واحداً ممن ينتحل الخاصة ، وينسب إلى العلية . ويطلب الرياسة ، ويخطب السيادة ، ويتحلى بالأدب ، ويديم الثخانة والزماتة ، والحلم والفخامة ، أرضى ضبطه للسانه ، وأحمد حياطته لسره ، وذلك أنه لا شيء أصعب من مكايدة الطبائع ، ومغالبة الأهواء ، فإن الدولة لم تزل للهوى على الرأي طول الدهر ، والهوى هو الداعية إلى إذاعة السر ، وإطلاق اللسان بفضل القول » .

فهو إذن مقدر قبل كل شيء أن ضبط اللسان وحياطة الأسرار أمران متصلان أوثق اتصال بالطبائع ، ولا شيء أصعب من مكابدتها . وعلى هذا الأصل انبنت دراسته لهذه القضية ، إذ عينت هذه الطبائع للسان وظيفته ، وحددت مكانه مما يضطرب في قلب صاحبه ويموج به ضميره . فهو ليس إلا ترجماناً للقلب ، « والقلب خزانة مستحفظة للخواطر والأسرار ، وكل ما يعيه عن الحواس من خير وشر ، وما تولده الشهوات والأهواء ، وينتجه الحكم والعلم » .

وكما حددت الطبائع للسان وظيفته هذه ، عينت للقلب أو الصدر شانه فيما يعيه . وذلك « أن يضيق بما فيه ، ويستثقل ما حمل منه ، فيستريح إلى نبذه ، ويلذ إلقاءه على اللسان ، ثم لا يكاد أن يشفيه أن

يخاطب به نفسه في خلواته ، حتى يفضي به إلى غيره ، ممن لا يرعاه ولا يحوطه » .

ولكن هنالك زماماً على اللسان من شأنه أن يزمه ويخطمه ، وهو العقل ، وما يشير به من رأي . « فإذا قهر الرأي الهوى ، فاستولى على اللسان منعه من تلك العادة ، ورده عن تلك الدربة ، وجشمه مؤونة الصبر » .

فها هي ذي أصول ثلاثة أودعها الله في الإنسان ، وعن علاقة ما بينها يكون تصرفه إزاء ما انطوى عليه صدره ، وعنها تنشأ مراتب ثلاثة :

المرتبة الأولى ، وهي أصعبها إدراكاً وأشقها مؤونة ، أن يتولى العقل سلطانه ، ويمارس وظيفته ، ويسيطر على اللسان ، فلا ينطلق إلا في الحدود التي يرسمها ، وفي الآفاق التي يحدها الرأي ، غير تارك للأهواء سبيلاً إليه .

والمرتبة الثانية هي الصمت أبداً ، والتزام السكوت سرمداً . وذلك ـ كما يقول ـ « أسهل مراماً ـ على ما فيه من المشقة ـ من إطلاق اللسان بالقول على جهة التحصيل والتمييز والقصد إلى الصواب » . وهو ذلك الذي وضعناه في المرتبة الأولى . وإنما ترجع المشقة في هذه المرتبة لما فيها من مجاذبة الطبائع ، وما ينشأ عن هذه المجاذبة من الكرب والسقم والكمد ، « يحس له في سويداء قلبه بمثل دبيب النمل وحكة الجرب ، ومثل لسع الدبر ووخز الأشافي» .

فالإنسان في المرتبة الأولى حكم عقله وما يشير به من رأي ، وفي المرتبة الثانية أعفى نفسه من ذلك ، واحتمل في سبيل ذلك كرب الكتمان . أما المرتبة الثالثة فهي المرتبة التي لم يعد للعقل سلطان فيها ،

ثم حل الهوى محله ، فانطلق اللسان على سجيته ، يترجم عما ضاق به صدر صاحبه ، ويستجيب للشهوة الغالبة عليه ، فانطلقت الأسرار في كل سبيل ، لا ضابط لها ، ولا شيء يمكن أن يردها ويقمعها .

« والسر - أبقاك الله - إذا تجاوز صدر صاحبه ، وأفلت من لسانه إلى أذن واحدة ، فليس حينئذ بسر . بل ذاك أولى بالإذاعة ، ومفتاح النشر والشهرة . وإنما بينه وبين أن يذيع ويستطير أن يدفع إلى أذن ثانية . وهو مع قلة المأمونين عليه ، وكرب الكتمان ، حري بالانتقال إليها في طرفة عين. وصدر صاحب الأذن الثانية أضيق ، وهو إلى إفشائه أسرع ، وبه أسخى ، وفي الحديث به أعذر ، والحجة عنه أدحض . ثم هكذا منزلة الثالث من الثاني والرابع من الثالث ، أبداً إلى حيث انتهى»، إلى آخر ما يفيض الجاحظ فيه من وصف هذه المرتبة ، ومن الحديث عما يترتب عليها ، وقد أصبح صاحبها منذ أطلق عن سره عقاله ، وفتح أقفاله ، « العبد القن المملوك لمن ائتمنه على سره وملكه رق رقبته ، فإن شاء أحسن ملكته لحفظ ذلك السر ، فجز ناصيته ، وجعله رهينة ليوم عتبه عليه . . . وإن أساء الملكة ، وختر الأمانة ، فأطلق السر واسترعاه من هو أشد منه إضاعة ، سفك الدم وأزال النعم وكشف العورة وفرق بين الجميع » .

وبعد ، فهذه هي الأصول الثلاثة التي تصدر عن الطبائع التي طبع الإنسان عليها . والتي نستطيع أن نتبينها في خلال حديث الجاحظ عن الموضوع الذي عقد له هذه الرسالة ، وهذه هي المراتب الثلاثة ، كما تأدت إلينا ونحن نحاول تحليلها . ونرجو أن نكون بما قدمنا من ذلك قد أدينا الصورة التي تمهد لنصها وتعين على تفهمه والإحاطة بجوانبه ، ومعرفة خطوط النهج الذي كان الجاحظ يلتزمه في معالجة هذه الموضوعات ، والذي كان يحقق به صفته الكلامية ونزعته الأدبية جميعاً .

النص :

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم

أمّا بعدُ ، فإنّي تصفّحتُ أخلاقَك وتدبّرتُ أعراقَك وتأمّلتُ شِيَمَك ، وَوَزَنْتُكَ فَعَرفتُ مقدارَك وقوّمتُك فعلمتُ قيمتَك ، فوجدتُك قد ناهزتَ الكمال وأوفيتَ على التمام وتوقّلتَ في دَرَج الفضائل ، وكِدتَ تكونُ مُنقطِع القرين وقاربتَ أن تُلفى عديمَ النظير ، لا يطمع فاضلٌ أن يَفوتك ولا يأنف شريفٌ أن يُقصِّر دونَك ولا يخشع عالمٌ أن يأخذ عنك . ووجدتُك في خِلال ذلك على سَبيل تضييعٍ وإهمالٍ لأمرين هما : القُطبُ الذي عليه مَدارُ الفضائل ، فكنتَ أحقّ بالعَذل وأقمنَ بالتأنيب ، مِمّن لم يَسبِق شأوَك ولم يَتَسنّم رُتبتَك ، لأنّه ليس مَلوماً على تضييع القليل مَن قد أضاع الكثير *ولا يَهتمُّ بإصلاح يومه، وتقويم ساعته، مَن قد استحوَذَ الفسادُ على دَهره، ولا يُحاسَبُ على الزَلّة الواحدة مَن لا *يُعَدُّ منه الزَلَلُ والعِثار؛ ولا يُنكَر المنكَرُ على مَن ليس من أهل المعروف ، لأنّ المنكَر إذا كثُر صار معروفاً ، وإذا صار المنكَرُ معروفاً صار المعروفُ منكَراً . وكيف يُعجَبُ مِمّن أمرُه كلُّه عَجَب . وإنّما الإنكارُ والتعجُّب مِمّن خَرَج عن مَجرَى العادة وفارق السُنّة والسَجيّة ، كما قال الأوّل : خالِفْ تُذْكَر ، وقيل : الكاملُ مَن عُدَّت سَقَطاتُه ، وقيل :مَن استوى يَوْمَاهُ فهو مغبون، ومَن كان يومُه خَيراً من غَدِه فهو مفتون،ومَن كان غَدُه خيراً من يومه فذلك السعيدُ المغبوط . وفي هذا المعنى قال الشاعر :

رأيتُـكَ أمْسِ خيرَ بني مَعَـدٍّ   وأنت اليومَ خيرٌ منـك أمْسِ
وأنت غداً تَزيدُ الضِعفَ خيراً   كذاكَ تزيدُ سادةُ عبدِ شمسِ

---

(١١) ولا يسم اصلاح د - (١٢) يعدم د -

وقال آخَرُ في مَعْنٍ :

أنت آمــرؤٌ همُّــك المعــالي وذَلْــوُ مــعــروفِــكَ الــرَّبيــعُ
وأنــت مِــن وائــلٍ صَـمـيــمٌ كــالقلبِ تَحْنِي لــه الضُّلوعُ
في كـلِّ عـامٍ تَـزِيـدُ خيـراً يُشيـعُـه عنـك مَـن يُشيـعُ

وآلأمرانِ اللذانِ نَقِمتُهما عليك : وَضعُ القَولِ في غير موضعه وإضاعةُ السِرّ بإذاعته . وليس الخطرُ فيما أسومُك وأُحاوِلُ حَملَك عليه بسهلٍ ولا يَسير . وكيف وأنا لا أعرفُ في دَهْري ـ على كثيرِ عَدَدِ أهْلِه ـ رجلاً واحداً مِمَّن يَنتحلُ الخاصَّة، ويُنسبُ إلى العِلْيَة، ويَطلبُ الرياسة ويَخطُب السيادة، ويَتَحلّى بالأدب، ويُديم الثَخانة والزَماتة والحِلمَ والفخامة، أرضى ضَبْطَه للسانِه، وأحمَدُ حِياطَته لسرّه . وذلك أنّه لا شيءَ أصعبُ مِن مُكايَدَة الطبائع ومُغالَبَة الأهواء ، فإنَّ الدَولَة لم تزَلْ للهوَى علَى الرأي طولَ الدَهر ، والهوَى هو الدّاعِيَةُ إلى إذاعَة السرِّ وإطلاق اللسان بفَضلِ القول . وإنّما سُمِّيَ العقلُ عقلاً وحِجْراً ـ قال الله تعالى ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ ـ لأنّه يَزُمُّ اللسانَ ويخْطِمُه ويَشكُله ويزِنه، ويقيّد الفَضلَ ويَعقِلُه عن أنْ يَمضِيَ فُرُطاً في سَبيل الجهل والخَطإ والمضرَّة ، كما يُعقَلُ البعيرُ ويُحجَرُ على آليتيم . وإنّما اللسانُ ترجُمان لِلقلب. والقلبُ خِزانةٌ مُسْتحفَظةٌ لِلخواطر وآلأسْرار وكُلُّ ما يَعيه ذلك عن الحواسِّ من خير وشرّ وما تُولّده الشهوات والأهواء وتنتجُه الحكمةُ والعِلم . ومِن شأنِ الصّدر ـ على أنّه ليس وِعاءً لِلأجرام ، وإنّما يَعِي بقدرة الله لا يَعرفُ العبادُ كيف هي ـ أن يَضيقَ بما فيه، ويستثقلَ ما حمل منه ، فيَستريحَ إلى نَبْذه ويَلَذُّ إلقاءَه على اللسان ، ثم لا يَكادُ أن يَشفِيَه أن يُخاطِبَ به نفسَه في خَلَوَاتِه حتّى يُفضيَ

(٣) تمنى له : ب ـ (١٤ـ١٥) سورة الفجر : ٥

به إلى غيره مِمَّن لا يَرعاه ولا يَحوطُه ، كلّ ذلك ما دامَ الهَوَى مُسْتَولياً على اللسانِ، واستعمل فضول النظر فدَعَتْ إلى فُضولِ القول .

فإذا قَهَر الرأيُ الهَوَى فاسْتَوْلَى على اللسان مَنعَه مِن تلكَ العادة، ورَدَّه عن تلكَ الدُرْبَة، وجَشّمه مَؤونةَ الصَبر على ستر الحِلم والحِكمة . ولا شيءَ أعجبُ مِن أنّ المنطِقَ إحدى مَواهبِ اللّهِ العِظام ونِعَمِه الجِسام ، وأنَّ صاحِبَها مَسؤولٌ عنها ومحاسَبٌ على ما خُوِّل منها ، أوجبَ اللّهُ عليه استعمالَها في ذِكره وطاعتِه والقِيامِ بقِسْطه وحُجَّتِه، ووَضعَها مواضِعَ النَفعِ في الدِينِ والدُنيا، والإنفاق منها بالمعروفِ لفظةً لفظةً، وصَرْفَها عن أضدادِها . فلم يَرْضَ الإنسانُ أنْ عطَّلَها عمّا خُلِقتْ له ممّا ينفعُه حتّى استعملها في ضدِّ ذلك مِمّا يضرُّه ، فاجتَمعَ عليه الإثمانِ اللّذان آجتمعا على صاحبِ المال الذي كنَزَه ومَنَعه مِن حقّه ، فوجبَ عليه إثمُ المنع وإن كان لم يَصْرفْه في معصِيَة ، ثم صرفَه في أبوابِ الباطل والفِسق ، فَوَجَب عليه إثمُ الإنفاقِ مِنها . وهذه غايةُ الغَبنِ والخُسران ، نَعوذُ بالله مِنها .

فاللسانُ أداةٌ مُستَعمَلة لا حمدَ له ولا ذمَّ عليه ، وإنّما الحمدُ للحِلْم واللَومُ على الجَهل ، فالحلمُ هو الاسمُ الجامعُ لكلِّ فَضل، وهو سُلطان العقلِ القامعُ لِلهوَى . فليسَ قَمْعُ الغَضَب وتسكينُ قُوَّة *الشرّ وإسقاطُ طائِرِ الخُرق بأحقّ بهذا الاسم ولا أَوْلَى بهذا الرَسم *من قمعِ فَرطِ الرِضا وغلبةِ الشَهَوات، والمنعِ من سُوءِ الفَرَح والبَطَر، ومن سُوءِ الجَزَع والهَلع وسُرعةِ الحمد والذَمّ وسُوءِ الطبع والجَشَع وسُوءِ مُناهَزةِ الفُرصة *وفرط الحِرصِ على الطِّلبة، وشِدَّة الحنين والرِقّة، وكثرةِ الشكوَى والأسَف، وقربِ وقتِ الرِضا من وقتِ السخط، ووقتِ السخط مِن وقت الرضا، ومِن اتّفاق حَركاتِ اللسان

---

(١٦) الشره – (١٧) مع – (١٩) فرض

والبَذن على غير وَزْنٍ معلومٍ ولا تَقْدير موصوف وفي غير نَفعٍ ولا جَدَى .

وآعلم يقيناً أنّ الصَمتَ سَرْمَداً أبداً أسْهَلُ مَراماً ـ على ما فيه من المشقّة ـ من إطلاقِ اللسانِ بالقَوْل على جِهةِ التحصيل والتمييز والقَصْدِ للصواب ، لِما قدَّمنا ذكرَه من عِلّة مجاذَبة الطباع ، ولأنّ من طَبعِ الإنسان محبّةَ الإخبارِ والاسْتِخْبار . وبهذه الجِبِلّة التي جُبلَ عليها الناس نُقِلت الأخبارُ عن الماضين إلى الباقين < و > عَن الغائب إلى الشّاهد ، وأحبَّ الناسُ أن *يُنقَل عنهم ، ونَقَشوا خَوَاطِرَهم في الصُخور وآحتالوا لِنَشر كلامهم بِصُنوفِ الحِيَل . وبِذلك ثَبَتت حجّةُ الله عَلَى مَن لم يُشاهِدْ مخارجَ الأنبياء ولم يَحضُرْ آياتِ الرَسول . وقامَ مَجيءُ الأخبارِ عن غير تشاعر ولا تَواطُىء مقام العِيان ، وعُرِفَت البُلدانُ والأقطارُ والأمم والتجاراتُ والتَدبيراتُ والعلامات ، وصار ما ينقُله النَاسُ بعضُهم عَن بعضٍ ذريعةً إلى قَبولِ الأخبارِ عن الرُسُل وسُلّماً إلى التصديق وعَوْناً على الرِضا بالتقليد . ولولا حلاوةُ الإخبارِ والاستِخبار عندَ الناس لَما انتقلت الأخبار وحلَّت هذا المحلّ . ولكنّ الله عزَّ وجلَّ حبَّبَها إليهم لهذا السَبب ، كما جعَل عِشقَ النساء داعيةً للجِماع ، ولذّة الجِماعِ سبيلاً للنَسل ، والرِقّة على الوَلَدِ عَوْناً على التربيَة والحَضَانة ، وبهما كان النُشوء والنَماء ، وحُبَّ الطعَام والشراب سبباً للغذاء ، والغذاءَ سبباً للبقاءِ وعمارةِ الدُنيا .

فعَسُر على الإنسانِ الكِتمانُ لإيثارِ هذه الشهوة والانقيادِ لهذه الطبيعة ، وكانت مزاولةُ الجبالِ الراسياتِ عن قواعدِها أسهلَ مِن مجاذَبة الطبائع . فاعتراه الكَرْبُ لكتمانِ السِرّ ، وغَشِيَه لذلك سُقمٌ وكَمَدٌ يُحِسُّ *له في سُوَيْداء قلبِهِ بمثلِ دَبيبِ النَمل وحِكّة الجرَب ومِثل لَسْع الدَبْر ووَخْزِ

(٧) يعقل ـ(٢٠) به ـ

الأشافيّ ، على قَدْر اختلافِ مقادير الحُلوم والرَّزانة والخِفّة . فإذا باح بسرِّه فكأنّه أُنْشِطَ من عِقالٍ . ولذلك قيل : الصَّدرُ إذا نَفَثَ بَرَأَ ، مثلاً مَضروباً لهذه الحال . وقيل :

* ولا بُدّ من شكوى إذا لم يكن صبر *

وليس قولُنا : طُبِعَ الإنسانُ على حبِّ الإخبارِ والاسْتِخبار ، حجةً له على الله ، لأنّه طُبِع على حبِّ النِساءِ ومُنِع الزنا ، وحُبِّبَ إليه الطعامُ ومُنِع من الحرام ، وكذلك حُبِّب إليه أَنْ يُخبر بالحقِّ النافع ويَسْتخبرَ عنه ، وجعلتْ فيه استطاعةُ هذا وذاك ، فاختارَ الهوَى على الرأي .

وممّا يؤكِّد هذا المعنَى في كَرْبِ الكِتمانِ وصعُوبَتِه على العُقلاء فَضْلاً عن غيرهم *ما رَواه عن بعضٍ فُقَهائهم أنّه كان يحملُ أخباراً مَستورةً لا يحتملُها العَوامُّ ، فضاق صَدرُه بها ، فكان يبرُزُ إلى *العَرَى فيحتفِرُ بها حَفيرةً يُودِعُها دَنًّا ثم ينكبُّ على ذلك الدَّنِّ فيحدِّثه بما سَمِع فيُروِّح عن قلبه ويَرَى أن قد نَقَل سرَّه من وعاءٍ إلى وِعاءٍ .

وكان الأعمشُ سَيِّءَ الخُلُق غَلِقاً ، وكان أصحابُ الحديثِ يُضْجِرونَه ويَسُومونَه نَشْرَ ما يحبُّ طَيَّه عنهم وتكرارَ ما يحدِّثُهم به ويتعنّتونه ، فيحلفُ لا يحدِّثُهم الشَهرَ والأكثرَ والأقلّ . فإذا فَعَل ذلك ضاق صدرُه بما فيه وتطلَّعت الأخبارُ إلى الخُروج منه ، فيُقبلُ على شاةٍ كانت له

(١٠) كذا في الأصل- (١١) لعل الصواب البراري .

(١) الحيوان ١ : ٢٠٤ وما كثرة الشكوى بأمر حزامه البيان ٣ : ٢٤٦ .
(٢) كذا في الأصل- (٣) لعل الصواب البراري .

الأعمش هو سليمان بن مهران . سكن الكوفة . وكان- كما يقال في صفته -من أقرأ الناس للقرآن ، وأعرفهم بالفرائض ، وأحفظهم للحديث . وما ذكره الجاحظ يوافق ما وصف به من أنه « كان عسراً سيىء الخلق » . عاش في القرن الأول والثاني ، ومات سنة ١٤٨ (تاريخ بغداد ٩ : ٣-١٣) .

في منزله ، فيحدِّثُها بالأخبار والفقه ، حتى كان بعضُ أصحابِ الحديث يقول : ليت أنّي كنتُ شاةَ الأعمش .

وشكا هِشامُ بنُ عبدِالملك ما يجدُ من فقد الأنيسِ المأمون على سرِّه ، فقال : أكلتُ الحُلو والحامض حتى ما أجدُ لهما طعماً ، وأتيتُ النّساء حتّى ما أبالي امرأةً لقِيتُ أم حائطاً ، فما بَقيتْ لي لذّةٌ إلّا وجودَ أخٍ أضعُ بَيني وبينه مؤونة التحفُّظ .

وقال مُعاوية لعَمْرِو بنِ العاص : ما اللذّة ؟ قال : تأمرُ شبابَ قريشٍ أن يَخرُجوا عنّا ، ففعل . فقال : اللذّةُ طرحُ المُروءة . وقد صَدَق عَمْرو ، ما تكونُ الزَماتةُ والوَقارُ إلّا بحَملٍ على النَفس شديد ورياضةٍ مُتعِبة . وقال بعض الشُعراء :

ألم تَــرَ أنّ وُشـاةَ الــرجـا ل لا يَدَعُون أديمـاً صحيحا
فــلا تُـفشِ ســرَّك إلّا إليـ ـك فإنّ لكلّ نصيحٍ نَصيحا

والسرُّ ـ أبقاك الله ـ إذا تجاوَزَ صَدرَ صاحبه وأفلتَ من لِسانه إلى أُذُن واحدة ، فليس حينئذٍ بسرّ بل ذاكَ أوْلَى بالإذاعة ومِفتاحُ النشر والشُهرة . وإنّما بينَه وبينَ أن يَشيعَ ويَستطير أن يُدفعَ إلى أُذُن ثانية ، وهو مع قِلّة المأمونين عليه ـ وكربِ الكِتمان ـ حريٌّ بالانتقال إليها في طَرْفة عَين . وصَدرُ صاحبِ الأُذُن الثانية أضْيَق وهو إلى إفشائه أسرع وبه أسخَى وفي الحديثِ به أعذر والحجّة عنه أدْحَض ، ثمّ هكذا منزلةُ الثالثِ من الثاني والرابع من الثالث أبَداً إلى حيثُ انتهَى . هذا أيضاً إذا استعْهد المحدِّثُ واستكتم وكان عاقلاً حليماً وناصحاً وَادّا ، فكيف إذا أُخْبِر ولَم يُؤمر بالكتمان وكانَ ممَّنْ يَمشي بالنَمائم ويحبُّ إفشاءَ المعايب ، وكان ممن

يَنْطوي على غِشّ أو شحناء أو كان له في إظهاره *اجتلاب نفعٍ أو دفعُ ضرر . فاللوم إذ ذاكَ على صاحبِ السرّ أوجب *وعمّن أفضى به إليه أدلُّ* ، لأنّه كانَ مالكاً لسرّه فأطلقَ عِقالَه وفتح أقفاله وسَرَّحه ، فأفلتَ من قَيْده ووِثاقه وصار هو العبدُ القنُّ المملوكُ لمن ائتَمنَه على سرّه وملّكه رقَّ رقبته . فإن شاء أحسنَ مِلكتَه بحفظِ ذلك السرّ فجزَّ ناصيتَه وجعله رَهِينةً ليومٍ *عتبه عليه . وقلَّ مَن يُحسنُ المِلكة ويحرسُ الحريَّة أو يضبطُ نفسَه ، فإنّه ربّما لم يُحرجْه غِشًّا فأخرجَه سُخفاً وضَعفاً . وإن أساء المِلكة وخَتَر الأمانة *أطلقَ السرّ واسْتَرعاه مَن هو أشدُّ له إضاعةً فسَفَك الدَم وأزال النِعم وكشفَ العَورة وفرّق بين الجميع ، وإن كان المُضيع لسرّه *ألوَمَ . قال الشاعر :

إذا ضاق صدرُ المرءِ عن سرّ نفسه فصدرُ الّذي يُسْتودَعُ السرَّ أضيقُ

فمَنْ أسوأُ حَالاً وأخسرُ مكاناً وأبعدُ من الحزم ممّن كان حُرًّا مالكاً لِنَفسه فصيَّر نفسَه عبداً مملوكاً لغيره مختاراً للرقّ من غير أَسْر ولا قَسْر . والعبيدُ لم يَصبرُوا على الرقّ إلا بذُلّ الأسْرِ والسِّبَاء . ومن كان سِرُّه مَصوناً في قلبه ، يُطلبُ إليه في الحديثِ به فأخرجَه عن يده ، *صار هو الطالب الراغب إلى من لا يُوجبُ له طاعة، ولا يُفكر له في عاقِبة، ولا يتحرَّز له بمصيبة . وكلَّما كانت إذاعَتُه لأسراره أكثرَ كان عَدَدُ مَواليه أكثر وشقاؤه بخدمتهم أدْوَم . فإذا كان أصلُ السرِّ معلوماً عند عِدَّة أو أقلَّ من العدَّة فما أعسرَ اسْتِتَارَه ، غير أنّه لا لَوْمَ على صاحبِ الجناية فيه ، *إذ كان ليس هو الذي أفشاه، ولا مِنْ قِبَلِهِ عُلِم .

---

(١) اختلاف - (٢) كذا - (٦) لعله : غضبه - (٨) فاطلق - (٩) اليوم -
(١٥) وصار - (١٩) إذا -

ولو أنّ أوْزَنَ الناس حِلماً مَلَكَ لِسانه وحصّن سرَّه وقلَّل لفظَه ، ما قدر على أن يملكَ لحظَ عينيه وسَحْنَة وجهِه وتغيُّر لونه وتبسُّمَه أو قُطوبَه ، عندما يجري به من ذكر ذلك السِرّ أو خَطَر بباله منه ، فيبدُو في وَجْهِه ومخايِلِه إذا عَرَض ذِكره أو سنح له نظيرٌ أو مِثل أو حَضَرَ مَن له فيه سَبَب ، إلاّ بعدَ التصنّع الشديد والتحفّظِ المُفرط. فإذا كان يُعرَف مِن هذه الجِهات وما اشْبَهَها ويُطَّلعُ عليه بتظنُّن *المرجِّمين والمتعقِّبين للأفعال والأقوال *والنظر في مَصادِرِ التدبير ومَخايِل الأمور ، فيفشُو مِن هذه الجهات أكثر مما تُفشيه ألسُنُ المذاييع *المبذر ، فكيفَ إذا أطلق به اللسانُ وعوِّدَ إذاعتَه القلبُ والعادةُ أمْلَكُ بالأدَب . وربَّما أدركه الحَدْسُ وقيضه الظنّ ، فنالتْ صاحبَه فيه خُدعة بأنْ يُذكرَ له طَرَفٌ منه، ويُوهَمَ أنّه قد فشا وشاع، فيُصدِّق الظنُّ فيجعله يقيناً، ويفسِّرُ الجملةَ فيصيِّرها تفصيلاً، فيُهلك نفسَه ويُوبقها . ورُبَّ كلامٍ قد ملأ بطونَ الطوامير قد عُرِف جملتُه وما فيه الضَّررُ منه بسَحاءةٍ أو *طابَعٍ أو لَحْظةٍ مُطَّلعٍ في الكتاب أو حرفٍ تبيَّن من ظَهْره . فاسْتيقِظْ عِندَ هذه الأحوال، واستعملْ سُوءَ الظَنِّ بجميع الأنام . فإنّه رُوِيَ عن النبي ﷺ أنّه قال : « الحزمُ سوءُ الظنّ » . وقيل لثقيف : بِمَ بلغتُم ما بلغتُم من الشَرف والسُؤدد ؟ قالوا : بسُوء الظنّ . فلا تعتمد على رجل في سرّك تحمد عقله دونَ أن تحمَد وُدَّه ونصحه ، فإنّ الأمر في ذلك كما قال الشاعر :

وما كلُّ ذي لُبٍّ بمؤتيك نُصحه ولا كلُّ مُؤتٍ نصحه بلبيب

ولقد استحسَن الناسُ من بعض رجال العراق أنّه دخل على

(٦) المرحمين - (٦ ـ ٧) والنظائر - (٨) كذا في الأصل ولعله : المبذرين ، أو البياذير - (١٣) طائر ‌‌ﻫ « وما كل ذي لب . . . » .

« وما كل ذي لب . . . » .

عبدالملك بنِ مروان فأوْقَع بالحجّاج عنده وسبَّه . فلمَّا خرج من عندِه خَبَّر بما كان منه لبعض أصحابه فلامه وأنّبه ، وقال : ما يُؤمنُك أن يُخبر أميرُ المؤمنين عبدُالملك الحجّاجَ بما قلتَ فيه ـ ومرجعك إلى العراق ـ فيَضْغَنه عليك ؟ قال : كلا والله إني ما رَطَلتُ بيدي قطُّ أحداً أرزنَ منه .

وهذا واللّهِ ـ أبقاك الله ـ الغلطُ البيِّن والعُذرُ الملفق وتحسينُ فارطِ الخطأ ، لأنَّه ليس كلُّ راجحٍ وعاقلٍ بناصحٍ لصاحبِ السرّ ، ولو كان أخوه كذلك كان أمرُه إليه أهمَّ وشأنُه أولى . والأعلَى من الناس لا يكلِّف الأدني هذه المؤونة ، وإنما يفعلُها الأدْنَون بالأعْلَين رَغبةً ورَهبةً وتحسُّناً عندَهم لحاجتهم إليهم .

وأكثرُ من يُذيعُ أسرارَ الناس أهلوهم وعبيدُهم وحاشيتُهم وصبيانُهم ، ولهم عليهم اليدُ والسلطان . فالسرُّ الذي يودعه خليفةٌ في عاملٍ له يلحقُهُ زَينُه وشَينُه أحرى أن لا يكتمه . وهذا سبيلُ كلِّ سرّ يُستودَعُه الجِلّة والعظماء ومَن لا تبلغُه العُقوبة ولا تلحقُه اللائمة .

وقال سليمانُ بنُ داود في حِكمته : ليكنْ أصدقاؤُك كثيراً ، وصاحب سرِّك واحداً من ألف . وليس معنى الحديث أن تَعدَّ ممَّن تعرِف ألفاً وتُفضِيَ إلى واحدٍ بسرٍّ إن لم يكنْ ذلك الواحدُ موضِعاً للأمانة في السرّ ، لكنَّه قيل : رجلٌ يساوي ألفَ رجل ورجلٌ لا يُساوي رجلاً ، وكقول رسول الله ﷺ : « الناسُ كإبلٍ مائةٍ لا يوجَدُ فيها راحِلة » . فكلُّ ذلك يُرادُ به أنّ الفضل قليلٌ والنقص *قليل لا على نِسَب ما يتلقّاه الاجتماعُ من هذه الأعداد ، لأنّا قد نجدُ الرجل يوزن بالأمّة ونجدُ الأمّة لا تساوي قُلامة ظُفرِ ذلك الرجل . فإذا كان من تقعُ عليه هذه الشريطةُ معدوماً سيَّما مَن يُوثَق

(١٩) كذا ، ولعل الصواب : كثير.

بحلمِه وعقله وأمانته ونُصحه ومن لا ضرَرَ عليه ولا نفعَ له في السرّ الذي يُضمرُ ولا يَحرُم عليه كتمانُه ، ومن قد وَأى على نفسِه بالسرِّ والحِفظ ، فإنه ليس كلُّ من ضُمِّن فلمْ يَضْمنْ ضامناً ، ولا من استُودع فلم يَقبلْ *مُستحفَظاً ، ولا من استخْلِف فلم يَخلف خائِناً ، وإنّما يلحقُه الحمدُ والذمُّ والأجر والإثم إذا ضَمِن الأمانةَ ثمّ خَترَها . فكأنَّ القومَ قالوا : لا تُودِعَنَّ سرَّك أحداً ، وإلاّ فمتى تجدُ رجلاً فيه الصِفة التي وصف بها مِسكينٌ الدارميُّ نفسَه حيثُ يقول :

إني امرؤٌ منّي الحياءُ الذي ترى   أنوءُ بأخلاقٍ قليل خداعُها
أواخي رجالاً لستُ أُطلِعُ بعضَهم   على سرِّ بعضٍ غير أني جِماعُها
يظلّون شتّى في البلاد وسرُّهم   إلى صخرةٍ أعيا الرجال انصِداعُها

وقيل لرجلٍ : كيفَ كتمانُك للسرّ ؟ قال : أجعلُ قلبي له قبراً أدفِنُه فيه إلى يومِ النشور . وقال الآخر :

* واكتمُ السرّ فيه ضربة العنق *

وهذه صِفاتٌ موجودةٌ بالأقوال معدومة بالأفعال ، والمغرورُ من اغترّ بما يعدُه الواعدُ منها دونَ أن يَبْلوَ الخَبَر . والذي جرَّبناه ووجَدناه أنَّ أكثرَ مَن يُفضَى إليه بالشيء يبلغُ من إذاعته ونشره ما لا يبلغُه الرسولُ المُسْتَحْفَظ المعنيُّ بتبليغ الرسالة المحمودُ المُجازي على أدائها ، حتّى ربّما كان لا يبلغُ في الإذاعةَ لمن أرادها أن يقصدَ للبلاّغة من الرجال المعروف بالنميمةِ والتَقْتيت فيوهِمُه أنّ قد اسْتَحْفَظَه السرّ فيشيعُ على لِسانه كما يَشيع الضَوْء

(٣) كذا فوق السطر ، وفي المتن : متحفظا .

« إني امرؤ . . . » الأبيات الثلاثة ضمن قطعة من خمسة أبيات في الحيوان (٥ : ١٨٢) .
« واكتم السر . . . » عجز بيت لأبي محجن الثقفي ، وصدره : « وقد أجود وما مالي بذي فنع » . وأبو محجن من شعراء مخضرمي الجاهلية والإسلام. =

في الظُّلمة . وهذا فعلُ عمرَ بنِ الخطّاب رضي الله عنه حينَ أحبَّ أن يشيع إسلامُه ، فقال : مَن أنمُّ أهل مكّة ؟ قيل له : جميلُ بن النُحيت ، فأتاه فأخبره بإسلامه وسأله أن يكتُمَه عليه ، فلم يُمسِ وبمكة أحدٌ لم يعلمْ بإسلام عمرَ رضي الله عنه . ثم يكون من أكثرِ الأعوان على إظهار السرّ الاستعهادُ فيه والتحذيرُ من نشره ، فإنّ النهي أغرى لأنّه تكليفُ مشقّة ، والصبر على التكليف شديد وهو خطِر ، والنفسُ طيّارة متقلبة تعشق الإباحة وتُغْرَمُ بالإطلاق . ولعلّ رجلاً لو قيل له لا تمسحْ يدَك بهذا الجِدار ، وهو لم يمسحها به قطُّ ، غُرِيَ بأن يفعل . وكذلك ما حُدِّث به من السرّ فلم يؤمر بستره لعلّه ألّا يخطرَ بباله ، لأنّه موجودٌ في طبائع الناس الوُلوعُ بكل ممنوع والضَجَرُ بكلّ محصول . فنريدُ أن نعلمَ لِمَ صار الإنسانُ على ما مُنِع وإنْ كان لا ينفعُه أحرصَ منه على ما أُبيحَ مِن غير عِلّةٍ ولا سببٍ *إلّا امتهانِ ما كثُر عليه واستطرافِ* ما قلَّ عندَه ، ولِمَ أقبلَ على مَن ولّى عنه وولّى عمَّن أقبل عليه ، ولِمَ قالوا : إذا جَدَّت المسألةُ جَدَّ المنع . وقال الشاعر :

الحُــرُّ يُلْحَى والعصا للعبــدِ   وليسَ للمُلحفِ مِثْـلُ الـرَدّ

ولِمَ صار يتمنّى الشيءَ وينذُرُ فيه النُذور وينقطعُ إليه شَوقاً ، فإذا ظَفِر به صدَّ عنه وأخلق عندَه ، ولِمَ زَهِد الملوكُ فيما في أيديهم ورَغِبوا فيما في أيدي الناس . فنقول : إنّ الله تبارَك وتعالى جعل لكلّ نفسٍ مبلغاً من

(١١-١٢) ولا امتهان بما ... واستطرف ۞ -

= « وهذا فعل عمر .. حين أحب أن يشيع إسلامه » : راجع الخبر في سيرة ابن هشام عن ابن عمر . غير أن اسم الرجل الذي أشاع إسلامه هو جميل بن معمر الجمحي ، لا جميل بن النحيت كما هنا (١ : ٣٧٣) وتمام اسمه : جميل بن مضر بن حبيب ، فلعل النحيت هي تصحيف حبيب .
الأمالي ٢ : ١٧٦ .
أنظر سيرة ابن هشام ١ : ٣٧٣ .
« وقال الشاعر : الحريلشي ... » هو بشار بن برد ، من ارجوزته : ياطل الحي بذات الصمد ، التي مدح بها عقبة بن سلم (الأغاني ٣ : ١٧٥) .

الوُسع لا يُمكنُها تجاوُزُه ولا تتّسِع لأكثرَ منه ، فكان معها فيما دُون الوُسع الفَقْرُ وخوفُ الإخوان، وفيما تجاوَزَه عزُّ الغني *وأمنُ العدم . وبهذا وبمثلِهِ مِن البُخل والحِرص استخفّتْ مَن احتاجَ إليها وأعْظَمتْ مَن استَغنى عنها ، وجَعَلها توّاقة مُشْتاقة مُطرفة ملاّلة كثيرةَ النِزاع والتقلُّب *يستحكم عليها العَنَتَة ويتلى خبرها وصبرها من جزعها* . ولولا هذه الخلالُ سَقَطت المِحَن ، فهي تُعَظِّم القليلَ بالضرورة إليه إنْ كان مِن أقْواتِها ، أو لشدَّة النِزَاع والشَوق إنْ كانَ مِن طُرَف شَهَواتِها ، فإنّ صنوفَ الشَهَوات كثيرة ولكل صِنفٍ منها أهلٌ لا يَحفِلون بما سِواه ، ويتعجَّبُ مِن الغريبِ النَادر ويُضحِكُها البديعُ الطارىء ، إلّا أنّه إذا كثُر الغريبُ صار قريباً ، وإذا تجاوَزَ المطلوبُ مقدارَ وُسعِها وحاجتها فصار ظهريّاً وفضلاً استخفّت به وقلَّ في أعيُنِها كثيرُه . وأعظمُ الأشياء عندَها قَدراً ما اشتدَّ إليه الفقرُ والحاجة وإن قلَّ ضَرَرُه ، وأهونُها عليها ما استُغنِيَ عنه وإن عَظُم خطرُه ، وجَعل لِما يتوقُ إليه ويشتاقُه مكاناً مِن قُواها له ، فإذا امتلأ ذلك المكانُ سروراً، وقضى ذلك الأرب وَطراً ممَّا كان طَمح إليه، ورَوِيَ ممّا كان ظامِئاً إليه ، انصرَف عنهُ وقلاه وحالَ عشقُه بُغضاً وشوقُه مَلالاً .

والعِلّة في ذلك أنّ الدُنيا دارُ زَوال ومَلَال ليس في كِيانها أن تثبُت هي ولا شيءٌ مِمّا فيها على حالٍ واحدة ، وإنّما الثُبوتُ الدائمُ لدار القَرار . فالسآمةُ تلحَقُها في مَحبوبها كما تلحقُها في مكروهها ، كما يُصيبُ المنتهِيَ مِن الطعامِ والشَرابِ والباه ، فإنّه ليس شيءٌ أبغضَ إلى مَن يَتَناهى فيه إلى غايَتِه من النظَر إلى ناحيته فَضْلاً عن مُلابَسَتِه ، إلى وقتِ عَودةِ السَبَبِ الأوّل .

(٢) و(٤ ـ ٥) كذا في الأصل .

فإذا كانت الطبائعُ تَتَشابَه ولكلّ حاسّةٍ قُوَّة ، فإذا امتلأتْ تِلكَ القوّةُ من محسوسها لم تجد لها وَراءه *طَعْماً ولا ريحاً وعادَ عليها بالضَرَر.

فبعضُ النظرِ يُعْمِي والصَوتُ الشديدُ يُصِمّ والرائحةُ المنتِنةُ تُبطِل المَشَمَّ والأطعمةُ الحارّة المُحرِقةُ تُبطِل حاسّةَ اللسان . وتتطرَّف كلّ واحدةٍ مِنها ، فبينَ الطيب عند مَن بَعُدَ *عهدُه < به > أو بالجماع والسَماع وبينه < عند > مَن *هو مغموسٌ فيه بَونٌ بعيدٌ جدّاً في الحلاوةِ وحُسنِ الموقع . كلّ ذلك ما لم يأتِ المالُ والعلمُ ، فإنّه كلّما كثُر كان أشهَى وأعجَب . لأنّ قصدَ الناسِ له ليس لطَلَب مِقدارِ الحاجة وسَدّ الخَلّة كما يريدهُ أهلُ القَناعةِ والزَهادة ، وإنّما يُرادُ لِقَمعِ الحِرص ، والحِرصُ لا حدَّ له ولا نِهاية ، لأنّه سعيٌ لا لِحاجةٍ وإيضاعٌ لا لِبغيةٍ . وهكذا قال رسولُ الله ﷺ : « لو أنّ لابنِ آدَمَ وادِيَين من ذهبٍ لابتغى إليهما ثالثاً ، ولا يملأُ جوفَ ابن آدمَ إلاّ التُراب » . وقال بعضُ الحكماء :

مَن كانَ لم يَغْنَ بما يُغنيه   فكلُّ ما في الأرْضِ لا يُغنيه

قال الله عزّ وجلّ ﴿ وَيُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ . وقال ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾. وقال الشاعر :

والناسُ إن شَبِعَت بُطونُهمُ   فعيونُهمْ في ذاكَ لا تَشبع

فأمّا الحديثُ الذي جاء : لا يَشبعُ أربعٌ مِن أربعةٍ : أرضٌ مِن مَطَر وعينٌ من نَظَر وأُنثى من ذَكَر وعالمٌ من علمٍ ، فإنّ العينَ لا تشبعُ في الجُملة كما لا يشبعُ الخيشومُ من الاستِنشاق . فأمّا مَن *< يَشبع مِن >

---

(٢) طمعاً ‍د ـ (٦ ـ ٧) صححنا العبارة : عهدهُ والجماع والسماع وبين من ‍د ـ (١٥ ـ ١٦) الفجر : ٢٠ والعاديات : ٨ ـ (٢٠) < يشبع من > : سقط من الأصل وأضفناه ـ

صِنفٍ ممّا يَراهُ دونَ صِنفٍ فإنّه يشبَعُ ويَروَى ويَصُدُّ ويَصدِفُ إلى غيرِه . وأمّا العلمُ فإنّه أوسعُ مِن أن يُحاطَ به ، فَمَن طَلَبه لشرفِه وفخرِه فإنّه لا حدّ له ولا نِهاية ، ولم يَزْدَدْ له طَلَباً إلاّ ازدادَ فيه رَغبةً ، ومَن طلبَ منه مِقدارَ كفايته وحاجَتِه كَفاهُ مِنه اليَسير . على أنّه لا يملكُ مَن كثُر عِلمُه أن يَرَى فيه الغِنَى والكِبرياء أيضاً ، وَقد يُملُّ كما يُملُّ كلُّ شَيءٍ وتَمَلُّ العينُ أيضاً منه ومِن المال .

وقيل : اثنانِ مَنهومان طالبُ علمٍ وطالبُ دُنيا . وهذه *النَّهمة تدلّ على الخروج عن العقل لأنّ *النَهَم تَجاوُز القدرِ . *وأمّا الحِرصُ على الممنوع الذي لا يُنتَفَع به والعجبُ ممّا لا يُتعجَّب مِن مِثله ، فليس من أخلاقِ العُقلاء ، وما لم يكنْ في أخلاقِهم فلا نَظَر فيه ولا قياس عليه . وإنّما ذلك مِن فِعل مَن إستَوحش من الحُجّة وشرّد عن علم العِلل والأسباب .

وإفشاء السرّ إنما يوكَّل بالخَبَر الرائع والخَطْبِ الجليل والدفينِ المغمور والأشنَعِ الأبلق ، مِثلِ سرِّ *الأديانِ لِغَلَبَةِ الهوَى عَليها وتَضاغُنِ أهلها بالاختِلاف والتضّادّ والوَلاية والعداوة ، ومثل سرِّ الملوك في كيدِ أَعدائهم ومَكنُون شَهَواتهم ومَستور تدابيرهم ، ثمَّ مَن يَليهم من العُظَماء والجِلّة ، لنَفاسة العَوَامّ على الملوك وأنّهم سماءٌ مُظِلّة عليهم أعيُنُهم إليها سامِية وقلوبُهم بها مُعلَّقة ورَغَبَاتُهم ورَهَبَاتُهم إليها مَصروفة . ثم عداوات الإخوان ، فإنّما صارت العداوةُ بعدَ المودَّة أشدَّ لاطّلاع الصديقِ على سرِّ صديقِه وإحصائه معايِبه ، وربَّما كان في حالِ الصداقة يجمعُ عليه

---

(٧) النهمة ، صححناه : القصة ✪ ـ (٨) الفهم تجاور الغدر ✪ ـ وانما الحرص ✪
(١٤) الإدمان ✪ ـ

السَقَطات ويُحصِي العيوب ويحتفظ بالرقاع ، إرصاداً ليومِ النَبْوَة وإعداداً لحالِ الصَريمة . وقد شكا بعضُ الملوكِ تَنقُّبَ العوامِّ عن أسرار المُلوك فقال :

مــا يُــريــدُ الــنــاسُ منّــا ... مــا يَــنــامُ الــنــاسُ عــنّــا
لــو سَــكــنّــا بــاطــنَ الأر ... ضِ لــكــانــوا حــيــثُ كُــنّــا
إنّــمــا هَــمُّــهُــمُ أنْ ... يَــنــشُــروا مَــا قــد دَفــنّــا

ولم نَرَ حُبَّ الطعنَ على الملوك والتجسُّسَ عن أخبارهم وعِشقَ نَشرِ المعايب واستِحلالَ الغِيبة ظاهراً في طِباع الناس لا يكادُ يَنجو مِنه أحدٌ منهم ، إلّا مَن رَجَح حِلمُه وعَظُمت مُروءتُه وظهر سُؤْدُده واَشتَدَّ وَرَعُه ، حتى قال بعضُهم : الغِيبَة فاكهة النُسّاك . ورَوَوا عن بعضهم أنَّه قال : الفاسِقُ لا غِيبةَ له . وقال آخر : *أتراعون مِن ذكرِ الفاسق ؟ اَذكروه يَعرفْه الناسُ .

ولم نرَ الله جلّ ثنَاؤه رَخّصَ في اغتياب مؤمنٍ ، بَل ضَرَبَ المثلَ في الغِيبة بأكْرَه ما تكرَهُه النفُوس وما تختارُ مِنه الموتَ على الحياة ، فقال ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ . واغتيابُ الناسِ جَميعاً خُطَّةُ جَوْرٍ في الحُكم ، وسقوطٍ في الهِمَّة ، وسَخافةٍ في الرأي ، *ودناءة في القيمة ، وكُلفة عريضة وحَسَد ونفَاسَة قد اسْتَحْوَذت على هذا العالَم ، وغلبَت على طَبَائِعهم ، وتوكّدت لسوءِ العادة عندهم ، ولعُلوّ الشرِّ على الخير وكثرةِ الدَغَل والنَغَلِ والحَسَدِ في القُلوب . فلستَ ترى منها ناجياً ، إمّا ناظرٌ *بعينِ عَدلٍ وإنصافٍ فهُوَ يرى ما يُنكِر فيبدو في

---

(٧) ولم نوجب ـ (١١) أترعون ☉ ـ (١٧) دناّه ☉ ـ (٢٠) بغير عدل ☉ ـ

(٦ـ٨) سورة الحجرات : ١٢ .

وجهه ولسانه وإمّا *ناظِرٌ بعينِ البغْضاء والعَداوة فهو كثيراً مّا يجدُ من العُيوب في عدوّه ما يُعينُه على التخرُّص عليه فيقويها ويزيد فيها ، وإن عدم الحق تقوَّل وقبّح الحَسَنَ وزادَ في قُبْح القبيح . والحديثُ كلُّه إلّا ما لا بالَ به ذكرُ الناس ولغوٌ وخَطَلٌ وهُجْرٌ وهُذاء وغِيبَة وهَمزٌ ولَمزٌ . وقَال بعضُ الحكماء لابنِه : يا بُنَيَّ إنَّما الإنسانُ حديثٌ فإن استطعتَ أن تكونَ حديثاً حَسَناً فآفعل .

وكلُّ سرٍّ في الأرض إنَّما هو خبرٌ عن إنسانٍ *وطَيٌّ عن إنسانٍ ، فله في الغِيبةِ أكثرُ الحظّ ، وجُلُّها كُلفة لا ضَرورةٌ . يَرَى صاحبُها أنَّه قد أهملَ مُحَاسَبَة نفسِه وغفرَ ذنوبها وألغى عُيوبَها ، وقَصَدَ قَصدَ غيره فتَشَاغل عما يَعنيه بما لا يعنيه ، فأنكرَ أقوالَه وأفعالَه *وهَجّن تدبيرَه وتعجَّب مِن مَقابِحه وجَهَد نفسَه في تفقُّد أمورِه ، ليس ذلك عن عِنايةٍ بصَلاحِه ولا محبَّةٍ لتقويمه وتهذيبه ،ولا أنه مُسيطِر عليه ولا محمودٌ عنده على ما عُني به مِن شَأنه ، بل هو عنده عينُ المذموم . وهذا جُلّ حديثِ البَشر وشُغلِهم في الليل والنهار .

قال بعضُ الحُكَماء : فُضول النَّظَر تدعُو إلى فَضْل القَول،وفُضول الخواطِر تبعثُ على اللهو والخَطَل . ولو كان الرجلُ لا يتكلّم إلاّ بما يَعنيه ولا يتكلّفُ ما قد كُفِيَه ، قلّ كلامُه . ولو حَكّم *العدل في أمورِه وفيما بينه وبين خالقه، وبينه وبين إخوانه ومُعامليه ، لطاب عيشُه وخَفَّت مَؤونتُه والمؤونةُ عليه . فإنّ الله تَبارَك وتعالى لم يخلُقْ مَذاقاً أحلى مِن العدل ولا أروَحَ على القُلوبِ من الإنصاف ، ولا أمرَّ من الظُلم ولا أبشَعَ من الجَور .

وقال بعضُ المتقدِّمين : إنَّما يَعرِفُ الظلمَ مَن حُكِم به عليه . ومن

---

(١) نظر د - كثير ما د - (٧) او طي د - (١٠) وهجر د - (١٧) العِدَى د -

استعمل العدلَ دلّه على أنّ الناسَ يَجِدُون مِن طَعْمه وطَعْم الظُلم إذا فَعَله بهم مثلَ الذي يجدُ إذا ظُلم ، فكَرِهَ لهم ما كرِه لنَفسه فأنصَف ولم يَظلم . ويَتَظالمُ الناسُ فيما بينهم بالشَرَه والحِرص المركَّب في أخلاقِهم ، فلذلك احتاجُوا إلى *الحُكّام وقد أطلق لهم تصريفها ، وأخلاقهم وأماناتهم التي ردّت إليهم الأحكام فيها ما جنايته عليهم أكثر مما يطالبهم به الخصوم .

وقال بعضُ الحكماء . إنّ من أصعبِ الأعمالِ إنصافَك في نفسِك ، ومُؤاساتَك أخاكَ في مالِك ، وذِكرَ الله ، أمَا إنّي لا أعْني قولَ : سُبحانَ الله والحمدُ للّهِ ولا إلهَ إلاّ اللّهُ واللّهُ أكبر ـ وإنَّ ذلك لَمِنْ ذِكر الله ـ ولكنْ ذِكرَه عندَما يَعرِضُ من الأمور ، فإن كان طَاعةً لله فَعلتَه وإن كانَ مَعصِيةً لله اجتنَبْتَه .

ورُوِيَ عن بعضِهم أنّه قال : ثلاثةٌ في ظِلّ عَرشِ الله يومَ لا ظلَّ إلاّ ظلُّه : رَجلٌ لم يَعِب أخاهُ بعَيبٍ فيه مِثلُه حتّى يُصلِح ذلك العيبَ من نفسه فإنّه لاَ يُصلِحه حتى يَهجُم على آخَر فتشغَلُه عيوبُه عن عيوبِ الناس ، ورجلٌ لم يُقدِّم يَداً ولا رِجْلاً حتّى يعلمَ *أفي طاعةِ الله هُوَ أم في مَعصِيته ، ورَجلٌ لم يَلتمس مِن الناس إلاّ مِثلَ ما يُعطيهم من نفسه . أمَا تُحِبّونَ أن تُنصِفوا ؟

وقال رسولُ الله ﷺ : « رحم اللّهُ عبداً أنفق الفَضلَ من مالِه وأمسَك الفضلَ من قَوله وشَغَله عيبُه عن عيوبِ الناس » .

وقال عيسى بنُ مَرْيم : يا بَني إسْرائيلَ أيَرَى أحدُكُم القَذاةَ في عين أخيه ويَغبَى عن الجِذْع المعترِض في عَينه .

---

(٤) لعل الصواب : الأحكام ؟ (١٤) انه في طاعته D -

وقيل لعيسى بن مَرْيم : ما أفضَلُ أعمالك ؟ قال : ترْكِي ما لا يَعنيني .

وقال عَمْرُو بنُ عُبَيد : أعْيَتْنِي ثلاثُ خِلال : تَرْكِي ما لا يَعنيني ودِرهَمٌ من حِلّه وأخٌ إذا احتجتُ إلى ما في يديهْ بَذَلَه لي .

وما أحَقَّ مَن أُحصِيَت ألفاظُه وليس من قولٍ يَبْدُرُ منه إلّا لَدَيه رقيبٌ عَتيد ، ومَن أُحصِيَت عليه مثاقيلُ الذّرِّ واسْتُشْهِد عليه جِلدُه وجوارِحُه ، أن يَضبُطَ لسانه . وقد جاء في بعضِ الآثار : مَن عَدَّ كلامَه مِن عملِه قلّ كلامُه إلّا فيما يَعنِيه .

وكلُّ امرىءٍ فحسيبُ نفسِه غيرُ مأخوذٍ بغيره ، وهُو الوحيدُ دونَ الأهل والوَلَد والقَرابة . وقال اللّهُ جلّ ثناؤُه ـ وقَوْلُه الحقُّ ـ : ﴿ كلُّ آمْرِىءٍ بما كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ . وقال : ﴿ يَأَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُم لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذَا آهْتَدَيْتُمْ ﴾ .

وليس الأمرُ بالمعروف والنهيُ عَن المُنكَر إلّا مَع السَيف والسَوطِ . وقال بعضُ الحُكماء : شَيْآنِ لا صَلَاحَ لأحَدِهما إلّا بالآخر : اللسانُ والسيف .

وأنت إذا تأمّلتَ أكثرَ ما يَتَناجى به المتحدِّثون ، وَجَدتَ أكثرَ السائِلين يسألُ عمّا لا يَعنِيه ويكترثُ لِما لا يَكرُثه ويُعنَى بما لا ينفعُه ولا يضرُّه ، وأكثرَ المُجيبين يجيبُ ولَم يُسْأَل ويتكلَّفُ ما لا يَعلم ، ولو قال له قائلٌ مَن سألَكَ لأفتَضح ولو حاجَّه فيما ادَّعى وَوَقَفه لانقَطع . قال الله عزّ وجلّ : ﴿ قُلْ مَا أَسْئَلُكُم عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أنَا مِن آلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ .

(٣ ـ ٤) سورة الطور : ٢١ ـ (٤ ـ ٥) سورة المائدة : ١٠٥ ـ (١٢) سورة ص ٨٦ .

ومرّ هشامُ بنُ عبدِالملِك ببعضِ أهل الكُلْفة والفُضول وعليه حُلّةٌ ذَيَّالة يسحبها في التُراب ، فقالَ له المتكلِّفُ : يا هذا إنَّكَ قد أفسدتَ ثوبَك ، قال وما يضرُّك مِن ذلك ؟ قال : لَيْتَكَ أَلْقَيتَه في النار ، قال : وما ينفعُكَ من ذلك ؟ فأفحَمه أقبحَ الإفحام . ولو تهيّأ للمتكلِّفين في كلّ وقت مثلُ صَرَامةِ هِشام لازْدَجَر مَن بِهِ حياءٌ مِنهم ولَقَلّت الفُضولُ والكُلَفُ والغِيبة .

قالوا : وليس مِن أحَدٍ أذَلُّ مِن مُغتابٍ ، لأنّه يُخفِي شخصَه ويُطامِن حِسَّه ويَغُضُّ مِن صَوتِه ، ولا يريدُ بما ينالُه مِن ذلك إلا بأن يرفعَ مِن قَدْرِ خَصمِه ويُعظِّمَ من شأنه .

قال مُعاوية : أتَدري مَن النبيلُ ؟ هُو الذي إذا رأيْتَه هِبْتَه وإذا غابَ عَنك اَغْتَبْتَه . وهي لَعَمْري سبيلُ العُظماء عندَ العوامّ والملوكِ عند الرَّعيَّة والسادة عند العَبيد ، فلم يأخُذ المغتابُ ممّن اغتابَه شَيئاً بعَضِيهَتِه إيّاه إلّا والذي أعطى مِن الهيْبة عند حُضوره أكثر منه . ولَو كان المُغتابُ لا يستَتِر من الغِيبة إلّا مِمّن يخافُ سَطْوتَه كان أعْذر ، ولكنّ اللُؤمَ المتمكِّنَ منه يحملُه على اغتيابِ عبدِه وأَمَتِه فضلاً عن كُفُؤِه ونظيره ، ويغتابُ الرجلَ عندَ عدوِّه والمُشاحن له مُساعَدَةً له بالسُخف وتقرُّباً إليه بالمهانة والضَعْف ، مِن غير أن يكونَ له عليه طَوْلٌ أو يلتمسَ مِنه على ما تَقرّب به إليه جزاءً أو شُكوراً . ثمّ لعلّه ينكفىءُ إلى الذي اغتابَه وقصَبَهُ من ساعَتِه ويَومه ، فيعطيه في عدوِّه الذي اغتابه عندَه أيضاً مِثلَ ذلك وأكثر منه ، لا لِعلّةٍ أيْضاً ولا مرفقٍ ولا رِبحٍ أكثرَ من الذلّة التي يجدُها في نفسِه والضَعفِ في مُنّته ، كما يُعظِّم الغنيّ بغير ثَمَنٍ ويحتقر الفقير بغير سَبَبٍ ، فَمَتى كوشِفَ أو عُوتِبَ لَبِسَته ذِلّةٌ أخرى من الكِظّة بالمعاذير الكاذبة والاعتِصامِ بالأيْمان الفاجرة ،

وَمَن كانت هذه *دُرْبَتُه فهو *حَرِيٌّ أن يُطَّلَعَ على دِخلة أمْره فلا يُقبل منه عُذرٌ ولا يُصدَّق في قولٍ ولا حَلِفٍ ، وقد *تَسربَلَ الذلّة وتدرَّعَ الخُضوعَ . وليسَ مِن سُوس النفسِ الكريمة الشَهْمة أن تَلقى الناسَ بِخلافِ ما *يَخلتقون بهِ ، ما لَم تأتِ ضَرُورةٌ يُحتاجُ فيها إلى كَيدٍ وغِيلة ، أو مكرٍ وحِيلة . ويُثارُ بالغِيبةِ فيها الرأيُ الأصيل مِن مَكانِه ، فيَفعلُ ذلك العاقل فيما يحِلُّ له ويَحسُنُ به ، بعدَ أن تُعيِيه الحِيلةُ في آستِصلاح ذلك العدوِّ بالرِفق والمُلاينة . وإنما قيل : قلَّ مَن آعْتَذَر إلّا كذَبَ ، لِكثرةِ التَطَفي في الناس وضَعفِ أنفُسِهم *على الإقرار بالذَنب . فلا ذِلّةُ الضَعف الثاني في الاعتذار نَهَت عن كُلفة الضَعفِ الأوّل في الاغتياب ، ولا كُلفةُ الضَعفِ *الأوّل صانَت عن ذِلة الضعف الثاني . وعلى أنَّ أكثرَ مَن يُعْتَذَرُ إليه ليسَ بقابلٍ للعُذر على حقيقةٍ ، وإن أظهرَ القَبولَ ، لِمَا جرَّب مِن سَخاء *النَفسِ بالأيمان وبُعدِهم من الإقرارِ بالذنب ، ما لم تأتِ حُجَّةٌ واضحة ودليلُ شاهِدٍ عَدلٍ .

وإذا كانتْ هذه سبيلَ المعتذَر إليه ، فيحِقُّ عَلَى المعتذِر ـ إنْ كانَت في نفسِه قيمةٌ ـ أن لا يَعتذِرَ إلّا إلى مَن يُحِبُّ أن يجدَ له عُذْراً ، ولا يَعجَلَ إلى الهين وهُو يجدُ للحُجَّة مكاناً . وأكثرُ مَن نعتَذِرُ إليه إنما نفعل ذلك به خَوفاً *من سقطِته وإبقاءً لسُلطانِه . والمتفقِّهُونَ يتأوَّلُون في الأيْمان السُلطانية ما يُلحِقُ بها عندَ السُلطان التُهمَةَ ، ويُلزِمُهم الظِنَّةَ ، سِيَّما في الأمور التي في الإقرارِ بها إباحةُ الدمِ والمالِ وهَتْكِ السِتر . ولا حَسْمَ لهذا الداء إلّا

---

(١) لعل الأصح : دريئته ـ جرى ه ـ (٢) مستديل ه ـ (٤) يخلفون ه ـ (٨) لعل الصواب : عن ـ (٩) الأولى ه ـ (١١) لعل الصواب : الناس ـ (١٧) لعل الصواب : من سخطته ـ

بآطِّراح الفُضُول وسلامَةِ اللسان مِن أن *يَلِغَ في الأعراض ويستسرَّ بالعضيهة والبُهتِ .

قال رسولُ الله ﷺ : « المسلمُ مَن سَلِم المسلمون من لِسانه ويده ، ومَن لَم يسلم الناسُ منه فليسَ سالِماً من نفسه » . وقال القائل : آحرُسْ أخاكَ إلّا مِن نفسِه . وقالوا: مقتلُ الرجُل بين فكَّيه . وكُتِب على بعضِ أبواب المُدُن *بالمُسند : آحفَظ رأسَك . وقال الأول : قد تَصِل النِصَالُ إلى الإخوان فتُستَخرج ، وأمثالُ النِصال من القول إذا وَصَلت إلى القلب لم تُستخرَج أبداً . وقال بَهرام ، وسَمِع في الليل صَوتَ طائرٍ فتحدَّاهُ بسَهمٍ وهو لا يراه إلّا أنّه تَتبَّعَ الصوتَ فصرعَه ، فلمّا صار بين يَدَيه قال : والطيرُ أيضاً لو سَكت كانَ خَيراً له . وقيل : ما شيءٌ أحَقُّ بطُولِ سِجنٍ من لسان . وقيل : إنّه يَسألُ اللسانُ الأعضاءَ في كلِّ يومٍ فيقول : كيف أنتُنَّ ، فيَقُلنَ : بخيرٍ إنْ تركتَنَا . وقال رسولُ الله ﷺ لمُعاذِ بنِ جَبَل : وهل يُكِبُّ الناسَ على مَنَاخِرهم في النار إلّا حَصَائِدُ ألْسِنتهم .

وقال عيسى عليه السلام : أعمالُ البرّ ثلاثة : المنطِقُ والنظرُ والصَمت ، فمَن كان منطِقهُ في غيرِ ذكرِ الله تَعالى فَقد لغا ، ومَن كان نظرُه في غير اعتبارٍ فقد سَها، ومَن كان صمتُه في غيرِ تفكُّرٍ فقد لها . فآنظُر بأيِّ الأمرين قطعتَ عُمرك : أبِالحِكمة أمْ باللغْو . وآنظُر كيف وَصَفَ اللّهُ تعالى مَن أثنى عليه بخيرٍ مِن عباده فقال : *﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ . وقال : ﴿ وَإذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ . وقال : ﴿ وإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً ﴾ . وصان عنهُ أسماعَ أهل الجنّة وألسِنَتهم فقال :

---

(١) يبلغ - (٦) بالسند -

(١٢) سورة المؤمنون : ٣ - (١٢ أ ١٣) سورة القصص : ٥٥ - (١٣) سورة الفرقان : ٧٢ -

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً ﴾ .

وقال رَسول الله ﷺ : « العبادةُ عشرةُ أجزاء تسعةٌ مِنها في الصَمت .

وقال عليٌّ بنُ أبي طالبٍ رِضوانُ الله عليه : أفضَلُ العبادة الصبرُ وانتظارُ الفَرَج .

وقال بعضُ الحكماء : لَو لم يكن لِلصامتِ في صَمتِه إلّا الكِفاية لأن يتكلّم بكلامٍ ويُحكَى عنه مُحرَّفاً فيضطرَّ إلى أن يقولَ : ليس هكذا قلتُ إنّما قلتُ كذا وكذا ، فيكونَ إنكارُه إقراراً ، واعترافُه بما حُكِي عنه شاهداً لِمَن وَشَى به ، وادِّعاءُ التَحريف غير مقبولٍ منه إلّا أن يأتيَ ببيّنةٍ *بها ، لَكانَ ذلك مِن أكثر فضائلِ الصَمت . وربما ذكرَ رجلٌ الله تَبارَك وتعالى ، فكانَ ذلك الذكرُ إثماً له ، لأنّه قد يُدخِله في باب تفخيم الذَنْبِ الحقير والإغراء والتَحريض ، فَيسفكُ الدمَ الحرام أو يعظِّم الجُرحَ الصغير ، بل ربَّما ضحِك وتبسَّم فأغرى وحرّض وأثمَ وأوبق . قال بعضُ الشُعراء :

فإن شئتُ أدلَى فيكما غير واحدٍ مُجاهَرةً أو قال عِنديَ في سرِّ
فإن أنا لم آمُر ولم أَنْهَ عنكُما ضحِكْتُ له حَتى يلجَّ ويَستَشرِي

وقالت العرب : مَن كُفِي شرَّ لَقْلَقِه وذَبْذَبِهِ وقَبْقَبِهِ فقد كُفِي الشرَّ .

وهذا بابٌ لَولا أن نشغَلَ القارىء لهذا الكتاب بغير ما قَصَدنا إليه وعَزَمنا عليه لأتينا عليه ، وهو كثيرٌ موجودٌ لِمَن طَلَبه . وجُمْلةٌ واحدةٌ فيها كِفايةٌ ، فإنّما تختلفُ الألفاظُ التي تُجْعَل كُسْوةً لتلك المعاني . وإلّا فإنك

---

(١٢) سورة المؤمنون : ٣ - (١٢ - ١٣) سورة القصص : ٥٥ - (١٣) سورة الفرقان : ٧٢ - (١٤) سورة الواقعة : ٢٥ - ٢٦ .

---

(١٤) سورة الواقعة : ٢٥ - ٢٦ .

قال بعض الشعراء : « فإن شئت ... » : الحيوان ١ : ١٥ من أبيات يرويها للمسعودي ، عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود .

إذا نظرتَ إلى جَميعِ شُرور الدُنيا وجدتَ أوّلَها كلمةً *غارت فجنَتْ حَرْباً عَوَاناً كحربِ بَكرٍ وتغلبَ ابنَيْ وائلٍ ، وعبسٍ وذُبيانَ ابنَيْ بَغيض ، والأوْسِ والخَزرج ابنَيْ قَيْلة ، والفِجار الأوّلِ والفجارِ الثاني وعامّةِ حُروب العَرب والعَجم . وإذا تأمّلتَ أخبارَ الماضين لم تُحْصِ عَدَدَ مَن قتله لسانُه وكان هلاكُه في كلمةٍ بَدَرَت منه . وليس العجبُ ممَّن أفضى بسرِّه إلى من ليس له بموضعٍ مِمَّن تقدَّمت مَعرِفَتُه وزالت الشكوكُ عنه في أمره ، ولكنَّ العجبَ عينَ العَجَب ممَّن اسْتَنَام بسرِّه إلى مَن لم يقدِّم معرفَته ، ومن أنِسَ إليه *عن اللقاء والملقائين دون معرفة العَين والاسمِ والسَّبَبِ والنَّسَبِ ، فانخَدَع في أوّلِ وَهلةٍ وغبِن عقلَه قَبلَ أن يَغْبَن دينَه ومالَه وتضاعَفَت عليه البليَّة بطولِ الحسرة ، فإنَّ البلاءَ عارِضٌ ومُكتَسَب ، فكان العارضُ السماويّ وما خوّلَته الأقدارُ سرًّا بعدَ اجتهادِ صاحبه رأيَه وحيلتَه في طَلَبِ الخير . وصوابُ تدبيرِه فيه أسهلُ وأيسرُ على العاقل المعتاد للصَّواب ، وإن كان كلُّ مكروهٍ مُرًّا بَشِعاً . وإنما الكربُ اللازم والداء العَيَاء ما اجتَمع على صاحبه مع الفجيعةِ والحاجَةِ والنَّقص والذِلّة غمُّ الندامة والأسفُ على ما فَرَط منه ، إذ كانَ الجاني على *نفسه بيده . ولهذا الكلام نظرٌ نَكرهُ التطويلَ به والمعنى واحد . وإنما تحتاجُ من هذا ومِثله ممّا قدّمناه ذكرَه في الكتاب إلى حفظ السرِّ ووَزن القول ، وإلى هذا أجرَينا وله قصَدنا . ولو اقتَصَرنا في هذا الكتابِ على حَرفٍ مما فيه لكان بإذْن الله كافياً لِمَن كان له لُبٌّ وعقلٌ ، لكنَّ الاحتجاجَ أوكدُ والإيضاحَ أبلغُ ، والحظُّ في هذا القولِ كلُّه لِمَن عَقَله والآخِذِ به أوْفَرُ *< منه > لمن قاله ولم يعمل بقَوله ، لأنّه إنّما يجتني ثَمَرة الصَّواب *ويختلف برفقه مَن صَدق قوله بِفعله . فإنّ

(٨) لعله : له ـ

(١) كذا في الأصل ولعلها : ثارت أو بدرت . (٨) عن اللغاة واللغاتين ق ـ (١٥) نفعه ق ـ (٢٠) < منه > : أضفناه ـ (٢١) لعله الصواب : ويجتلب نفعه .

الحكمةَ قولٌ وعمل ، وإنما حَظُّ القائل، ما لم يَستعمِل علمه وقوله، حظُّ الواصِفين ، وحسنُ الصِفة تزولُ بزَوالها وتنقَطِعُ بانقِطاعها ، ومُدّتها - إلى أن يملَّها القائل والسامع - *يسيرةٌ . والأفعالُ المحمودةُ متّصِلة النَفع والشَرفِ والفضيلة في الحياةِ وبعدَ الوفاة، ومَذخُورة للأعقاب، وحديثٌ جميلٌ ونَشْرٌ باقٍ على مَرِّ الجديدَين . وأكثرُ من ذلك كلِّه توفيقُ الله وتسديدُه ، فإنّ القلوبَ في يده، والخيرات مقسوماتٌ من عندِه . وحَسبُنا الله ونِعم الوكيل(*) .

---

(٣) بسبره ۞ -

(*) تم كتاب كتمان السر من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بعون الله وتأييده ومشيئته وتوفيقه والله الموفق للصواب برحمته ، والحمد لله أولاً وآخراً وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه .

المحتويات